

التفسير الكبير

للإمام

الحفص الساري

الجزء الثامن عشر

الطبعة الأولى

يطلب من ملتزم طبعه

عبد الرحمن بن محمد

مكتبة طبع مطبعة الشريف في داره

1357

حقوق الطبع والنقل محفوظة للملزمه

طبع بالمطبعة البهية المصرية

١٣٥٧ هجرية — ١٩٣٨ ميلادية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ  
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا  
تَسْأَلُنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي  
أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ  
الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن قوله (رب إن ابني من أهلي) فقد ذكرنا الخلاف في أنه هل كان ابناً له أم لا فلا نعيده . ثم إنه تعالى ذكر أنه قال (يانوح إنه ليس من أهلك) واعلم أنه لما ثبت بالدليل أنه كان ابناً له وجب حمل قوله (إنه ليس من أهلك) على أحد وجهين : أحدهما : أن يكون المراد أنه ليس من أهل دينك . والثاني : المراد أنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك والقولان متقاربان .

﴿المسألة الثانية﴾ هذه الآية تدل على أن العبرة بقراءة الدين لا بقراءة النسب فان في هذه الصورة

كانت قرابة النسب حاصله من أقوى الوجود . ولكن لما انتفت قرابة الدين لاجرم نفاء الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله (إنه ليس من أهلك)

ثم قال تعالى ﴿انه عمل غير صالح﴾ قرأ الكسائي: عمل على صيغة الفعل الماضي ، وغير بالنصب ، والمعنى : أن ابنك عمل عملا غير صالح يعني أشرك وكذب ، وكلمة (غير) نصب ، لأنها نعت لمصدر محذوف ، وقرأ الباقر : عمل بالرفع والتنوين ، وفيه وجهان : الأول : أن الضمير في قوله إنه عائد الى السؤال ، يعني أن هذا السؤال عمل وهو قوله (إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق) غير صالح . لأن طلب نجاة الكافر بعد أن سبق الحكم ، الجزم بأنه لا ينجي أحداً منهم سؤال باطل . الثاني : أن يكون هذا الضمير عائداً الى الآن ، وعلى هذا التقدير ففني وصفه بكونه عملا غير صالح وجوه : الأول : أن الرجل اذا كثّر عمله وإحسانه يقال له : إنه علم وكرم وجود ، فكذا ههنا لما كثّر إقدام ابن نوح على الأعمال الباطلة حكم عليه بأنه في نفسه عمل باطل . الثاني : أن يكون المراد أنه ذو عمل باطل ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه . الثالث : قال بعضهم معنى قوله (إنه) عمل غير صالح أي أنه ولد زنا وهذا القول باطل قطعاً .

ثم انه تعالى قال لنوح عليه السلام ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج بهذه الآية من قدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام من وجوه :  
 ﴿الوجه الأول﴾ أن قراءة عمل بالرفع والتنوين قراءة متواترة فهي محكمة ، وهذا يقتضي عود الضمير في قوله (إنه عمل غير صالح) إما إلى ابن نوح وإما إلى ذلك السؤال . فالقول بأنه عائد إلى ابن نوح لا يتم إلا باضمار وهو خلاف الظاهر . ولا يجوز المصير اليه الا عند الضرورة ولا ضرورة ههنا ، لأننا إذا حكمتنا بعود الضمير الى السؤال المتقدم فقد استغنينا عن هذا الضمير ، فثبت أن هذا الضمير عائد الى هذا السؤال ، فكان التقدير أن هذا السؤال عمل غير صالح . أي قولك : إن ابني من أهلي اطلب نجاته عمل غير صالح ، وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنباً ومعصية .

﴿الوجه الثاني﴾ أن قوله (فلا تسألن) نهى له عن السؤال . والمذكور السابق هو قوله إن ابني من أهلي فدل هذا على أنه تعالى نهاه عن ذلك السؤال فكان ذلك السؤال ذنباً ومعصية

﴿الوجه الثالث﴾ أن قوله (فلا تسألن ما ليس لك به علم) يدل على أن ذلك السؤال كان قد صدر لاعتن العلم ، والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)

﴿الوجه الرابع﴾ أن قوله تعالى (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) يدل على أن ذلك السؤال

كان محض الجهل ، وهذا يدل على غاية التقرير ونهاية الزجر ، وأيضاً جعل الجبل كناية عن الذنب ، مشهور في القرآن ، قال تعالى (يعملون السوء بجهالة) وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)

﴿الوجه الخامس﴾ أن نوحاً عليه السلام اعترف باقدامه على الذنب والمعصية في هذا المقام فانه قال (إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) واعترافه بذلك يدل على أنه كان مذنباً .

﴿الوجه السادس﴾ في التمسك بهذه الآية أن هذه الآية تدل على أن نوحاً نادى ربه لطلب تخليص ولده من الغرق ، والآية المتقدمة وهي قوله (ونادى نوح ابنه) وقال (يا بني اركب معنا) تدل على أنه عليه السلام طلب من ابنه الموافقة . فنقول : إما أن يقال إن طلب هذا المعنى من الله كان سابقاً على طلبه من الولد أو كان بالعكس ، والأول باطل . لأن بتقدير أن يكون طلب هذا المعنى من الله تعالى سابقاً على طلبه من الابن لكان قد سمع من الله أنه تعالى لا يخلص ذلك الابن من الغرق ، وأنه تعالى ناه عن ذلك الطلب ، وبعد هذا كيف قال له (يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) وأما إن قلنا : إن هذا الطلب من الابن كان متقدماً فكان قد سمع من الابن قوله (سأوى لي جبل يعصمني من الماء) وظهر بذلك كفره . فكيف طلب من الله تخليصه ، وأيضاً أنه تعالى أخبر أن نوحاً لما طلب ذلك منه وامتنع هو صار من المفرقين فكيف يطلب من الله تخليصه من الغرق بعد أن صار من المفرقين ، فهذه الآية من هذه الوجوه الستة تدل على صدور المعصية من نوح عليه السلام .

واعلم أنه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام من المعاصي ، وجب حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الأفضل والأكمل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، فلهذا السبب حصل هذا العتاب والأمر بالاستغفار ، ولا يدل على سابقة الذنب كما قال (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره) ومعلوم أن مجيء نصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجا ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال تعالى (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وليس جميعهم مذنبين ، فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك الأفضل .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ نافع برواية ورش وإسماعيل بتشديد النون وإثبات الياء (تسألني) وقرأ ابن عامر ونافع قالون بتشديد النون وكسرها من غير إثبات الياء ، وقرأ أبو عمرو بتخفيف



النون وكسرها وحذف الياء (تسألن) أما التشديد فللتأكيـد وأما إثبات الياء فعلى الأصل وأما ترك التشديد والحذف فللتخفيف من غير إخلال .

واعلم أنه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه أنه قال (رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) والمعنى أنه تعالى لما قال له (فلا تسألن ما ليس لك به علم) فقال عند ذلك قبلت يارب هذا التكليف ، ولا أعوذ اليه إلا أنى لا أقدر على الاحتراز منه إلا بأعانتك وهدايتك ، فلهذا بدأ أولاً بقوله (إني أعوذ بك)

واعلم أن قوله (إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) إخبار عما فى المستقبل ، أى لا أعوذ إلى هذا العمل . ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى ، فقال (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وحقيقة التوبة تقتضى أمرين : أحدهما : فى المستقبل ، وهو العزم على الترك واليه الإشارة بقوله (إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) والثانى : فى الماضى وهو الندم على ماضى واليه الإشارة بقوله (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) ونختم هذا الكلام بالبحث عن الزلة التى صدرت عن نوح عليه السلام فى هذا المقام . فنقول : إن أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره . ومؤمن يعلم إيمانه . وجمع من المنافقين ، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة . وحكم الكافرين هو الغرق ، وكان ذلك معلوماً ، وأما أهل النفاق فبقى حكمهم مخفياً . وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمناً ، وكانت الشفقة المفرطة التى تكون من الأب فى حق الابن تحمله على حل أعماله وأفعاله . لا على كونه كافراً ، بل على الوجوه الصحيحة ، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال (سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء) وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجرى بجرى الركوب فى السفينة فى أنه يصونه عن الغرق ، وقول نوح (لا عصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) لا يدل إلا على أنه عليه السلام كان يقرر عند ابنه أنه لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح ، وهذا أيضاً لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كان كافراً فعند هذه الحالة كان قد بقى فى قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن ، فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق . إماماً بأن يسكنه من الدخول فى السفينة ، وإما أن يحفظه على قلة جبل ، فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق وأنه ليس من أهل دينه ، فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو أنه لم يستقص فى تعريف ما يدل على نفاقه وكفره ، بل اجتهد فى ذلك وكان يظن أنه مؤمن . مع أنه أخطأ فى ذلك الاجتهاد . لأنه كان كافراً فلم يصدر عنه إلا الخطأ فى هذا الاجتهاد . كما قررنا ذلك فى أن آدم عليه السلام لم تصدر عنه تلك الزلة إلا لأنه أخطأ فى الاجتهاد ، فثبت بما ذكرنا أن الصادر عن نوح عليه السلام ما كان من باب الكبرياء وإنما هو من باب الخطأ فى الاجتهاد . والله أعلم .

قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى ﴿قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾  
وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تعالى أخبر عن السفينة أنها استوت على الجودي . فهناك قد خرج نوح وقومه من السفينة لاجل حاله ، ثم إنهم نزلوا من ذلك الجبل إلى الأرض فقلوه ( اهبط ) يحتمل أن يكون أمراً بالخروج من السفينة إلى أرض الجبل . وأن يكون أمراً بالهبوط من الجبل إلى الأرض المستوية .

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولاً ، ثم بالبركة ثانياً ، أما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين : الأول : أنه تعالى أخبر في الآية المتقدمة أن نوحاً عليه السلام تاب عن زلته وتضرع إلى الله تعالى بقوله (ولمّا تغفّرلى وترحمنى أكن من الخاسرين) وهذا التضرع هو عين التضرع الذى حكاه الله تعالى عن آدم عليه السلام عند توبته من زلته وهو قوله (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فكان نوح عليه السلام محتاجاً إلى أن يشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له (يانوح اهبط بسلام منا) حصل له الأمن من جميع المكروه المتعلقة بالدين . والثانى : أن ذلك الفرق لما كان عاماً في جميع الأرض فعند ما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس فى الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فكان كالحائف فى أنه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكل والمشروب ، فلما قال الله تعالى (اهبط بسلام منا) زال عنه ذلك الخوف ، لأن ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك إلا مع الأمن وسعة الرزق ، ثم إنه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة وهى عبارة عن الدوام والبقاء ، والثبات ، ونيل الأمل . ومنه بروك الأبل ، ومنه البركة لثبوت الماء فيها ، ومنه تبارك وتعالى ، أى ثبت تعظيمه ، ثم اختلف المفسرون فى تفسير هذا الثبات والبقاء .

﴿فالقول الأول﴾ أنه تعالى صير نوحاً أباً للبشر ، لأن جميع من بقى كانوا من نسله وعند هذا

قال هذا القائل : إنه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته ، فالحق كلهم من نسله وذريته ، وقال آخرون : لم يكن في سفينة نوح عليه السلام إلا من كان من نسله وذريته ، وعلى التقديرين فالحق كلهم إنما تولدوا منه ومن أولاده ، والدليل عليه قوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) فثبت أن نوحاً عليه السلام كان آدم الأصغر ، فهذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها .

﴿والقول الثاني﴾ أنه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات ، وعده بأن موجبات السلامة ، والراحة والفراغة يكون في التزايد والثبات والاستقرار ، ثم إنه تعالى لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه فقال (وعلى أمم ممن معك) واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال : منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمماً وجماعات ، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلاهم ، فلهذا السبب جعلهم أمماً ، ومنهم من قال : بل المراد من معك نسلاً وتولداً قالوا : ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى (وما آمن معه إلا قليل) ومنهم من قال : المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك ، والمختار هو القول الثاني (ومن) في قوله (ومن معك) لأبتداء الغاية ، والمعنى : وعلى أمم ناشئة من الذين معك .

واعلم أنه تعالى جعل تلك الأمم الناشئة من الذين معه على قسمين : أحدهما : الذين عطفهم على نوح في وصول سلام الله وبركاته إليهم وهم أهل الإيمان . والثاني : أمم وصفهم بأنه تعالى سيمتعهم مدة في الدنيا ثم في الآخرة يمسهم عذاب أليم ، لحكم تعالى بأن الأمم الناشئة من الذين كانوا مع نوح عليه السلام لا بد وأن ينقسموا إلى مؤمن ، وإلى كافر . قال المفسرون : دخل في تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة إلى يوم القيامة ، ودخل في ذلك المتاع وفي ذلك العذاب كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ، ثم قال أهل التحقيق : إنه تعالى إنما عظم شأن نوح بإصال السلامة والبركات منه إليه ، لأنه قال (بسلام منا) وهذا يدل على أن الصديقين لا يفرحون بالنعمة من حيث أنها نعمة . ولكنهم إنما يفرحون بالنعمة من حيث أنها من الحق ، وفي التحقيق يكون فرحهم بالحق وطلبهم للحق وتوجههم إلى الحق ، وهذا مقام شريف لا يعرفه إلا خواص الله تعالى ، فإن الفرح بالسلامة وبالبركة من حيث هما سلامة وبركة غير ، والفرح بالسلامة والبركة من حيث أنهما من الحق غير . والأول : نصيب عامة الخلق ، والثاني : نصيب المقربين ، ولهذا السبب قال بعضهم : من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني ، ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاص لجلة



تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ  
قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

الوصول ، وأما أهل العقاب فقد قال في شرح أحوالهم (وأمر ستمتعهم ثم يمسهم من عذاب أليم) حكم بأنه تعالى يعطيهم نصيباً من متاع الدنيا فدل ذلك على خساسة الدنيا ، فانه تعالى لما ذكر أحوال المؤمنين لم يذكر البتة أنه يعطيهم الدنيا أم لا . ولما ذكر أحوال الكافرين ذكر أنه يعطيهم الدنيا ، وهذا تنبيه عظيم على خساسة السعادات الجسدية والترغيب في المقامات الروحية .

قوله تعالى «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين»

واعلم أنه تعالى لما شرح قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال (تلك) أي تلك الآيات التي ذكرناها ، وتلك التفاصيل التي شرحناها من أنباء الغيب ، أي من الأخبار التي كانت غائبة عن الخلق فتولى (تلك) في محل الرفع على الابتداء ، و (من أنباء الغيب) الخبر (نوحها إليك) خبر ثان وما بعده أيضاً خبر ثالث .

ثم قال تعالى «ما كنت تعلمها أنت ولا قومك» والمعنى : أنك ما كنت تعرف هذه القصة ، بل قومك ما كانوا يعرفونها أيضاً ، ونظيره أن تقول لانسان لا تعرف هذه المسألة لا أنت ولا أهل بلدك :

فان قيل : أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند أهل العلم ؟ قلنا : تلك القصة بحسب الاجمال كانت مشهورة ، أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة ثم قال «فاصبر إن العاقبة للمتقين» والمعنى : يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أدى أولئك الكفار . وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه .

فان قال قائل : إنه تعالى ذكر هذه القصة في سورة يونس ثم إنه أعادها ههنا مرة أخرى ، فما الفائدة في هذا التكرير ؟

قلنا : إن القصة الواحدة قد يلتفت بها من وجوه : ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب ، فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر



وَإِلَى عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾

ثم في العاقبة ظهر . فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذه السورة ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإنحاش . فذكر الله تعالى هذه القصة ليبين أن إقدام الكفار على الإيذاء والإنحاش كان حاصلًا في زمان نوح ، لإلأنه عليه السلام لم يصبر نال الفتح والظفر . فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ، ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكررها خاليا عن الفائدة .

قوله تعالى ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثانية من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة ، واعلم أن هذا معطوف على قوله (ولقد أرسلنا نوحا) والتقدير : ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا وقوله (هودا) عطف بيان .

واعلم أنه تعالى وصف هوداً بأنه أخوهم . ومعلوم أن تلك الاخوة ما كانت فى الدين . وإنما كانت فى النسب ، لأن هوداً كان رجلاً من قبيلة عاد . وهذه القبيلة كانت قبيلة من العرب وكانوا بناحية اليمن ، ونظيره ما يقال للرجل يا أخا تميم ويا أخا سليم . والمراد رجل منهم .

فان قيل : إنه تعالى ، قال : فى ابن نوح (إنه ليس من أهلك) فبين أن قرابة النسب لا تنفد إذالم تحصل قرابة الدين . وههنا أثبت هذه الاخوة مع الاختلاف فى الدين ، فما الفرق بينهما ؟

قلنا : المراد من هذا الكلام استمالة قوم محمد صلى الله عليه وسلم . لأن قومه كانوا يستبعدون فى محمد مع أنه واحد من قبيلتهم أن يكون رسولا اليهم من عند الله . فذكر الله تعالى أن هوداً كان واحداً من عاد . وأن صالحا كان واحداً من ثمود لازالة هذا الاستبعاد .

واعلم أنه تعالى حكى عن هود عليه السلام ، أنه دعا قومه إلى أنواع من التكليف .  
(فانوع الأول) أنه دعاهم إلى التوحيد ، فقال (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم

إلا مفترون) وفيه سؤال وهو أنه كيف دعاهم إلى عبادة الله تعالى قبل أن أقام الدلالة على ثبوت الإله تعالى ؟

قلنا : دلائل وجود الله تعالى ظاهرة ، وهي دلائل الآفاق والآنفس . وقلنا توجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الإله تعالى ، ولذلك قال تعالى في صفة الكفار (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)

قال مصنف هذا الكتاب : محمد بن عمر الرازي رحمه الله وختم له بالحسن ، دخلت بلاد الهند فرأيت أولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الإله ، وأكثر بلاد الترك أيضا كذلك ، وإنما الشأن في عبادة الأوثان ، فإنها آفة عمت أكثر أطراف الأرض . وهكذا الأمر في الزمان القديم ، أعنى زمان نوح وهود وصالح عليهم السلام ، فهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، كانوا يمنعونهم من عبادة الأصنام ، فكان قول (اعبدوا الله) معناه لا تعبدوا غير الله . والدليل عليه أنه قال عقيبه (مالك من إله غيره) وذلك يدل على أن المقصود من هذا الكلام منعهم عن الاشتغال بعبادة الأصنام .

وأما قوله «مالك من إله غيره» فقرأه (غيره) بالرفع صفة على محل الجار والمجرور ، وقرأه بالجر صفة على اللفظ .

ثم قال «إن أنتم إلا مفترون» يعنى أنكم كاذبون في قولكم إن هذه الأصنام تحسن عبادتها ، أو في قولكم إنها تستحق العبادة ، وكيف لا يكون هذا كذبا وافتراء . وهي جمادات لاحس لها ولا أدراك ، والإنسان هو الذى ركبها وصورها فكيف يليق بالإنسان الذى صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيما لها ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام لما أرشدهم إلى التوحيد ومنعهم عن عبادة الأوثان قال و(يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرني) وهو عين ما ذكره نوح عليه السلام . وذلك لأن الدعوة إلى الله تعالى إذا كانت مطهرة عن دنس الطمع ، قوى تأثيرها في القلب .

ثم قال «أفلا تعقلون» يعنى أفلا تعقلون أنى مصيب في المنع من عبادة الأصنام ، وذلك لأن العلم بصحة هذا المنع ، كأنه مركز في بدائه العقول .

وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا  
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى «ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين»

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من التكليف التي ذكرها هود عليه السلام لقومه . وذلك لأنه في المقام الأول دعاهم إلى التوحيد ، وفي هذا المقام دعاهم إلى الاستغفار ثم إلى التوبة ، والفرق بينهما قد تقدم في أول هذه السورة . قال أبو بكر الأصم : استغفروا . أى سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى . وبالغزم على أن لا تعودوا إلى مثله ، ثم إنه عليه السلام قال «إنكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم» وهذا غاية ما يراد من السعادات . فإن النعم إن لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وإن كانت حاصلة ، إلا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضا . أما إذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها ، فهذه تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى (يرسل السماء عليكم مدراراً) إشارة إلى تكثير النعم لأن مادة حصول النعم هي الأمطار الموافقة . وقوله (ويزدكم قوة إلى قوتكم) إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة ، ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات . وأن الزيادة عليها متمنعة في صريح العقل ، ويجب على العاقل أن يتأمل في هذه اللطائف ليعرف ما في هذا الكتاب الكريم من الأسرار الخفية ، وأما المفسرون فأنهم قالوا القوم كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال : أحدهما : أن يساتبنهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة . والدليل عليه قوله (إرم ذات العباد التي لم يخلق مثلها في البلاد) والثاني : أنهم كانوا في غاية القوة والبطش ولذلك قالوا : من أشد منا قوة ، ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين وعدهم هود عليه السلام . أنهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فإن الله تعالى يقوى حالهم في هذين المطلوبين ويزيدهم فيها درجات كثيرة ، ونقل أيضا أن الله تعالى لما بعث هوداً عليه السلام إليهم وكذبوه وحبس الله عنهم المطر سنين وأعقم أرحام نساءهم فقال لهم هود : إن آمنتُم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد . فذلك قوله (يرسل السماء عليكم مدراراً) والمدرار الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة وقوله (ويزدكم قوة إلى قوتكم) ففسروا هذه القوة بالمال ولولد ، والشدة في الأعضاء . لأن كل ذلك مما يتقوى به الإنسان .

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ  
بِمُؤْمِنِينَ «٥٣» إِنَّا نَقُولُ إِلَّا اعْتَزَّكَ بِعَظْ آلِهَتِنَا بِسُوءِ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ  
وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ «٥٤» مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ  
لَا تَنْظُرُونَ «٥٥» إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ  
بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «٥٦»

فان قيل : حاصل الكلام هو أن هوداً عليه السلام قال : لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت  
عليكم ابواب الخيرات الدنيوية ، وليس الأمر كذلك ، لأنه عليه الصلاة والسلام قال «خص البلاء  
بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» فكيف الجمع بينهما . وأيضاً فقد جرت عادة القرآن بالترغيب  
في الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والاخرية عليها ، فأما الترغيب في الطاعات ، لأجل  
ترتيب الخيرات الدنيوية عليها ، فذلك لا يليق بالقرآن بل هو طريق مذكور في التوراة .  
الجواب : أنه لما أكثر الترغيب في السعادات الاخرية لم يبعد الترغيب أيضاً في خير الدنيا  
بقدر الكفاية .

وأما قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْيَهُودَ وَلَا نَصَارَةَ﴾ فعناه : لاتعرضوا عنى وعما أدعوكم اليه وأرغبكم فيه  
مجرمين أى مصرين على إجراهم وآثامكم .

قوله تعالى ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ  
إِنَّا نَقُولُ إِلَّا اعْتَزَّكَ بِبَعْضِ آلِهَتِنَا بِسُوءِ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ مِنْ  
دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ  
بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكي عن هود عليه السلام مذكرد للقوم ، حكى أيضاً ما ذكره القوم له وهو  
أشياء : أولها : قولهم (ما جئنا ببينة) أى بحجة ، والبينة سميت بينة لأنها تبين الحق من الباطل . ومن  
المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات إلا أن القوم مجهلهم أنكروها ، وزعموا أنه ماجاء  
بشيء من المعجزات . وثانيها : قولهم (وما نحن بتاركى آلِهتنا عن قولك) وهذا أيضاً ركيز ، لأنهم



كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر ، ومتى كان الأمر كذلك فقد ظهر في بديهة العقل أنه لا تجوز عبادتها وتركهم آلهتهم لا يكون عن مجرد قوله بل عن حكم نظر العقل وبديهة النفس . وثالثها : قوله ( وما نحن لك بمؤمنين ) وهذا يدل على الإصرار والتقليد والجحود . ورابعها : قولهم ( إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ) يقال : اعتراه كذا إذا غشيه وأصابه . والمعنى : أنك شمت آلهتنا فجعلتك مجنونا وأفسدت عقلك . ثم إنه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام ( إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ) وهو ظاهر .

ثم قال ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ وهذا نظير ما قاله نوح عليه السلام لقومه ( فاجمعوا أمركم وشركائكم ) إلى قوله ( ولا تنظرون )

واعلم أن هذا معجزة قاهرة . وذلك أن الرجل الواحد إذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم : بالغوا في عداوتي وفي موجبات إيذائي ولا تؤجلون فإنه لا يقول هذا إلا إذا كان واثقاً من عند الله تعالى بأنه يحفظه ويصونه عن كيد الأعداء .

ثم قال ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ قال الأزهري : الناصية عند العرب مثبت الشعر في مقدم الرأس . ويسمى الشعر الثابت هناك ناصية باسم منبته .

واعلم أن العرب إذا وصفوا انساناً بالذلة والخضوع . قالوا : ماناصية فلان لا يبد فلان ، أي أنه مطيع له . لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته ، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره . فغوطبوا في القرآن بما يعرفون فقوله ( ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ) أي ما من حيوان إلا وهو تحت قهره وقدرته . ومتقاد لقضائه وقدره .

ثم قال ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ وفيه وجوه : الأول : أنه تعالى لما قال ( ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ) أشعر ذلك بقدره عالية وقهره عظيم فأتبعه بقوله ( إن ربي على صراط مستقيم ) أي أنه وإن كان قادراً عليهم لسكنه لا يظلمهم ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل والصواب . قالت المعتزلة قوله ( ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ) يدل على التوحيد وقوله ( إن ربي على صراط مستقيم ) يدل على العدل . فثبت أن الدين إنما يتم بالتوحيد والعدل . الثاني : أنه تعالى لما ذكر أن سلطانه قهر جميع الخلق أتبعه بقوله ( إن ربي على صراط مستقيم ) يعني أنه لا يتحقق عليه مستمر . ولا يفوته هارب . فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه . كما قال ( إن ربك لبالمرصاد ) الثالث : أن يكون المراد ( إن ربي ) يدل على الصراط المستقيم . أي يبحث . أو يحملكم بالدعاء إليه .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾  
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ جَدُّوْنَا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ لَعَادٍ قَوْمُ هُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾

اعلم أن قوله (فإن تولوا) يعني فإن تولوا ثم فيه وجهان : الأول تقدير الكلام فإن تولوا لم أعاتب على تقصير في الإبلاغ وكنتم محجوجين كأنه يقول : أتم الذين أصرتم على التكذيب . الثاني (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم)

ثم قال ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعني يخلق بعدكم من هو أطوع لله منكم ، وهذا إشارة إلى نزول عذاب الاستئصال ولا تضررونه شيئا ، يعني أن إهلاككم لا ينقص من ملكه شيئا .

ثم قال ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ وفيه ثلاثة أوجه : الأول : حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها . الثاني : يحفظني من شرك ومكرهم . الثالث : حفيظ على كل شيء يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء .

قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ آيَاتُ جَدُّوْنَا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ لَعَادٍ قَوْمُ هُودٍ﴾

اعلم أن قوله (ولما جاء أمرنا) أي عذابنا وذلك هو منازلهم من الريح العقيم . عذبهم الله بها سبع ليالٍ وثمانية أيام . تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا كأنهم نخل خاوية .

فان قيل : فهذه الريح كيف تؤثر في إهلاكهم ؟

قلنا : يحتمل أن يكون ذلك لشدة حرها أو لشدة بردها أو لشدة قوتها ، فتختطف الحيوان من الأرض ، ثم تضربه على الأرض ، فكل ذلك محتمل .

وأما قوله ﴿نجينا هودا﴾ فاعلم أنه يجوز إتيان البلية على المؤمن وعلى الكافر معا ، وحينئذ تكون تلك البلية رحمة على المؤمن وعذابا على الكافر . فأما العذاب النازل بمن يكذب الأنبياء عليهم السلام فانه يجب في حكمة الله تعالى أن ينجي المؤمن منه ، ولولا ذلك لما عرف كونه عذابا على كفرهم ، فلهذا السبب قال الله تعالى ههنا ﴿نجينا هودا والذين آمنوا معه﴾

وأما قوله ﴿برحمة منا﴾ فقيه وجوه : الأول : أراد أنه لا ينجو أحد وإن اجتهد في الإيمان والعمل الصالح إلا برحمة من الله ، والثاني : المراد من الرحمة : مهادم اليه من الإيمان بالله والعمل الصالح . الثالث : أنه رحمهم في ذلك الوقت ، وميزهم عن الكافرين في العقاب :

وأما قوله ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ فالمراد من النجاة الأولى : هي النجاة من عذاب الدنيا ، والنجاة الثانية من عذاب القيامة ، وإنما وصفه بكونه غليظا تنبيها على أن العذاب الذي حصل لهم بعد موتهم بالنسبة إلى العذاب الذي وقعوا فيه كان عذابا غليظا ، والمراد من قوله تعالى ﴿ونجيناهم﴾ أي حكمتنا بأنهم لا يستحقون ذلك العذاب الغليظ ولا يقعون فيه .

واعلم أنه تعالى لما ذكر قصة عاد خاطب قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال (وذلك عاد) فهو إشارة إلى قبورهم وآثارهم ، كأنه تعالى قال : سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا . ثم إنه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة ، فأما أوصافهم فهي ثلاثة .

﴿الصفة الأولى﴾ قوله (جحدوا بآيات ربهم) والمراد : جحدوا دلالة المعجزات على الصدق ، أو الجحد . ودلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم ، إن ثبت أنهم كانوا زنادقة .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله (وعصوا رسله) والسبب فيه أنهم إذا عصوا رسولا واحداً . فقد عصوا جميع الرسل لقوله تعالى (لا تفرق بين أحد من رسله) وقيل : لم يرسل إليهم إلا هود عليه السلام .

﴿الصفة الثالثة﴾ قوله (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) والمعنى أن السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم (ما هذا إلا بشر مثلكم) والمراد من الجبار المرتفع المتمرد العنيد العنود والمعاند ، وهو المنازع المعارض .

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ  
أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي  
قَرِيبٌ مُجِيبٌ ٦١ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ  
نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ٦٢

واعلم أنه تعالى لما ذكر أوصافهم ذكر بعد ذلك أحوالهم فقال (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة  
ويوم القيامة) أى جعل اللعن ردفاً لهم ، ومتابعا ومصاحباً في الدنيا وفي الآخرة ، ومعنى اللعنة  
الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير .

ثم إنه تعالى بين السبب الأصلي في نزول هذه الأحوال المسكروحة بهم فقال (ألا إن عاداً  
كفروا ربهم) قيل : أراد كفروا بربهم خذف الباء ، وقيل : الكفر هو الجحد . فالتقدير : ألا إن  
عاداً جحدوا ربهم . وقيل : هو من ياب حذف المضاف أى كفروا نعمة ربهم ،  
ثم قال (ألا بعداً لعاد قوم هود) وفيه سؤالان :  
(السؤال الأول) اللعن هو البعد ، فلما قال (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) فما  
الفائدة في قوله (ألا بعداً لعاد)

والجواب : التكرير بعبارةتين يدل على غاية التأكيد .

(السؤال الثانى) ما الفائدة في قوله (لعاد قوم هود)

الجواب : كان عاد . عادين ، فالأولى : القديمة هم قوم هود ، والثانية : هم إرم ذات العماد ، فذكر  
ذلك لازالة الاشتباه . والثانى : أن المبالغة في التنصيص تدل على مزيد التأكيد .

قوله تعالى «وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من  
الأرض واستعمركم فيها فاستغفروهم ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنت فينا  
مرجوا قبل هذا أتتهنا أن نعبد ما يعبد آبائنا وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب»

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة . وهى قصة صالح مع ثمود ،  
ونظمتها مثل النظم المذكور في قصة هود ، إلا أن ههنا لما أمرهم بالوحيد ذكر في تقريره دليلين :  
(الدليل الأول) - قوله (هو أنشأكم من الأرض) وفيه وجهان :



﴿الوجه الأول﴾ أن الكل مخلوقون من صلب آدم ، وهو كان مخلوقاً من الأرض . وأقول : هذا صحيح لكن فيه وجه آخر وهو أقرب منه . وذلك لأن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث ، والمني إنما تولد من الدم . فالإنسان مخلوق من الدم ، والدم إنما تولد من الأغذية ، وهذه الأغذية إما حيوانية وإما نباتية . والحيوانات حالها كحال الإنسان ، فوجب انتهاء الكل إلى النبات وظهر أن تولد النبات من الأرض ، ثبت أنه تعالى أنشأنا من الأرض .

﴿والوجه الثاني﴾ أن تكون كلمة (من) معناها في التقدير : أنشأكم في الأرض ، وهذا ضعيف لأنه متى أمكن حمل الكلام على ظاهره فلا حاجة إلى صرفه عنه . وأما تقرير أن تولد الإنسان من الأرض كيف يدل على وجود الصانع فقد شرحناه مراراً كثيرة .

﴿الدليل الثاني﴾ قوله (واستعمركم فيها) وفيه ثلاثة أوجه : الأول : جعلكم عمارها ، قالوا : كان ملوك فارس قد كثروا في حفر الأنهار وغرس الأشجار . لا جرم حصلت لهم الأعمار الطويلة فسأل نبي من أنبياء زماسهم ربه ، ما سبب تلك الأعمار ؟ فأوحى الله تعالى إليهم أنهم عمروا بلادهم فعاش فيها عبادي ، وأخذ معاوية في إحياء أرض في آخر عمره فقبل له ما حمله عليه . فقال : ما حملني عليه الا قول القائل :

ليس الفتى يفتى لا يستضاء به ولا يكون له في الأرض آثار

الثاني : أنه تعالى أطال أعماركم فيها واشتقاق (واستعمركم) من العمر مثل استبقاكم من البقاء . والثالث : أنه مأخوذ من العمرى ، أى جعلها لكم طول أعماركم فإذا تمتم انتقلت إلى غيركم . واعلم أن في كون الأرض قابلة للعبارات النافعة للإنسان ، وكون الإنسان قادراً عليها دلالة عظيمة على وجود الصانع ، ويرجع حاصله إلى ما ذكره الله تعالى في آية أخرى وهى قوله (والذى قدر فهدى) وذلك لأن حدوث الإنسان مع أنه حصل في ذاته العقل الهادى والقدرة على التصرفات الموافقة يدل على وجود الصانع الحكيم . وكون الأرض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع يدل أيضاً على وجود الصانع الحكيم .

أما قوله ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾ فقد تقدم تفسيره .

وأما قوله ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ يعنى أنه قريب بالعلم والسمع (مجيب) دعاء المحتاجين بفضلته ورحمته ، ثم بين تعالى أن صالحاً عليه السلام لما قرره هذه الدلائل (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) وفيه وجوه : الأول : أنه لما كان رجلاً قوى العقل قوى الخاطر وكان من قبيلتهم قوى رجائهم في أن ينصر دينهم ويقوى مذهبهم ويقرر طريقتهم لأنه متى حدث رجل فاضل في قوم

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي مِّن رَّحْمَةِ رَبِّي فَفِي شَكٍّ مِّنْ بَيِّنَتِي  
مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

طلبوا فيه من هذا الوجه . الثاني : قال بعضهم المراد أنك كنت تعطف على فقرائنا وتعين ضعفاءنا  
وتعود مرضانا فتوى رجاؤنا فيك أنك من الأنصار والاحباب ، فكيف أظهرت العداوة والبغضة  
ثم إنهم أضافوا الى هذا الكلام التعجب الشديد من قوله (فقالوا أتأنتها أن نعبد ما يعبد آبائنا)  
والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الآباء والأسلاف ، ونظير هذا  
التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا (أجعل الآلهة الها واحداً إن هذا لشيء عجاب  
ثم قالوا (وإننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب) والشك هو أن يبقى الانسان متوقفا بين النبي والاثبات  
والمريب هو الذي يظن به السوء فقوله (وإننا لفي شك) يعني به أنه لم يرجح في اعتقادهم صحة قوله  
وقوله (مريب) يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله وهذا مبالغة في تزييف كلامه .

قوله تعالى «قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله  
إن عصيته فما تزدونني غير تخسير»

اعلم أن قوله (إن كنت على بينة من ربي) ورد بحرف الشك وكان على بقين تام في أمره إلا أن  
خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب الى القبول ، فكأنه قال: قدروا أني على بينة من ربي وأنبي  
على الحقيقة ، وانظروا أني أن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعني من عذاب الله فما تزدونني  
على هذا التقدير غير تخسير ، وفي تفسير هذه الكلمة وجهان : الأول : أن على هذا التقدير تخسرون  
أعمالى وتبطلونها . الثاني : أن يكون التقدير فما تزدونني بما تقولون لي وتحملوني عليه غير أن  
أخسركم أى أنسبكم الى الخسران ، وأقول لكم إنكم خاسرون ، والقول الاول أقرب لأن قوله (فمن  
ينصرني من الله إن عصيته) كالدلالة على أنه أراد إن أتبعكم فيما أنتم عليه من الكفر الذى دعوتونى  
اليه لم أزد إلا خسرانا فى الدين فأصير من الهالكين الخاسرين .

وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا  
بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ  
ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاث أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾  
اعلم أن العادة فيمن يدعى النبوة عند قوم يعبدون الأصنام أن يبتدىء بالدعوة إلى عبادة الله ثم يتبعه بدعوى النبوة لا بد وأن يظلموا منه المعجزة وأمر صالح عليه السلام هكذا كان ، يروى أن قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة فدعا صالح ربه فخرجت الناقة كما سألوا .

واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه ، الأول : أنه تعالى خلقها من الصخرة وثانيها : أنه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق عنها الجبل . وثالثها : أنه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر . ورابعها : أنه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة ، وخامسها : ما روى أنه كان لها شرب يوم . ولكل القوم شرب يوم آخر . وسادسها : أنه كان يحصل منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم ، وكل من هذه الوجوه معجزة قوى وليس في القرآن . إلا أن تلك الناقة كانت آية ومعجزة . فأما بيان أنها كانت معجزة من أي الوجوه فليس فيه بيان .

ثم قال ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ والمراد أنه عليه السلام رفع عن القوم مؤمنتها ، فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم ، لأنهم كانوا يتفجعون بلبنها على ما روى أنه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من إصرارهم على الكفر ، فإن الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه . بل يسعى في إخفاءها وإبطالها بأقصى الامكان ، فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها . فلهذا احتاط وقال ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ وتوعدهم إن مسوها بسوء بعذاب قريب . وذلك تحذير شديد لهم من الاقدام على قتلها ، ثم بين الله تعالى أنهم مع ذلك عقروها وذبحوها ، ويحتمل أنهم عقروها لابطال تلك الحجج . وأن يكون لأنها ضيقت الشرب على القوم . وأن يكون لأنهم رغبوا في شحمها وحمها . وقوله ﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾ يريد اليوم الثالث . وهو قوله ﴿تمتعوا في داركم﴾ ثم بين تعالى أن

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ  
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ «٦٦» وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا  
فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ «٦٧» كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّمَا تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ  
تَمُودَ «٦٨»

القوم عقروها . فمئذ ذلك قال لهم صالح عليه السلام (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) ومعنى التمتع :  
التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس ، ولما كان التمتع لا يحصل إلا بالحي . ومعنى به عن الحياة .  
وقوله (في داركم) فيه وجهان : الأول : أن المراد من الدار البلد ، وتسمى البلاد بالديار . لأنه  
يدار فيها أى يتصرف . يقال : ديار بكر أى بلادهم . الثانى : أن المراد بالديار الدنيا . وقوله (ذلك وعد  
مكذوب) أى غير كذب والمصدر قد يرد بلفظ المفعول كالجلود والمعقول وبأىكم المقتون ، وقيل  
غير مكذوب فيه ، قال ابن عباس رضى الله عنهما أنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد  
رغبهم في الإيمان ، وذلك لأنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب ، فقالوا  
وما علامة ذلك ؟ فقال : تصير وجوهكم في اليوم الأول مصفرة ، وفي الثانى حمرة ، وفي الثالث  
مسودة ، ثم يأتىكم العذاب في اليوم الرابع ، فلما رأوا وجوههم قد اسودت أيقنوا بالعذاب  
فاحتاطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع وهى الصيحة والصاعقة والعذاب .  
فان قيل : كيف يعقل أن تظهر فيهم هذه العلامات مطابقة القول صالح عليه السلام ، ثم يبقون  
مصرين على الكفر .

قلنا : مادامت الأمارات غير بالغة إلى حد الجرم واليقين لم يتمتع بقاؤهم على الكفر وإذا صارت  
يقينية قطعية ، فقد انتهى الأمر إلى حد الإلجام والإيمان في ذلك الوقت غير مقبول .

قوله تعالى ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ﴾ إن ربك  
هو القوى العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن  
تمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴿

اعلم أن مثل هذه الآية قد مضى في قصة عاد . وقوله (ومن خزي يومئذ) فيه مسائل :  
(المسألة الأولى) الواو في قوله (ومن خزي) واو العطف وفيه وجهان : الأول : أن يكون



التقدير : نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا من العذاب النازل بقومه ومن الخزي الذي لزمهم وبقى العار فيه مأثوراً عنهم ومنسوباً إليهم ، لأن معنى الخزي العيب الذي تظهر فضيخته ويستحيا من مثله مخذف ماحذف اعتماداً على دلالة ما بقي عليه . الثاني : أن يكون التقدير : نجينا صالحاً برحمة منا ونجيناهم من خزي يومئذ .

(المسألة الثانية) قرأ الكسائي ونافع في رواية ورش وقالون وإحدى الروايات عن الاعشى (يومئذ) بفتح الميم ، وفي المعارج (عذاب يومئذ) والباقون بكسر الميم فيهما فن قرأ بالفتح فعلى أن يوم مضاف إلى اذ وأن اذ مبنى ، والمضاف إلى المبنى يجوز جعله مبنياً ألا ترى أن المضاف يكتسب من المضاف إليه التعريف والتكرير فكذا ههنا ، وأما الكسر في اذ فالسبب أنه يضاف إلى الجملة من المبتدأ والخبر تقول : جئت اذ الشمس طالعة ، فلما قطع عنه المضاف إليه نون ليدل التنوين على ذلك ثم كسرت الذال لسكونها وسكون التنوين . وأما القراءة بالكسر فعلى إضافة الخزي إلى اليوم ولم يلزم من إضافته إلى المبنى أن يكون مبنياً لأن هذه الإضافة غير لازمة .

(المسألة الثالثة) الخزي الذل العظيم حتى يبلغ حد الفضيحة ولذلك قال تعالى في المحارفين (ذلك لهم خزي في الدنيا) وإنما سمي الله تعالى ذلك العذاب خزياً لأنه فضيحة باقية يعتبر بها أمثالهم ثم قال (إن ربك هو القوى العزيز) وإنما حسن ذلك ، لأنه تعالى بين أنه أوصل ذلك العذاب إلى الكافر وصان أهل الايمان عنه ، وهذا التمييز لا يصح إلا من القادر الذي يقدر على قهر طبائع الاشياء فيجعل الشيء الواحد بالنسبة إلى إنسان بلاء وعذاباً وبالنسبة إلى إنسان آخر راحة وريحاناً ثم إنه تعالى بين ذلك الأمر فقال (وأخذ الذين ظلموا) وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) إنما قال (أخذ) ولم يقل أخذت لأن الصيحة محمولة على الصياح ، وإيضاحاً بين الفعل والاسم المؤنث بفواصل ، فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث ، وقد سبق لها نظائر .

(المسألة الثانية) ذكروا في الصيحة وجهين . قال ابن عباس رضي الله عنهما : المراد الصاعقة الثاني : الصيحة صيحة عظيمة هائلة سمعوها فساتوا أجمع منها فأصبحوا وهم موتى جائئين في دورهم ومساكنهم ، وجثومهم سقطتهم على وجوههم ، يقال إنه تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يصيح بهم تلك الصيحة التي ماتوا بها ، ويجوز أن يكون الله تعالى خلقها . والصياح لا يكون إلا الصوت الحادث في حلق وفم وكذلك الصراخ ، فإن كان من فعل الله تعالى فقد خلقه في حلق حيوان وإن كان فعل جبريل عليه السلام فقد حصل في فمه وحلقه . والدليل عليه أن صوت الرعد أعظم من كل صيحة ولا يسمى بذلك ولا بأنه صراخ .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ  
جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ «٦٩» فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ  
خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ «٧٠» وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ  
فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ «٧١»

فان قيل : فما السبب في كون الصيحة موحية للموت ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أن الصيحة العظيمة إنما تحدث عندسبب قوى يوجب تموج الهواء  
وذلك التموج الشديد ربما يتعدى إلى صماخ الانسان فيمزق غشاء الدماغ فيورث الموت . والثاني :  
أنها شيء مهيب فتحدث الهيبة العظيمة عند حدوثها والاعراض النفسانية إذا قويت أوجبت الموت  
الثالث : أن الصيحة العظيمة إذا حدثت من السحاب فلا بد وأن يصحبها برق شديد محرق ، وذلك  
هو الصاعقة التي ذكرها ابن عباس رضى الله عنهما .

ثم قال تعالى ﴿فأصبحوا في ديارهم جائئين﴾ والحوم هو السكون يقال : للطيور إذا باتت  
في أوكارها أنها جئمت . ثم إن العرب أطلقوا هذا اللفظ على ما لا يتحرك من الموت فوصف الله  
تعالى هؤلاء المهلكين بأنهم سكنوا عندالهلاك ، حتى كأنهم ما كانوا أحياء وقوله (كأن لم يغنوا فيها)  
أى كأنهم لم يوجدوا ، والمغنى المقام الذى يقيم الحى به يقال : غنى الرجل بمكان كذا إذا قام به .  
ثم قال تعالى ﴿ألا إن ثمود كفروا بربهم ألا بعداً لنثمود﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم (ألا إن  
ثمود) غير ممنون في كل القرآن ، وقرأ الباقر (ثموداً) بالتثنية وثمود كلاهما بالصرف ، والصرف  
للذهاب إلى الحى ، أو إلى الأب الأكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة .

قوله تعالى ﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى﴾ قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل  
حنيد فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط  
وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴿﴾

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وههنا مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال النحويون : دخلت كلمة «قد» ههنا لأن السامع لقصص الأنبياء عليهم  
السلام يتوقع قصة بعد قصة ، وقد للتوقع ، ودخلت اللام ﴿لقد﴾ لتأكيد الخبر ولفظ (رسلنا) جمع

وأقله ثلاثة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة . وأما الزائد على هذا العدد فلا سبيل إلى اثباته إلا بدليل آخر ، وأجمعوا على أن الأصل فيهم كان جبريل عليه السلام ، ثم اختلفت الروايات فقيل : أنه جبريل عليه السلام ومعه اثنا عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن وقال الضحاك كانوا تسعة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام . وهم الذين ذكرهم الله في سورة والذاريات في قوله (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم) وفي الحجر (ونبئهم عن ضيف إبراهيم)

(المسألة الثانية) اختلفوا في المراد بالبشرى على وجهين : الأول : أن المراد ما بشره الله بعد ذلك بقوله (فبشرناهما) باسحق ومن وراءه إسحق يعقوب) الثاني : أن المراد منه أنه بشر إبراهيم عليه السلام بسلامة لوط وبأهلاك قومه .

وأما قوله (قالوا سلاما قال سلام) ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ حمزة والكسائي (قالوا سلم قال سلم) بكسر السين وسكون اللام بغير ألف ، وفي والذاريات مثله . قال الفراء : لا فرق بين القراءةين كما قالوا حل وحلال وحرم وحرام لأن في التفسير انهم لما جاؤا سلموا عليه . قال أبو علي الفارسي : ويحتمل أن يكون سلم خلاف العدو والحرب كأنهم لما امتنعوا من تناول ما قدمه اليهم نكروهم وأوجس منهم خيفة قال إنما سلم ولست بحرب ولا عدو فلا تمتنعوا من تناول طعامي كما يمتنع من تناول طعام العدو ، وهذا الوجه عندي بعيد . لأن على هذا التقدير ينبغي أن يكون تكلم إبراهيم عليه السلام بهذا اللفظ بعد إحضار الطعام . إلا أن القرآن يدل على أن هذا الكلام إنما وجد قبل إحضار الطعام لأنه تعالى قال (قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) والفاء للتعقيب ، فدل ذلك على أن مجيئه بذلك العجل الحنيذ كان بعد ذكر السلام .

(المسألة الثانية) قالوا سلاما تقديره : سلمنا عليك سلاماً قال سلام . تقديره : أمرى سلام . أي لست مريداً غير السلامة والصلح . قال الواحدي : ويحتمل أن يكون المراد : سلام عليكم . فجاء به مرفوعاً حكاية لقوله كما قال : وحذف عنه الخبر كما حذف من قوله (فصبر جميل) وإنما يحسن هذا الحذف إذا كان المقصود معلوماً بعد الحذف ، وههنا المقصود معلوم فلا جرم حسن الحذف . ونظيره قوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام) على حذف الخبر .

واعلم أنه إنما سلم بعضهم على بعض . رعاية للأذن المذكور في قوله تعالى (لا تدخلوا بيوتنا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)

﴿المسألة الثالثة﴾ أكثر ما يستعمل (سلام عليكم) بغير ألف ولا م. وذلك لأنه في معنى الدعاء، فهو مثل قولهم: خير بين يدك.

فان قيل: كيف جاز جعل النكرة مبتدأ؟

قلنا: النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ، فاذا قلت سلام عليكم: فالتنكير في هذا الموضع يدل على التمام والكمال، فكأنه قيل: سلام كامل تام عليكم، ونظيره قولنا: سلام عليك، وقوله تعالى (قال سلام عليك سأستغفر لك ربى) وقوله (سلام قولنا من رب رحيم - سلام على نوح في العالمين - والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) فأما قوله تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) فهذا أيضا جائز، والمراد منه المصاهرة والحقيقة. وأقول: قوله (سلام عليكم) أكل من قوله: السلام عليكم، لأن التنكير في قوله (سلام عليكم) يفيد الكمال والمبالغة والتمام. وأما لفظ السلام: فانه لا يفيد إلا المصاهرة. قال الأخفش: من العرب من يقول: سلام عليكم. فيعربى قوله: سلام. عن الألف واللام والتنوين، والسبب في ذلك كثرة الاستعمال أباح هذا التخفيف، والله أعلم.

ثم قال تعالى ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيد﴾ قالوا: مكث إبراهيم خمس عشرة ليلة لا يأتيه ضيف فاغتم لذلك، ثم جاءه الملائكة فرأى أضيا فإلم بر مثله، فعجل وجاء بعجل حنيد، فقوله (فما لبث أن جاء بعجل حنيد) معناه: فما لبث في المجيء به بل عجل فيه، أو التقدير: فما لبث مجيئه والعجل ولد البقرة. أما الحنيد: فهو الذى يشوى في حفرة من الأرض بالحجارة المحماة، وهو من فعل أهل البادية معروف، وهو مخوذ في الأصل كما قيل: طبخ ومطبوخ، وقيل: الحنيد الذى يقطر دمه. يقال: حذت الفرس اذا ألقيت عليه الجل حتى تقطر عرقا.

ثم قال تعالى ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾ أى الى العجل، وقال الفراء: الى الطعام، وهو ذلك العجل (نكرهم) أى أنكرهم. يقال: نكره وأنكره واستنكره.

واعلم أن الأضياف إنما امتنعوا من الطعام لأنهم ملائكة والملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أتوه في صورة الأضياف ليكونوا على صفة يحبها، وهو كان مشغوبا بالضيافة. وأما إبراهيم عليه السلام. فنقول: إما أن يقال: إنه عليه السلام ما كان يعلم أنهم ملائكة، بل كان يعتقد فيهم أنهم من البشر، أو يقال: إنه كان عالما بأنهم من الملائكة. أما على الاحتمال الأول فسبب خوفه أمران: أحدهما: أنه كان ينزل في طرف من الأرض بعيد عن الناس، فلما امتنعوا من الأكل خاف أن يريدوا به مكروها، وثانيها: أن من لا يعرف اذا حضر وقدم اليه طعام فان أكل حصل الأمن وإن لم يأكل حصل الخوف. وأما الاحتمال الثانى: وهو أنه عرف أنهم ملائكة الله تعالى.



فسبب خوفه على هذا التقدير أيضاً أمران : أحدهما : أنه خاف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه : والثاني : أنه خاف أن يكون نزولهم لتعذيب قومه .

فان قيل : فأى هذين الاحتمالين أقرب وأظهر ؟

قلنا : أما الذى يقول إنه ما عرف أنهم ملائكة الله تعالى فله أن يحتج بأمور : أحدها : أنه تسارع إلى إحضار الطعام ، ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك . وثانيها : أنه لما رأى تمتنعين من الأكل خافهم ، ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدلل بترك الأكل على حصول الشر ، وثالثها : أنه رأى في أول الأمر في صورة البشر ، وذلك لا يدل على كونهم من الملائكة . وأما الذى يقول : إنه عرف ذلك احتج بقوله (لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف بأى سبب أرسلوا ، ثم بين تعالى أن الملائكة أزالوا ذلك الخوف عنه فقالوا (لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) ومعناه : أرسلنا بالعذاب إلى قوم لوط ، لأنه أضمر إقيام الدليل عليه في سورة أخرى ، وهو قوله (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة)

ثم قال تعالى ﴿وامرأته قائمة﴾ يعنى سارة بنت آزر بن باحورا بنت عم إبراهيم عليه السلام ، وقوله (قائمة) قيل : كانت قائمة من وراء الستر تستمع إلى الرسل ، لأنها ربما خافت أيضاً . وقيل : كانت قائمة تخدم الأضياف وإبراهيم عليه السلام جالس معهم ، ويؤكد هذا التأويل قراءة ابن مسعود (وامرأته قائمة) وهو قاعد .

ثم قال تعالى ﴿فضحكك فبشرناها باحق﴾ واختلفوا في الضحك على قولين : منهم من حمله على نفس الضحك ، ومنهم من حمل هذا اللفظ على معنى آخر سوى الضحك . أما الذين حملوه على نفس الضحك فاختلفوا في أنها لم ضحكك . وذكروا وجوها : الأول : قال القاضى إن ذلك السبب لا بد وأن يكون سببا جرى ذكره في هذه الآية ، وما ذلك إلا أنها فرحت بزوال ذلك الخوف عن إبراهيم عليه السلام حيث قالت الملائكة (لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وعظمه سرورها بسبب سروره بزوال خوفه ، وفي مثل هذه الحالة قد يضحك الإنسان ، وبالجملة فقد كان ضحكها بسبب قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام (لاتخف) فكان كالبشارة . فقيل لها : نجهل هذه البشارة بشارتين . فبما حصلت البشارة بزوال الخوف ، فقد حصلت البشارة أيضاً بحصول الولد الذى كنتم تطلبونه من أول العمر إلى هذا الوقت وهذا تأويل في غاية الحسن . الثاني : يحتمل أنها كانت عظيمة الانكار على قوم لوط لما كانوا عليه من الكفر والعمل الخبيث . فلما أظهروا أنهم جاؤا لاهلاكهم لحقها السرور فضحكك . الثالث : قال السدى قال إبراهيم عليه السلام لهم (ألا تأكلون) قالوا

لأننا كل طعاماً إلا بالثمن ، فقال : ثمne أنذكروا اسم الله تعالى على أوله وتحمده على آخره . فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام «حق لمثل هذا الرجل أن يتخذه ربه خليلاً» فضحكت امرأته فرحاً من هذا الكلام . الرابع : أن سارة قالت لابراهيم عليه السلام أرسل الى ابن أخيك وضمه الى نفسك . فان الله تعالى لا يترك قومه حتى يعذبهم . فعند تمام هذا الكلام دخل الملائكة على ابراهيم عليه السلام ، فلما أخبروه بأنهم إنما جاؤا لاهلاك قوم لوط صار قولهم موافقاً لقولها . فضحكت لشدة سرورها بحصول الموافقة بين كلامها وبين كلام الملائكة . الخامس : أن الملائكة لما أخبروا ابراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة لامن البشر وأنهم إنما جاؤا لاهلاك قوم لوط طلب ابراهيم عليه السلام منهم معجزة دالة على أنهم من الملائكة فدعوا ربهم باحياء العجل المشوى فطفر ذلك العجل المشوى من الموضع الذى كان موضوعاً فيه إلى مرعاه ، وكانت امرأة ابراهيم عليه السلام قائمة فضحكت لما رأت ذلك العجل المشوى قد طفر من موضعه . السادس : أنها ضحكت تعجباً من أن قوماً أتاهم العذاب وهم فى غفلة . السابع : لا يبعد أن يقال إنهم بشروها بحصول مطلق الولد فضحكت ، إما على سبيل التعجب فانه يقال إنها كانت فى ذلك الوقت بنت بضع وتسعين سنة و ابراهيم عليه السلام ابن مائة سنة ، وإما على سبيل السرور . ثم لما ضحكت بشرها الله تعالى بأن ذلك الولد هو إسحق ومن وراء إسحق يعقوب . الثامن : أنها ضحكت بسبب أنها تعجبت من خوف ابراهيم عليه السلام من ثلاث أنفس حال ما كان معه حشمه وخدمه . التاسع : أن هذا على التقديم والتأخير والتقدير : وامرأته قائمة فبشرناها بإسحق . فضحكت سروراً بسبب تلك البشارة فقدم الضحك ، ومعناه التأخير . الثانى : هو أن يكون معنى فضحكت حاضت وهو منقول عن مجاهد وعكرمة قالوا ضحكت أى حاضت عند فرحها بالسلامة من الخوف ، فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد ، وأنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت ، قال أبو بكر الأنبارى هذه اللغة إن لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم . حكى الليث فى هذه الآية (فضحكت) طمشت ، وحكى الأزهري عن بعضهم أن أصله من ضحك الطلعة يقال ضحكت الطلعة إذا انشقت .

واعلم أن هذه الوجوه كلها زوائد . وإنما الوجه الصحيح هو الأول .

ثم قال تعالى ﴿ومن وراء إسحق يعقوب﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسئلة الأولى﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بالنصب . والباقون بالرفع

أما وجه النصب . فهو أن يكون التقدير : بشرناها بإسحق ومن وراء إسحق وهبنا لها يعقوب ، وأما وجه الرفع فهو أن يكون التقدير : ومن وراء إسحق يعقوب . مولود أو موجود .

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۚ  
 قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ  
 مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾

(المسألة الثانية) في لفظ وراء قولان : الأول : وهو قول الأكثرين أن معناه بعد أي بعد إسحق يعقوب وهذا هو الوجه الظاهر . والثاني : أن وراء ولد الولد . عن الشعبي أنه قيل له هذا ابنك . فقال نعم من وراء ، وكان ولد ولده . وهذا الوجه عند شديدي التعسف ، واللفظ كأنه ينبو عنه .

قوله تعالى (قالت ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) في الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قال الفراء أصل الويل وي وهو الخزي . ويقال : وي لفلان أي خزي له فقولوه ويلك أي خزي لك ، وقال سيديويه : ويح زجر لمن أشرف على الهلاك ، وويل لمن وقع فيه . قال الخليل : ولم أسمع على بناءه إلا ويح ، وويس ، وويك . وويه ، وهذه الكلمات متقاربة في المعنى وأما قوله (ياويلتا) فمنهم من قال هذه الألف الندبة وقال صاحب الكشف : الألف في ويلتا مبدلة من ياء الإضافة في (ياويلتي) وكذلك في يالهافا وياعجبا ثم أبدل من الياء والكسرة . الألف والفتحة ، لأن الفتحة والألف أخف من الياء والكسرة

أما قوله (أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً) ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو آلد بهزة ومدة . والباقون بهمزتين بلامد (المسألة الثانية) لقائل أن يقول إنما تعجبت من قدرة الله تعالى والتعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر ، بيان المقدمة الأولى من ثلاثة أوجه : أولها : قوله تعالى حكاية عنها في معرض التعجب (أألد وأنا عجوز) وثانيها : قوله (إن هذا لشيء عجيب) وثالثها : قول الملائكة لها (أتعجبين من أمر الله) وأما بيان أن التعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر ، فلأن هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة الله تعالى ، وذلك يوجب الكفر .

والجواب : أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة فان الرجل المسلم لو أخبره

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ  
لُوطٍ «٧٤» إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ «٧٥»

خبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهباً إبريزاً فلا شك أنه يتعجب نظراً إلى أحوال العادة لا لأجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك .

(المسألة الثالثة) قوله (وهذا بعلي شيخاً) فاعلم أن شيخاً منصوب على الحال ، قال الواحدى رحمه الله : وهذا من لطائف النحو وغامضه فإن كلمة هذا للاشارة ، فكان قوله (وهذا بعلي شيخاً) قائم مقام أن يقال أشير إلى بعلي حال كونه شيخاً ، والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة .

(المسألة الرابعة) قرأ بعضهم (وهذا بعلي شيخ) على أنه خبر مبتدا محذوف ، أى هذا بعلي وهو شيخ ، أو بعلي بدل من المبتدا وشيخ خبر أو يكونان معاً خبرين ، ثم حكى تعالى أن الملائكة قالوا (أتعجبين من أمر الله) والمعنى : أنهم تعجبوا من تعجبها ، ثم قالوا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) والمقصود من هذا الكلام ذكر مايزيل ذلك التعجب وتقديره : إن رحمة الله عليكم متكررة وبركاته لديكم متوالية متعاقبة ، وهى النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة فاذا رأيت أن الله خرق العادات فى تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة وفى إظهار خوارق العادات وإحداث البينات والمعجزات ، فكيف يليق به التعجب .

وأما قوله ﴿أهل البيت﴾ فإنه مدح لهم فهو نصب على النداء أو على الاختصاص ، ثم أكدوا ذلك بقولهم (إنه حميد مجيد) والحمد هو الحمود وهو الذى تحمد أفعاله ، والمجيد الماسجد ، وهو ذو الشرف والكرم . ومن محامد الأفعال إيصال العبد المطيع الى مراده ومطلوبه ، ومن أنواع الفضل والكرم أن لا يمنع الطالب عن مطلوبه ، فاذا كان من المعلوم أنه تعالى قادر على الكل وأنه حميد مجيد ، فكيف يبق هذا التعجب فى نفس الأمر فثبت أن المقصود من ذكر هذه الكلمات إزالة التعجب .

قوله تعالى ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشري يجادلنا فى قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾

اعلم أن هذا هو القصة الخامسة وهى قصة لوط عليه السلام ، واعلم أن الروح هو الخوف



وهو مأو جس من الخيفة حين أنكر أضيافه والمعنى : أنه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجيء البشرى بحصول الولد . أخذ يجادلنا في قوم لوط وجواب لما هو قوله (أخذ) إلا أنه حذف في اللفظ لدلالة الكلام عليه ، وقيل تقديره : لما ذهب عن إبراهيم الورع جادلنا . واعلم أن قوله (يجادلنا) أى يجادل رسلنا .

فان قيل : هذه المجادلة إن كانت مع الله تعالى فهي جراءة على الله ، والجراءة على الله تعالى من أعظم الذنوب ، ولأن المقصود من هذه المجادلة إزالة ذلك الحكم وذلك يدل على أنه ما كان راضيا بقضاء الله تعالى وأنه كفر . وإن كانت هذه المجادلة مع الملائكة فهي أيضا مجيبة . لأن المقصود من هذه المجادلة أن يتركوا إهلاك قوم لوط ، فان كان قد اعتقد فيهم أنهم من تلقاء أنفسهم يجادلون في هذا الإهلاك فهذا سوء ظن بهم . وإن اعتقد فيهم أنهم بأمر الله جاؤا فهذه المجادلة تقتضى أنه كان يطلب منهم مخالفة أمر الله تعالى وهذا منكر .

والجواب : من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ وهو الجواب الاجمالى أنه تعالى مدحه عقوب هذه الآية فقال (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) ولو كان هذا الجدل من الذنوب لما ذكر عقبيه مايدل على المدح العظيم .  
﴿والوجه الثانى﴾ وهو الجواب التفصيلى أن المراد من هذه المجادلة سعى إبراهيم في تأخير العذاب عنهم وتقديره من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن الملائكة قالوا (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) فقال إبراهيم : أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا : لا . قال : فأربعون قالوا : لا . قال : فثلاثون قالوا : لا . حتى بلغ العشرة قالوا : لا . قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟ قالوا : لا . فعند ذلك قال : إن فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة العنكبوت فقال (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين .

ثم قال ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطا ساء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك﴾ فإن بهذا أن مجادلة إبراهيم عليه السلام ، إنما كانت في قوم لوط بسبب مقام لوط فيما بينهم .

﴿الوجه الثانى﴾ يحتمل أن يقال إنه عليه السلام كان يميل إلى أن تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء أنهم ربما أقدموا على الإيمان والتوبة عن المعاصى . وربما وقعت تلك المجادلات

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ  
غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِىً بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ  
هَذَا يَوْمُ عَصِيبٍ ﴿٧٧﴾

بسبب أن إبراهيم كان يقول إن أمر الله ورد بايصال العذاب . ومطلق الأمر لا يوجب الفور بل يقبل التأخير فاصبروا مدة أخرى ، والملائكة كانوا يقولون إن مطلق الأمر يقبل الفور ، وقد حصلت هناك قرائن دالة على الفور . ثم أخذ كل واحد منهم بقرر مذهبه بالوجوه المعلومة فخلصت المجادلة بهذا السبب ، وهذا الوجه عندى هو المعتمد .

﴿الوجه الثالث﴾ فى الجواب لعل إبراهيم عليه السلام سأل عن لفظ ذلك الأمر وكان ذلك الأمر مشروطاً بشرط فاحتلفوا فى أن ذلك الشرط هل حصل فى ذلك القوم أم لا فخلصت المجادلة بسببه ، وبالجملة نرى العلماء فى زماننا يحادل بعضهم بعضاً عند التمسك بالنصوص . وذلك لا يوجب القدح فى واحد منها فكذا ههنا .

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوْاهٍ مِّنِي﴾ وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم . أما الحليم فهو الذى لا يتعجل بمكافأة غيره ، بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله فإنه يحب من غيره هذه الطريقة ، وهذا كالدلالة على أن جداله كان فى أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب . ثم ضم إلى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله (أواه منيب) لأن من يستعمل الحلم فى غيره فإنه يتأوه إذا شاهد وصول الشدائد إلى الغير فلما رأى محيى الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة . ووصفه أيضاً بأنه منيب ، لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله فى إزالة ذلك العذاب عنهم أو يقال : إن من كان لا يرضى بوقوع غيره فى الشدائد . فأن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع فى عذاب الله إلا بالتوبة والآنابة فوجب فيمن هذا شأنه يكون منيباً .

قوله تعالى «يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنيهم آتيتهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطاً سئياً بهم وضاق بهم ذرعاً وقال دن يوم عصيب» اعلم أن قوله (يا إبراهيم أعرض عن هذا) معناه : أن الملائكة قالوا له : اترك هذه المجادلة لأنه

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ  
هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا فِي صَیْقِ أَيْسٍ مِنْكُمْ رَجُلًا

قد جاء أمر ربك بايصال هذا العذاب إليهم وإذا لاح وجهه دلالة النص على هذا الحكيم فلا سبيل إلى دفعه فلذلك أمره بترك المجادلة، ولما ذكروا (إنه قد جاء أمر ربك) ولم يكن في هذا اللفظ دلالة على أن هذا الأمر بماذا جاء لا جرم بين الله تعالى إليهم آتيهم عذاب غير مردود، أي عذاب لا سبيل إلى دفعه ورده.

ثم قال (ولما جاءت رسلنا لوطاً) أي بهم وضاق بهم ذرعاً وهو لاء الرسل هم الرسل الذين بشروا إبراهيم بالولد عليهم السلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله وذكروا فيه ستة أوجه: الأول: أنه ظن أنهم من الأنس تخاف عليهم خبت قومه وأن يعجزوا عن مقاومتهم. الثاني: ساء مجيئهم لأنه ما كان يجد ما ينفقه عليه وما كان قادراً على القيام بحق ضيافتهم. والثالث: ساء ذلك لأن قومه منعوه من ادخال ضيف داره: الرابع: ساء مجيئهم، لأنه عرف بالخطر أنهم ملائكة وأنهم إنما جاؤا لاهلاك قومه، والوجه الأول هو الأصح للدلالة قوله تعالى (وجاء قومه يهرعون إليه) وبقى في الآية ألفاظ ثلاثة لا بد من تفسيرها:

(اللفظ الأول) قوله (يهرعون إليه) ومعناه ساء مجيئهم وساء يسوء فعل لازم مجاوز يقال سؤته فسيء مثل شغلته فشغل وسررته فسر. قال الزجاج: أصله سوى بهم الآن الواو سكنت ونقلت كسرتها إلى السين.

(واللفظ الثاني) قوله (وضاق بهم ذرعاً) قال الأزهري: الذرع يوضع موضع الطافة والأصل فيه البعير يذرع يديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوته. فإذا حبل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومد عنقه، فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقه. فيقال: مالى به ذرع ولا ذراع أى مالى به طاقة، والدليل على صحة ما قلناه أنهم يجعلون الذراع في موضع الذرع فيقولون ضقت بالأمرداعاً.

(واللفظ الثالث) قوله (هذا يوم عصيب) أى يوم شديد، وإنما قيل للشديد عصيب لأنه يعصب الإنسان بالشر.

قوله تعالى «وجاء قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات» قال يا قوم

رَشِيدُ «٧٨» قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ  
مَا نُزِيدُ «٧٩» قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ «٨٠»

هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل شديد قالوا لقد علمت  
ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد قال لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه لما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام مضت امرأته عجوز السوء  
فقال لقومه دخل دارنا قوم ما رأيت أحسن وجوهاً ولا أنظف ثياباً ولا أطيب رائحة منهم (فجاءه  
قومه يهرعون إليه) أى يسرعون ، وبين تعالى أن اسراعهم ربما كان لطلب العمل الخبيث بقوله  
(ومن قبل كانوا يعملون السيئات) نقل أن القوم دخلوا دار لوط وأرادوا أن يدخلوا البيت الذى  
كان فيه جبريل عليه السلام . فوضع جبريل عليه السلام يده على الباب ، فلم يطيقوا فتحه سري  
كسروه ، فسح أعينهم بيده فعموا ، فقالوا : بالوط قد أدخلت علينا السحرة وأظهرت الفتنة ، ولأهل  
اللغة في (يهرعون) قولان :

﴿القول الأول﴾ أن هذا من باب ما جاءت صيغة الفاعل فيه على لفظ المفعول ولا يعرف له  
فاعل نحو : أوقع فلان في الأمر ، وأرعد زيد ، وزهى عمرو من الزهو .

﴿والقول الثانى﴾ أنه لا يجوز ورود الفاعل على لفظ المفعول ، وهذه الأفعال حذف فاعلوها  
فتأويل أوقع زيد أنه أوقعه طبعه وأرعد الرجل أرعده غضبه وزهى عمرو معناه جعله ماله زاهياً وأهرع  
معناه أهرعه خوفاً أو حرصه . واختلفوا أيضاً فقال بعضهم : الإهراع هو الإسراع مع الرعدة .  
وقال آخرون : هو العدو الشديد .

أما قوله تعالى «قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم» ففيه قولان : قال قتادة . المراد بناته  
لصلبه . وقال مجاهد وسعيد بن جبیر : المراد نساء أمتة : لأنهن في أنفسهن بنات ولهن إضافة إليه  
بالم تابعة وقبول الدعوة . قال أهل النحو : يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب . لأنه كان نبياً لهم فكان  
كالأب لهم . قال تعالى (وأزواجه أمهاتهم) وهو أب لهم وهذا القول عندى هو المختار . ويدل عليه  
وجوه : الأول : أن إقدام الانسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر متبعد لا يليق بأهل  
المروءة ، فكيف بأكابر الأنبياء ؟ الثانى : وهو أنه قال (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) فبناته اللواتى من



صلبه لا تكفي للجمع العظيم . أما نساء أمته ففهن كفاية لكل . الثالث : أنه صححت الرواية أنه كان له بنتان ، وهما : زنتا ، وزعورا . وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة . فأما القائلون بالقول الأول فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما دعا القوم إلى الزنا بالنسوان بل المراد أنه دعاهم إلى التزوج بهن ، وفيه قولان : أحدهما : أنه دعاهم إلى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان . والثاني : أنه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته ، وهكذا كان في أول الإسلام بدليل أنه عليه السلام زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكان مشركاً وزوج ابنته من عتبة بن أبي لهب . ثم نسخ ذلك بقوله (ولا تتكحوا المشركات حتى يؤمن) وبقوله (ولا تتكحوا المشركين حتى يؤمنوا) واختلفوا أيضاً ، فقال الآكثرون : كان له بنتان ، وعلى هذا التقدير ذكر الاثنيتين بلفظ الجمع ، كما في قوله فإن كان له أخوة (فقد صغت قلوبكما) وقيل : إنهن كن أكثر من اثنتين .

أما قوله تعالى «هن أطهر لكم» ففيه مسائلتان :

«المسألة الأولى» ظاهر قوله (هن أطهر لكم) يقتضي كون العمل الذي يطلبونه طاهراً ومعلوم أنه فاسد ولأنه لاطهارة في نكاح الرجل ، بل هذا جار مجرى قولنا : الله أكبر ، والمراد أنه كبير ولقوله تعالى (أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم) ولاخير فيها ولمساقال أبو سفيان : اعل أحدوا وعل هبل قال النبي «الله أعلى وأجل» ولا مقاربة بين الله وبين الصنم

«المسألة الثانية» روى عن عبد الملك بن مروان والحسن وعيسى بن عمر أنهم قرؤا (هن أطهر لكم) بالنصب على الحال كما ذكرنا في قوله تعالى (وهذا بعلي شيخاً) إلا أن أكثر النحويين اتفقوا على أنه خطأ قالوا لوقريء (هؤلاء بناتي هن أطهر) كان هذا نظير قوله (وهذا بعلي شيخاً) إلا أن كلمة «هن» قد وقعت في البين وذلك يمنع من جعل أطهر حالا وطولوا فيه . ثم قال (فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي) وفيه مسائل :

«المسألة الأولى» قرأ أبو عمرو ونافع ولا تخزوني باثبات الياء على الأصل . والباقون بجدها للتخفيف ودلالة الكسر عليه .

«المسألة الثانية» في لفظ (لا تخزوني) وجهان : الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تقضحوني في أضيافي . يريد أنهم إذا هجموا على أضيافه بالمكروه لحقته الفضيحة . والثاني : لا تخزوني في ضيفي أي لا تخجلوني فهم ، لأن مضيف الضيف يلزمه الخجلة من كل فعل قبيح يوصل إلى الضيف يقال : خزي الرجل إذا استحيا .

﴿المسألة الثالثة﴾ الضيف ههنا قائم مقام الأضياف ، كما قام الطفل مقام الأطفال . في قوله تعالى (أو الطفل الذين لم يظهروا) ويجوز أن يكون الضيف مصدرأ فيستغنى عن جمعه كما يقال : رجال صوم . ثم قال (أليس منكم رجل رشيد) وفيه قولان : الأول : (رشيد) بمعنى مرشد أى يقول الحق ويرد هؤلاء الأوباش عن أضيافى . والثانى : رشيد بمعنى مرشد . والمعنى : أليس فيكم رجل أرشده الله تعالى إلى الصلاح . وأسعده بالسداد والرشاد حتى يمنع عن هذا العمل القبيح ، والأول أولى .

ثم قال تعالى ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ وفيه وجوه : الأول : ما لنا في بناتك من حاجة ولا شهوة . والتقدير أن من احتاح الى شئ فكأنه حصل له فيه نوع حق ، فلهذا السبب جعل نفى الحق كناية عن نفى الحاجة . الثانى : أن نجرى اللفظ على ظاهره فنقول : معناه إنهن لسن لنا بأزواج ولا حق لنا فيهن البتة . ولا يميل أيضاً طبعنا اليهن فكيف قيامهن مقام العمل الذى نريده وهو إشارة الى العمل الخبيث . الثالث (ما لنا في بناتك من حق) لأنك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ونحن لا ننجيك إلى ذلك فلا يكون لنا فيهن حق . ثم انه تعالى حكى عن لوط أنه عند سماع هذا الكلام قال (لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ جواب «لو» محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير : لمنعتكم ولبالغت في دفعكم ونظيره قوله تعالى (ولو أن قرأنا سيرت به الجبال) وقوله (ولو ترى اذ وقوفوا على النار) قال الواحدي وحذف الجواب ههنا لأن الوهم يذهب إلى أنواع كثيرة من المنع والدفع .

﴿المسألة الثانية﴾ (لو أن لى بكم قوة) أى لو أن لى ما أتقوى به عليكم وتسمية موجب القوة بالقوة جائز قال الله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) والمراد السلاح ، وقال آخرون القدرة على دفعهم . وقوله (أو آوى الى ركن شديد) المراد منه الموضع الحصين المنيع تشبيها له بالركن الشديد من الجبل ،

فان قيل : ما الوجه ههنا في عطف الفعل على الاسم ؟

قلنا : قال صاحب الكشف : قرئ (أو آوى) بالنصب باضمار أن ، كأنه قيل لو أن لى بكم قوة أو آوياً .

واعلم أن قوله (لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) لا بد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة ، وفيه وجوه : الأول : المراد بقوله (لو أن لى بكم قوة) كونه بنفسه قادراً على الدفع وكونه متمكناً إما بنفسه وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم ، والمراد بقوله

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ  
وَلَا يَلْتَفَتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَ أَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعِدُكَ الصُّبْحُ  
أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ «٨١»

(أو آوى إلى ركن شديد) هو أن لا يكون له قدرة على الدفع ولكنه يقدر على التحصن بحصن يأمن من شرهم بواسطة. الثالث: أنه لما شاهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب تمت حصول قوة قوية على الدفع، ثم استدرك على نفسه وقال: بل الأولى أن آوى إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى. وعلى هذا التقدير فقوله (أو آوى إلى ركن شديد) كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به. وبهذا الطريق لا يلزم عطف 'فعل على الاسم، ولذلك قال النبي عليه السلام «رحم الله أخى لوطا كان يأوى إلى ركن شديد»

قوله تعالى «قالوا يالوط إننا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمر أنك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب»  
اعلم أن قوله تعالى مخبراً عن لوط عليه السلام أنه قال (لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) يدل على أنه كان في غاية القلق والحزن بسبب إقدام أولئك الأوباش على ماوجب الفضيحة في حق أضيافه. فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشروه بأنواع من البشارات: أحدها: أنهم رسل الله. وثانيها: أن الكفار لا يصلون إلى ما هموا به. وثالثها: أنه تعالى يهلكهم. ورابعها: أنه تعالى ينجيهم مع أهله من ذلك العذاب. وخامسها: إن ركنك شديد وأن ناصرك هو الله تعالى فحصل له هذه البشارات. وروى أن جبريل عليه السلام قال له إن قومك لن يصلوا إليك فافتح الباب فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم. وذلك قوله تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم) ومعنى قوله (لن يصلوا إليك) أى بسوء ومكرود فأنحول بينهم وبين ذلك. ثم قال (فأسر بأهلك) قرأ نافع وابن كثير (فأسر) موصولة والباقيون بقطع الألف وهما لغتان. يقال سريت بالليل وأسريت وأنشد حسان:

أسرت إليك ولم تكن تسرى

فجاء بالفتن من قرأ بقطع الألف فجثته قوله سبحانه وتعالى (سبحان الذي أسرى بعبده) ومن وصل فجثته قوله (والليل إذا يسر) والسرى السير في الليل. يقال: سرى يسرى إذا سار بالليل وأسرى بفلان إذا سير به بالليل. و«قطع» من الليل بعضه وهو مثل القطعة، يريد أخرجوا ليلاً لتسبقوا نزول العذاب الذي موعده الصبح. قال نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أخبرني عن قول الله (يقطع من الليل) قال هو آخر الليل سحر. وقال قتادة: بعد طائفة من الليل، وقال آخرون هو نصف الليل فإنه في ذلك الوقت قطع بنصفين.

ثم قال «ولا يلتفت منكم أحد» نهى من معه عن الالتفات والالتفات نظر الإنسان إلى ما وراءه، والظاهر أن المراد أنه كان لهم في البلدة أموال وأقشة وأصدقا، فلما نكثه أمرهم بأن يخرجوا ويتركوا تلك الأشياء ولا يلتفتوا إليها البتة. وكان المراد منه قطع تعلق القلب عن تلك الأشياء وقد يراد منه الانصراف أيضاً. كقوله تعالى (قالوا أجتنا تلفتاً) أى لتصرفنا، وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله (ولا يلتفت منكم أحد) النهي عن التخلف.

ثم قال «إلا امرأتك» قرأ ابن كثير وأبو عمرو (إلا امرأتك) بالرفع والباقون بالنصب. قال الواحدي: من نصب وهو الاختيار فقد جعلها مستثناة من الأهل على معنى فأسر بأهلك إلا امرأتك والذي يشهد بصحة هذه القراءة أن في قراءة عبد الله (فأسر بأهلك إلا امرأتك) فأسقط قوله (ولا يلتفت منكم أحد) من هذا الموضع. وأما الذين رفعوا فالتقدير (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك)

فإن قيل: فهذه القراءة توجب أنها أمرت بالالتفات لأن القائل إذا قال لا يقيم منكم أحد إلا زيد كان ذلك أمراً لزيد بالقيام.

وأجاب أبو بكر الأنباري عنه فقال: معنى (إلا) ههنا الاستثناء المنقطع على معنى. لا يلتفت منكم أحد. لكن امرأتك تلفت فيصيبها ما أصابهم، وإذا كان هذا الاستثناء منقطعاً كان التفاتها معصية ويتأكد ما ذكرنا بما روى عن قتادة أنه قال إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية فلما سمعت هذا العذاب الفتت وقالت يا قوماه فأصابها حجر فأهلكها.

واعلم أن القراءة بالرفع أقوى، لأن القراءة بالنصب تمنع من خروجها مع أهلها لكن على هذا التقدير الاستثناء يكون من الأهل كأنه أمر لوطاً بأن يخرج بأهله ويترك هذه المرأة فانها هالكة مع الهالكين، وأما القراءة بالنصب فانها أقوى من وجه آخر، وذلك لأن مع القراءة بالنصب يبق الاستثناء متصلاً



فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ

منصود «٨٢» مَسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ ببعيد «٨٣»

ومع القراءة بالرفع يصير الاستثناء منقطعاً . ثم بين الله تعالى أنهم قالوا : إنه مصيها ما أصابهم والمراد أنه مصيها ذلك العذاب الذي أصابهم . ثم قالوا (إن موعدهم الصبح) روى أنهم لما قالوا للوط عليه السلام (إن موعدهم الصبح) قال أريد أعجل من ذلك بل الساعة فقالوا (أليس الصبح بقريب) قال المفسرون إن لوطاً عليه السلام لما سمع هذا الكلام خرج بأهله في الليل .

قوله تعالى ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في الأمر وجهان : الأول : أن المراد من هذا الأمر ما هو ضد النهي ويدل عليه وجوه : الأول أن لفظ الأمر حقيقة في هذا المعنى مجاز في غيره دفعاً للاشتراك . الثاني : أن الأمر لا يمكن حمله فهنا على العذاب ، وذلك لأنه تعالى قال (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) وهذا الجعل هو العذاب ، فدلّت هذه الآية على أن هذا الأمر شرط والعذاب جزاء ، والشرط غير الجزاء ، فهذا الأمر غير العذاب ، وكل من قال بذلك قال إنه هو الأمر الذي هو ضد النهي . والثالث : أنه تعالى قال : قبل هذه الآية (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) فدل هذا على أنهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب إلى قوم لوط وبايصال هذا العذاب إليهم .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى أمر جمعاً من الملائكة بأن يخرجوا تلك المدائن في وقت معين . فلما جاء ذلك الوقت أقدموا على ذلك العمل ، فكان قوله (فلما جاء أمرنا) إشارة إلى ذلك التكليف .

فإن قيل : لو كان الأمر كذلك ، لوجب أن يقال : فلما جاء أمرنا جعلوا عاليها سافلها ، لأن الفعل صدر عن ذلك المأمور .

قلنا : هذا لا يلزم على مذهبننا ، لأن فعل العبد فعل الله تعالى عدنا . وأيضاً أن الذي وقع منهم إنما وقع بأمر الله تعالى وبقدرته ، فلم يبعد إضافته إلى الله عز وجل ، لأن الفعل كما تحسن إضافته إلى المباشر ، فقد تحسن أيضاً إضافته إلى السبب .

﴿القول الثاني﴾ أن يكون المراد من الأمر ههنا قوله تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وقد تقدم تفسير ذلك الأمر .

﴿القول الثالث﴾ أن يكون المراد من الأمر العذاب . وعلى هذا التقدير فيحتاج الى الاضمار ، والمعنى : ولما جاء وقت عذابنا جعلنا عاليها سافلها ،

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن ذلك العذاب قد وصفه الله تعالى في هذه الآية بنوعين من الوصف فالأول : قوله (جعلنا عاليها سافلها) روى أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت مداين قوم لوط وقلعها وصعد بها الى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الخبير ونباح الكلاب وصياح الديوك ، ولم تنكفي لهم جرة . ولم ينكب لهم إناء . ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض . واعلم أن هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين : أحدهما : أن قلع الأرض وإصعادها إلى قريب من السماء فعل خارق للعادات . والثاني : أن ضربها من ذلك البعد البعيد على الأرض بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها البتة ، ولم تصل الآفة إلى لوط عليه السلام وأهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضا . الثاني : قوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) واختلفوا في السجيل على وجوه : الأول : أنه فارسي معرب وأصله سنسكل وأنه شيء مركب من الحجر والطين بشرط أن يكون في غاية الصلابة ، قال الأزهري : لماعربته العرب صار عربياً وقد عربت حروفاً كثيرة كالديباج والديوان والاستبرق . والثاني : سجيل ، أى مثل السجيل وهو الدلو العظيم . والثالث : سجيل ، أى شديد من الحجارة . الرابع : مرسله عليهم من أسجلته إذا أرسلته وهو فعيل منه . الخامس : من أسجلته ، أى أعطيته تقديره مثل العطية في الادرار ، وقيل : كان كتب عليها أسماء المعذنين . السادس : وهو من السجل وهو الكتاب تقديره من مكتوب في الأزل أى كتب الله أن يعذبهم بها ، والسجيل أخذ من السجل وهو الدلو العظيمة لأنه يتضمن أحكاماً كثيرة ، وقيل : مأخوذ من المساجلة وهي المفاخرة . والسابع : من سجيل أى من جهنم أبدلت النون لاما . والثامن : من السماء الدنيا ، وتسمى سجيلا عن أبي زيد ، والتاسع : السجيل الطين ، لقوله تعالى (حجارة من طين) وهو قول عكرمة وقتادة . قال الحسن : كان أصل الحجر هو من الطين ، إلا أنه صلب بمرور الزمان . والعاشر : سجيل موضع الحجارة ، وهي جبال مخصوصة . ومثله قوله تعالى (من جبال فيها من برد)

واعلم أنه تعالى وصف تلك الحجارة بصفات :

﴿الصفة الأولى﴾ كونها من سجيل ، وقد سبق ذكره .

وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ  
وَلَا تَقْسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ  
يَوْمٍ مُحِيطٍ ٨٤ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا

«الصفة الثانية» قوله تعالى (منضود) قال الواحدي : هو مفعول من انضد ، وهو موضع  
الشيء ، بعضه على بعض ، وفيه وجوه : الأول : أن تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض في النزول  
فأتى به على سبيل المبالغة . والثاني : أن كل حجر فإن مافيه من الأجزاء منضود بعضها ببعض ،  
وملتصق بعضها ببعض . والثالث : أنه تعالى كان قد خلقها في معادنها ونضد بعضها فوق بعض ،  
وأعدها لاهلاك الظلمة .

واعلم أن قوله (منضود) صفة للسجيل .

«الصفة الثالثة» مسومة ، وهذه الصفة صفة الأحجار ومعناها المعلمة . وقد مضى الكلام فيه  
في تفسير قوله (والخيل المسومة) واختلفوا في كيفية تلك العلامة على وجوه : الأول : قال الحسن  
والسدي : كان عليها أمثال الخواتيم . الثاني : قال ابن صالح : رأيت منها عند أم هانئ حجارة فيها  
خطوط حمراء على هيئة الجوزع . الثالث : قال ابن جرير : كان عليها سيما لا تشارك حجارة الأرض ،  
وتدل على أنه تعالى إنما خلقها للعذاب . الرابع : قال الربيع : مكتوب على كل حجر اسم  
من رمى به .

ثم قال تعالى ﴿عند ربك﴾ أي في خزائنه التي لا يتصرف فيها أحد إلا هو .

ثم قال ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ يعني به كفار مكة ، والمقصود أنه تعالى يرميهم بها .  
عن أنس أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن هذا فقال . يعني  
عن ظلمي أمتك ، مامن ظالم منهم إلا وهو بمعرض جبر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة . وقيل :  
الضمير في قوله (وما هي) للقرى . أي وما تلك القرى التي وقعت فيها هذه الواقعة من كفار مكة  
يبعد . وذلك لأن القرى كانت في الشام . وهي قريب من مكة .

قوله تعالى «وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تقصوا  
المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان

النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «٨٥» بَقِيَتْ لِلَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ «٨٦»

بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴿

اعلم أن هذا هو القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة . واعلم أن مدين اسم ابن لاراهيم عليه السلام ، ثم صار اسماً للقبيلة ، وكثير من المفسرين يذهب إلى أن مدين اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم عليه السلام . والمعنى على هذا التقدير : وأرسلنا إلى أهل مدين نخفد الأهل .

واعلم أننا بينا أن الأنبياء عليهم السلام يشرعون في أول الأمر بالدعوة إلى التوحيد ، فلهذا قال شعيب عليه السلام (مالك من إله غيره) ثم إنهم بعد الدعوة إلى التوحيد يشرعون في الأوامر ثم الأهم ، ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان ، دعاهم إلى ترك هذه العادة فقال (ولا تقصصوا المكيال والميزان) والنقص فيه على وجهين : أحدهما : أن يكون الإيفاء من قبلهم فينقصون من قدره . والآخر : أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب وذلك يوجب نقصان حق الغير ، وفي القسمين حصل النقصان في حق الغير . ثم قال (إني أراكم بخير) وفيه وجهان : الأول : أنه حذرهم من غلاء السعر وزوال النعمة إن لم يتوبوا فكأنه قال : اتركوا هذا التطفيف وإلا أزال الله عنكم ما حصل عندكم من الخير والراحة . والثاني : أن يكون التقدير أنه تعالى أنا كم بالخير الكثير والمال والرخص والسعة فلا حاجة بكم إلى هذا التطفيف . ثم قال (وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) وفيه أبحاث :

(البحث الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أخاف أى أعلم حصول عذاب يوم محيط وقال آخرون : بل المراد هو الخوف ، لأنه يجوز أن يتركوا ذلك العمل خشية أن يحصل لهم العذاب ولما كان هذا التخويف قائماً فالخاص هو الظن لا العلم .

(البحث الثاني) أنه تعالى توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لا يخرج منه أحد . والمحيط من صفة اليوم في الظاهر ، وفي المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله (هذا يوم عصيب)

(البحث الثالث) اختلفوا في المراد بهذا العذاب فقال بعضهم : هو عذاب يوم القيامة . لأنه اليوم الذى نصب لأحاطة العذاب بالمعذنين . وقال بعضهم : بل يدخل فيه عذاب الدنيا والآخرة



وقال بعضهم : بل المراد منه عذاب الاستئصال في الدنيا كما في حق سائر الأنبياء والأقرب دخول كل عذاب فيه واحاطة العذاب بهم كاحاطة الدائرة بما في داخلها فينالهم من كل وجه وذلك مباينة في الوعد كقوله (وأحيط بشمره) ثم قال (وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط)

فان قيل : وقع التكرير في هذه الآية من ثلاثة أوجه لأنه قال أولا (ولا تنقصوا المكيال والميزان) ثم قال (أوفوا المكيال والميزان) وهذا عين الأول . ثم قال (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وهذا عين ما تقدم فما الفائدة في هذا التكرير ؟

قلنا : إن فيه وجوهاً :

﴿الوجه الأول﴾ أن القوم كانوا مصرين على ذلك العمل فاحتج في المنع منه إلى المبالغة والتأكيد ، والتكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام .

﴿والوجه الثاني﴾ أن قوله (ولا تنقصوا المكيال والميزان) نهى عن التقيص وقوله (أوفوا المكيال والميزان) أمر بإيفاء العدل ، والنهي عن ضد الشيء مغاير للأمر به ، وليس لقائل أن يقول : النهي عن ضد الشيء أمر به ، فكان التكرير لازماً من هذا الوجه ، لأننا نقول : الجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى جمع بين الأمر والشيء . وبين النهي عن ضده للمبالغة ، كما نقول : صل قرابتك ولا تقطعهم ، فيدل هذا الجمع على غاية التأكيد . الثاني : أن نقول لا نسلم أن الأمر كما ذكرتم لأنه يجوز أن ينهى عن التقيص وينهى أيضاً عن أصل المعاملة . فهو تعالى منع من التقيص وأمر بإيفاء الحق ، ليدل ذلك على أنه تعالى لم يمنع عن المعاملات ولم ينه عن المبيعات ، وإنما منع من التطفيف . وذلك لأن طائفة من الناس يقولون إن المبيعات لا تنفك عن التطفيف ومنع الحقوق فكانت المبيعات محرمة بالكلية ، فلاجل ابطال هذا الخيال . منع تعالى في الآية الأولى من التطفيف وفي الآية الأخرى أمر بالإيفاء . وأما قوله ثالثاً (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) فليس بتكرير لأنه تعالى خص المنع في الآية السابقة بالنقصان في المكيال والميزان . ثم إنه تعالى عم الحكم في جميع الأشياء فظهر بهذا البيان أنها غير مكررة . بل في كل واحد منها فائدة زائدة .

﴿والوجه الثالث﴾ أنه تعالى قال في الآية الأولى (ولا تنقصوا المكيال والميزان) وفي الثانية قال (أوفوا المكيال والميزان) والإيفاء عبارة عن الاتيان به على سبيل الكمال والتمام ، ولا يحصل ذلك إلا إذا أعطى قدرًا زائداً على الحق ، ولهذا المعنى قال الفقهاء : إنه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل إلا عند غسل جزء من أجزاء الرأس . فالخلاص : أنه تعالى في الآية الأولى نهى عن النقصان ، وفي الآية الثانية أمر بإعطاء قدر من الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب

إلا عند أداء ذلك القدر من الزيادة فكأنه تعالى نهى أولاً عن سعي الإنسان في أن يجعل مال غيره ناقصاً لتحصل له تلك الزيادة . وفي الثانية أمر بالسعي في تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة وقوله (بالقسط) يعنى بالعدل ومعناه الأمر بإبقاء الحق بحيث يحصل معه اليقين بالخروج عن العهدة فالأمر بإبقاء الزيادة على ذلك غير حاصل . ثم قال (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) والبخس هو النقص في كل الأشياء ، وقد ذكرنا أن الآية الأولى دلت على المنع من النقص في المكيال والميزان ، وهذه الآية دلت على المنع من النقص في كل الأشياء . ثم قال (ولا تعثوا في الأرض مفسدين)

فان قيل : العثو الفساد التام فقوله (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) جار مجرى أن يقال : ولا تقسّدوا في الأرض مفسدين .

قلنا : فيه وجوه : الأول : أن من سعى في إيصال الضرر إلى الغير فقد حمل ذلك الغير على السعي إلى إيصال الضرر إليه فقوله (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) معناه ولا تسعوا في افساد مصالح الغير فان ذلك في الحقيقة سعى منكم في افساد مصالح أنفسكم . والثاني : أن يكون المراد من قوله (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) مصالح دنياكم وآخرتكم . والثالث : ولا تعثوا في الأرض مفسدين مصالح الاديان . ثم قال (بقية الله خير لكم) قرئ بـ «بقية» الله وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي . ثم نقول المعنى : ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف يعنى المال الحلال الذي يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف وقال الحسن : بقية الله أى طاعة الله خير لكم من ذلك القدر القليل ، لأن ثواب الطاعة يبقى أبداً ، وقال قتادة : حظكم من ربكم خير لكم ، وأقول المراد من هذه البقية إما المال الذى يبقى عليه في الدنيا ، وإما ثواب الله ، وأما كونه تعالى راضياً عنه والكل خير من قدر التطفيف ، أما المال الباقي فلا أن الناس إذا عرفوا إنساناً بالصدق والأمانة والبعد عن الحياة اعتمدوا عليه ورجعوا في كل المعاملات إليه فيفتح عليه باب الرزق ، وإذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ولم يخاطبوه البتة فتضيق أبواب الرزق عليه ، وأما إن حملنا هذه البقية على الثواب فالأمر ظاهر ، لأن كل الدنيا تقنى وتقرض وثواب الله باق ، وأما إن حملناه على حصول رضا الله تعالى فالأمر فيه ظاهر . ثبت بهذا البرهان أن بقية الله خير . ثم قال (إن كنتم مؤمنين) وإنما شرط الإيمان في كونه خيراً لهم لأنهم إن كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب عرفوا أن السعى في تحصيل الثواب وفي الحذر من العقاب خير لهم من السعى في تحصيل ذلك القليل .

واعلم أن المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط ، فهذه الآية تدل بظاهرها على أن من لم يحتز

قوله تعالى ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الآية ٤٣

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ  
فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ٨٧

عن هذا التطفيف فانه لا يكون مؤمناً .

ثم قال تعالى ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن يكون المعنى : إني نصحتكم  
وأرشدتكم إلى الخير (وما أنا عليكم بحفيظ) أى لا قدرة لى على منعكم عن هذا العمل القبيح . الثانى :  
أنه قد أشار فيما تقدم إلى أن الاشتغال بالبخس والتطفيف يوجب زوال نعمة الله تعالى فقال (وما  
أنا عليكم بحفيظ) يعنى لولم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت نعم الله عنكم وأنا لا أقدر على حفظها  
عليكم فى تلك الحالة .

قوله تعالى ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ  
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (أصلاتك) بغير واو . والباقون  
(أصولاتك) على الجمع .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن شعيباً عليه السلام أمرهم بشئئين . بالتوحيد وترك البخس فالقوم  
أنكروا عليه أمره بهذين النوعين من طاعة . فقوله (أن تترك ما يعبد آباؤنا) إشارة إلى أنه أمرهم  
بالتوحيد وقوله (أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء) إشارة إلى أنه أمرهم بترك البخس . أما الأول : فقد  
أشاروا فيه إلى التمسك بطريقة التقليد ، لأنهم استبعدوا منه أن يأمرهم بترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم  
يعنى الطريقة التى أخذناها من آبائنا وأسلافنا كيف تتركها . وذلك تمسك بمحض التقليد .

﴿المسألة الثالثة﴾ فى لفظ الصلاة وههنا قولان : الأول : المراد منه الدين والايمان ، لأن  
الصلاة أظهر شعار الدين فجعلوا ذكر الصلاة كناية عن الدين . أو نقول : الصلاة أصلها من الاتباع  
ومنه أخذ المصلى من الخيل الذى يتلو السابق لأن رأسه يكون على صلوى السابق وهما ناحيتا  
الفخذين والمراد : دينك يأمرك بذلك . والثانى : أن المراد منه هذه الأعمال المخصوصة ، روى أن  
شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذا أرادوه يصلى تغامروا وتضاحكوا . فقصدوا بقولهم : أصلاتك  
تأمرك السخرية والهزؤ ، وكذا أنك إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فيقال له :  
هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية فكذا ههنا .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا  
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ  
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ  
شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ

فان قيل : تقدير الآية : أصولاتك تأمرك أن تفعل في أموالنا ما نشاء . وهم إنما ذكروا  
هذا الكلام على سبيل الإنكار ، وهم ما كانوا ينكرون كونهم فاعلين في أموالهم ما يشاؤون .  
فكيف وجه التأويل .

قلنا : فيه وجهان : الأول : التقدير : أصولاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا . وأن تترك فعل  
مانشاء ، وعلى هذا قوله (أو أن تفعل) معطوف على ما في قوله (ما يعبد آباؤنا) والثاني : أن تجعل  
الصلاة أمرة ونهية والتقدير : أصولاتك تأمرك بأن تترك عبادة الأوثان وتهاك أن تفعل في أموالنا  
مانشاء ، وقرأ ابن أبي عملة (أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء) بقاء الخطاب فيهما وهو ما كان يأمرهم به  
من ترك التطييف والخس والاختناع بالحلل القليل وأنه خير من الحرام الكثير .

ثم قال تعالى حكاية عنهم ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ وفيه وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن يكون المعنى إنك لانت السفيه الجاهل إلا أنهم عكسوا ذلك على سبيل  
الاستهزاء والسخرية به ، كما يقال للبخيل الحسيس لو رأك حاتم لسجد لك .

﴿والوجه الثاني﴾ أن يكون المراد إنك موصوف عند نفسك وعند قومك بالحلم والرشد .

﴿والوجه الثالث﴾ أنه عليه السلام كان مشهوراً عندهم بأنه حليم رشيد ، فلما أمرهم بمفارقة  
طريقتهم . قالوا له : إنك لانت الحليم الرشيد المعروف الطريقة في هذا الباب . فكيف تهاون عن دين  
ألفيناه من آباءنا وأسلافنا . والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممن كان موصوفاً بالحلم والرشد وهذا  
الوجه أصوب الوجوه .

قوله تعالى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ  
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ  
أُنِيبُ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ



لَوْ طَمَسْنَا مِنْكُمْ بَعِيدٌ ٨٩ «وَأَسْتَغْفِرُكُمْ رَبُّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» ٩٠

قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربِّي رحيم ودود  
في الآية مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أنه تعالى حكى عن شعيب عليه السلام ما ذكره في الجواب عن كلماتهم فالأول قوله (أرأيتم إن كنت على بينة من ربِّي ورزقني منه رزقاً حسناً) وفيه وجوه : الأول : أن قوله (إن كنت على بينة من ربِّي) إشارة إلى ما آتاه الله تعالى من العلم والهداية والدين والنبوة وقوله (ورزقني منه رزقاً حسناً) إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال ، فانه يروى أن شعيباً عليه السلام كان كثير المال .

واعلم أن جواب إن الشرطية محذوف . والتقدير : أنه تعالى لما آتاني جميع السعادات الروحانية وهي البينة والسعادات الجسدية وهي المال والرزق الحسن فهل يسعني مع هذا الانعام العظيم أن أخون في وحيه وأن أخالفه في أمره ونهيه ، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك لأنهم قالوا له (إنك لأنت الحليم الرشيد) فكيف يليق بك مع حليمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا فكأنه قال إنما أقدمت على هذا العمل . لأن نعم الله تعالى عندي كثيرة وهو أمرني بهذا التبليغ والرسالة ، فكيف يليق بي مع كثرة نعم الله تعالى علي أن أخالف أمره وتكليفه . الثاني : أن يكون التقدير كأنه يقول لما ثبت عندي أن الاشتغال بعبادة غير الله والاشتغال بالبخل والتطفيف عمل منكر . ثم أنا رجل أريد إصلاح أحوالكم ولا أحتاج إلى أموالكم لأجل أن الله تعالى آتاني رزقاً حسناً فهل يسعني مع هذه الأحوال أن أخون في وحي الله تعالى وفي حكمه . الثالث : قوله (إن كنت على بينة من ربِّي) أي ما حصل عنده من المعجزة وقوله (ورزقني منه رزقاً حسناً) المراد أنه لا يسألهم أجراً ولا جعلاً وهو الذي ذكره سائر الأنبياء من قولهم (لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على رب العالمين)

(المسألة الثانية) قوله (ورزقني منه رزقاً حسناً) يدل على أن ذلك الرزق إنما حصل من عند الله تعالى وباعثاته وأنه لا مدخل للكسب فيه ، وفيه تنبيه على أن الاعزاز من الله تعالى والاذلال من الله تعالى . وإذا كان الكل من الله تعالى فأنا لا أبالي بمخالفتكم ولا أفرح بموافقكم . وإنما أكون على تقرير دين الله تعالى وإيضاح شرائع الله تعالى .

﴿وأما الوجه الثاني﴾ من الأجوبة التي ذكرها شعيب عليه السلام فقوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) قال صاحب الكشف: يقال خالفني فلان إلى كذا إذا قصدته وأنت مول عنه وخالفني عنه إذا ولي عنه وأنت قاصده . ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه . فيقول : خالفني إلى الماء . يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادرا . ومنه قوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لاستبذابها دونكم فهذا بيان اللغة ، وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا بأنه حلیم رشيد ، وذلك يدل على كمال العقل ، وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الأصوب الأصح . فكانه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أن الذي اختاره عقلي لنفسی لابد وأن يكون أصوب الطرق وأصلحها والدعوة إلى توحيد الله تعالى وترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما إلى جزأين ، التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى وأنا مواظب عليهما غير تارك لهما في شيء من الأحوال البتة فلما اعترفتم لي بالحلم والرشد وترون أنني لا أترك هذه الطريقة ، فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق ، وأشرف الأديان والشرائع .

﴿وأما الوجه الثالث﴾ من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) والمعنى ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي ، وقوله (ما استطعت) فيه وجوه : الأول : أنه ظرف . والتقدير: مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكنا منه لا آلو فيه جهداً . والثاني : أنه بدل من الإصلاح . أي المقدار الذي استطعت منه . والثالث : أن يكون مفعولاً له أي ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه .

واعلم أن المقصود من هذا الكلام أن القوم كانوا قد أقروا بأنه حلیم رشيد . وإنما أقروا له بذلك لأنه كان مشهوراً فيما بين الخلق بهذه الصفة ، فكانه عليه السلام قال لهم انكم تعرفون من حالى أنى لا أسمى إلا في الإصلاح وإزالة الفساد والخصومة . فلما أمرتكم بالتوحيد وترك إبداء الناس ، فاعلموا أنه دين حق وأنه ليس غرضي منه إيقاع الخصومة وإثارة الفتنة ، فانكم تعرفون أنى أبغض ذلك الطريق ولا أدور إلا على ما يوجب الصلح والإصلاح بقدر طاقتي . وذلك هو الإبلاغ والإنذار . وأما الإيجار على الطاعة فلا أقدر عليه . ثم أنه عليه السلام أكد ذلك بقوله (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) وبين بهذا أن توكله واعتماده في تنفيذ كل الأعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته .

واعلم أن قوله عليه السلام توكلت إشارة إلى محض التوحيد ، لأن قوله عليه السلام توكلت يفيد

الحصر . وهو أنه لا ينبغي للإنسان أن يتوكل على أحد الا على الله تعالى وكيف وكل ماسوى الحق سبحانه ممكن لذاته . فان بذاته . ولا يحصل الا بإيجاده وتكوينه ، وإذا كان كذلك لم يجز التوكل إلا على الله تعالى وأعظم مراتب معرفة المبدأ هو الذى ذكرناه ، وأما قوله (واليه أنيب) فهو إشارة إلى معرفة المعاد . وهو أيضا يفيد الحصر لأن قوله (واليه أنيب) يدل على أنه لا مرجع للخلق الا إلى الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيب عليه السلام قال «ذاك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته فى كلامه بين قومه .

(وأما الوجه الرابع) من الوجوه التى ذكرها شعب عليه السلام فهو قوله (وما قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم) قال صاحب الكشف : جرم مثل كسب فى تعديته تارة إلى مفعول واحد وأخرى إلى مفعولين يقال جرم ذنبا وكسبه وجرمه ذنبا وكسبه اياه ، ومنه قوله تعالى (لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم) أى لا يكسبنكم شقاقى اصابة العذاب . وقرأ ابن كثير (يجرمنكم) بضم الياء من أجرمته ذنبا إذا جعلته جارما له أى كاسبا له . وهو منقول من جرم المعتدى الى مفعول واحد ، وعلى هذا فلا فرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه . والقراءتان مستويتان فى المعنى لاتفاوت بينهما إلا أن المشهورة أفصح لفظا كما ان كسبه مالا أفصح من أ كسبه .

إذا عرفت هذا فنقول : المراد من الآية لا تكسبنكم معاداتكم اياي أن يصيبكم عذاب الاستئصال فى الدنيا مثل ما حصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق ، ولقوم هود من الريح العقيم . ولقوم صالح من الرجفة ، ولقوم لوط من الخسف .

وأما قوله (وما قوم لوط منكم ببعيد) ففيه وجهان : الأول : أن المراد نفي البعد فى المكان لأن بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين . والثانى : أن المراد نفي البعد فى الزمان لأن إهلاك قوم لوط عليه السلام أقرب الاهلاكات التى عرفها الناس فى زمان شعيب عليه السلام . وعلى هذين التقديرين فان القرب فى المكان وفى الزمان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الأحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب .

فان قيل : لم قال (وما قوم لوط منكم ببعيد) وكان الواجب أن يقال ببعيين ؟

أجاب عنه صاحب الكشف من وجهين : الأول : أن يكون التقدير ما إهلاكم شيء بعيد . الثانى : أنه يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وكثير وقليل بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والتهيق ونحوهما .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا  
رَهْطُكَ لَرَجَّحْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ «٩١»

﴿وأما الوجه الخامس﴾ من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله : واستغفروا ربكم من عبادة الأوثان ثم توبوا إليه عن البخس والنقصان إن ربي رحيم بأوليائه ودود . قال أبو بكر الأنباري : الودود في أسماء الله تعالى المحب لعباده ، من قوهم وددت الرجل أوده ، وقال الأزهرى في كتاب شرح أسماء الله تعالى ويجوز أن يكون ودود فعولا بمعنى مفعول كركوب وحلوب ، ومعناه أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة إفضاله واحسانه على الخلق .

واعلم أن هذا الترتيب الذي راعاه شعيب عليه السلام في ذكر هذه الوجوه الخمسة ترتيب لطيف . وذلك لأنه بين أولا أن ظهور البينة له وكثرة إنعام الله تعالى عليه في الظاهر والباطن يمنعه عن الخيانة في وحى الله تعالى ويصده عن التهاون في تكليفه ، ثم بين ثانيا أنه مواظب على العمل بهذه الدعة ولو كانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافكم بكونه حليما رشيدا ، ثم بين صحته بطريق آخر وهو أنه كان معروفا بتحصيل موجبات الصلاح وإخفاء موجبات الفتن ، فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها ، ثم لما بين صحة طريقته أشار إلى نفي المعارض وقال لا ينبغي أن تحملكم عداوتى على مذهب ودين تقعون بسببه في العذاب الشديد من الله تعالى . كما وقع فيه أقوام الأنبياء المتقدمين . ثم انه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد إلى تقرير ما ذكره أولا وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله (ثم توبوا إليه) ثم بين لهم أن سبق الكفر والمعصية منهم لا ينبغي أن يمنعهم من الإيمان والطاعة لأنه تعالى رحيم ودود يقبل الإيمان والتوبة من الكافر والفاسق لأن رحمته لعباده وجه لهم يوجب ذلك ، وهذا التقرير في غاية الكمال .

قوله تعالى ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجحناك وما أنت علينا بعزير﴾

اعلم أنه عليه السلام لما بالغ في التقرير والبيان ، أجابوه بكلمات فاسدة . فالأول : قولهم (يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) وفيه مسائل .

﴿المسألة الأولى﴾ لقائل أن يقول : انه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم ، فلم قالوا (ما نفقه) والعلماء ذكروا عنه أنواعا من الجوابات : فالأول : أن المراد : ما نفهم كثيرا مما تقول ، لأنهم



كانوا لا يلقون اليه أفهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) الثاني : أنهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزناً ، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه : ما أدري ما تقول . الثالث : أن هذه الدلائل التي ذكرها ما أفنتهم في صحة التوحيد والنبوة والبعث ، وما يجب من ترك الظلم والسرقة . فقولهم (مانفقه) أي لم نعرف صحة الدلائل التي ذكرتها على صحة هذه المطالب .

(المسألة الثانية) من الناس من قال : الفقه اسم لعلم مخصوص ، وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه . واحتجوا بهذه الآية وهي قوله (مانفقه كثيراً مما تقول) فأضاف الفقه الى القول . ثم صار اسماً لنوع معين من علوم الدين ، ومنهم من قال : انه اسم لمطلق الفهم . يقال : أوتي فلان فقهاً في الدين ، أي فهماً . وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» أي يفهمه تأويله .

(والنوع الثاني) من الأشياء التي ذكروها قولهم (وانا لنراك فينا ضعيفاً) وفيه وجهان الأول : أنه الضعيف الذي يتعذر عليه منع القوم عن نفسه ، والثاني : أن الضعيف هو الأعمى بلغة حمير . واعلم أن هذا القول ضعيف لوجوده الأول : أنه ترك للظاهر من غير دليل ، والثاني : أن قوله (فينا) يبطل هذا الوجه ، ألا ترى أنه لو قال : انا لنراك أعمى فينا كان قاسداً ، لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم . الثالث : أنهم قالوا بعد ذلك (ولولا رهطك لرجمناك) فنفوا عنه القوة التي أثبتوها في رهطه ، ولما كان المراد بالقوة التي أثبتوها للرهط هي النصرة . وجب أن تكون القوة التي نفوها عنه هي النصرة ، والذين حملوا اللفظ على ضعف البصر لعلمهم انما حملوه عليه ، لأنه سبب للضعف .

واعلم أن أصحابنا يجوزون العمى على الأنبياء . الا أن هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به في إثبات هذا المعنى لما بيناه . وأما المعتزلة فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال : انه لا يجوز لكونه متعبداً فانه لا يمكن الاحتراز عن النجاسات ، ولأنه يخل بجواز كونه حاكياً وشاهداً . فلا ينم عن من النبوة كان أولى . والكلام فيه لا يليق بهذه الآية . لانا بينا أن الآية لا دلالة فيها على هذا المعنى .

(والنوع الثالث) من الأشياء التي ذكروها قولهم (ولولا رهطك لرجمناك) وفيه مسألتان : (المسألة الأولى) قال صاحب الكشف : رهط من الثلاثة الى العشرة . وقبل إلى السبعة . وقد كان رهطه على ملتهم . قالوا لولا حرمة رهطك عندنا بسبب كونهم على ملتنا لرجمناك ، والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم ، ولا وقع له في صدورهم ، وأنهم انما لم يقتلوه

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ «٩٢» وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ «٩٣»

لأجل احترامهم رهطه .

«المسألة الثانية» الرجم في اللغة عبارة عن الرمي ، وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل . ولما كان هذا الرجم سبباً للقتل لا جرم سموا القتل رجماً ، وقد يكون بالقول الذي هو القذف . كقوله (رجماً بالغيب) وقوله (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) وقد يكون بالشتم واللعن . ومنه قوله (التييطان الرجيم) وقد يكون بالطرد كقوله (رجوماً للشیاطين)

إذا عرفت هذا ففي الآية وجهان : الأول (لرجمناك) لقتلناك . الثاني : لشتمناك وطرديناك . «النوع الرابع» من الأشياء التي ذكروها قولهم (وما أنت علينا بعزيز) ومعناه أنك لما لم تكن علينا عزيزاً سهل علينا الإقدام على قتلك وإيذاؤك .

واعلم أن كل هذه الوجوه التي ذكروها ليست دافعة لما قرره شعيب عليه السلام من الدلائل والبيات ، بل هي جارية مجرى مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة .

قوله تعالى «قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربى بما تعملون محيط ويا قوم اعملوا على مكاتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب»

اعلم أن الكفار لما خوفوا شعيباً عليه السلام بالقتل والإيذاء . حكى الله تعالى عنه ما ذكره في هذا المقام . وهو نوعان من الكلام :

«النوع الأول» قوله (يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربى بما تعملون محيط) والمعنى : أن القوم زعموا أنهم تركوا إيذاؤه رعاية لجانب قومه . فقال : أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلى إكراماً لرهطى ، والله تعالى أولى أن يتبع أمره ، فكأنه يقول : حفظتكم

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْآبَعْدَا  
لْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

إياى رعاية لأمر الله تعالى أولى من حفظكم إياى رعاية لحق رهطى .

وأما قوله ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ فالمعنى : أنكم نسيتموه وجعلتموه كالشئ المنبذ وراء الظهر لا يعاب به . قال صاحب الكشف : والظهري منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغيرات النسب ونظيره قولهم فى النسبة إلى الأمس أسمى بكسر الهمزة . وقوله (إن ربى بما تعملون محيط) يعنى أنه عالم بأحوالكم فلا يخفى عليه شئ منها .

والنوع الثانى ﴿ قوله ﴾ (ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل) والمكانة الحالة يتمكن بها صاحبها من عمله ، والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المسكنة والقدرة وكل ما فى وسعكم وطاقتم من إيصال الشرور إلى فانى أيضاً عامل بقدر ما آتانى الله تعالى من القدرة .

ثم قال ﴿ سوف تعلمون من يأتية عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ وفيه مسألان

﴿ المسألة الأولى ﴾ لقائل أن يقول لم لم يقل (فسوف تعلمون) والجواب : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل . وإما بحذف الفاء فانه يجعله جواباً عن سؤال مقدر والتقدير : أنه لما قال (ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل) فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك ؟ فقال (سوف تعلمون) فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكل فى باب الفضاغة والتحويل . ثم قال وارتقبوا إني معكم رقيب) والمعنى : فانتظروا العاقبة إني معكم رقيب . أى منتظر . والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضرب والصريم بمعنى الضارب والصارم ، أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم ، أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمترفع .

قوله تعالى ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾

روى الكلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ «٩٦» إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا  
أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ «٩٧» يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ  
النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ «٩٨» وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئس  
الزَّفْدُ الْمَرْفُودُ «٩٩»

وقوله (ولما جاء أمرنا) يحتمل أن يكون المراد منه ولما جاء وقت أمرنا ملكا من الملائكة بتلك  
الصيحة ، ويحتمل أن يكون المراد من الأمر العقاب ، وعلى التقديرين فأخبر الله أنه نجى شعباً ومن  
معه من المؤمنين برحمة منه وفيه وجهان : الأول : أنه تعالى إنما خلصه من ذلك العذاب لمحض  
رحمته ، تنبيها على أن كل ما يصل إلى العبد فليس إلا بفضل الله ورحمته . والثاني : أن يكون المراد  
من الرحمة الإيمان والطاعة وسائر الأعمال الصالحة وهي أيضا ما حصلت إلا بتوفيق الله تعالى ،  
ثم وصف كيفية ذلك العذاب فقال (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) وإنما ذكر الصيحة بالآلف  
واللام إشارة إلى المهود السابق وهي صيحة جبريل عليه السلام (فاصبحوا في ديارهم جاثمين)  
والجاثم الملازم لمكانه الذي لا يتحول عنه يعني أن جبريل عليه السلام لما صاح بهم تلك الصيحة  
زهق روح كل واحد منهم بحيث يقع في مكانه ميتاً (كأن لم يغنوا فيها) أي كأن لم يقيموا في ديارهم  
أحياء متصرفين مترددين .

ثم قال تعالى ﴿أَلَا بَعْدَ لَئِن كُنَّا بِعَدَابِ ثَمُودَ﴾ وقد تقدم تفسير هذه اللفظة وإنما قاس حالهم  
على ثمود لما ذكرنا أنه تعالى عذبهم مثل عذاب ثمود .

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ  
وَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ  
لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئس الزَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾

واعلم أن هذه هي القصة السابعة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي آخر  
القصص من هذه السورة ، أما قوله (بآياتنا وسلطان مبين) ففيه وجوه : الأول : أن المراد من  
الآيات التوراة مع ما فيها من الشرائع والأحكام ، ومن السلطان المبين المعجزات القاهرة الباهرة



والتقدير : ولقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف وأيدناه بمعجزات قاهرة وبيئات باهرة الثاني : أن الآيات هي المعجزات والبيئات وهو كقوله (إن عندكم من سلطان بهذا) وقوله (ما أنزل الله بها من سلطان) وعلى هذا التقدير في الآية وجهان : الأول : أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته . الثاني : أن يراد بالسلطان المدين العسا . لأنه أشهرها وذلك لأنه تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات ، وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والأنفس . ومنهم من أبدل نقص الثمرات والأنفس باظلال الجبل وقلق البحر ، واختلفوا في أن الحجة لم تسمت بالسلطان . فقال بعض المحققين : لأن صاحب الحجة يقهر من لاجبة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره . فلهذا توصف الحجة بأنها سلطان ، وقال الزجاج : السلطان هو الحجة والسلطان سمي سلطاناً لأنه حجة الله في أرضه واشتقاقه من السليط . والسليط ما يضئ به ومن هذا قيل للزيت السليط وفيه قول ثالث : وهو أن السلطان مشتق من التسليط ، والعلباء سلاطين بسبب كآلهم في القوة العلية والملوك سلاطين بسبب مآلهم من القدرة والمكة ، إلا أن سلطة العلباء أكمل وأقوى من سلطة الملوك . لأن سلطة العلباء لا تقبل النسخ والعزل وسلطة الملوك قبلهما ولأن سلطة الملوك تابعة لسلطة العلباء وسلطة العلباء من جنس سلطة الأنبياء وسلطة الملوك من جنس سلطة الفراعنة .

فان قيل : إذا حلت الآيات المذكورة في قوله (بآياتنا) على المعجزات والسلطان أيضاً على الدلائل والمبين أيضاً معناه كونه سبباً للظهور فما الفرق بين هذه المراتب الثلاثة ؟

قلنا : الآيات اسم للقدر المشترك بين العلامات التي تفيد الظن . وبين الدلائل التي تفيد اليقين وأما السلطان فهو اسم لما يفيد القطع واليقين ، إلا أنه اسم للقدر المشترك بين الدلائل التي تؤكد بالחס . وبين الدلائل التي لم تتأكد بالחס . وأما الدليل القاطع الذي تأكد بالחס فهو السلطان المبين . ولما كانت معجزات موسى عليه السلام هكذا لا جرم وصفها الله بأنها سلطان مبين . ثم قال (إلى فرعون وملائه) يعني وأرسلنا موسى بآياتنا بمثل هذه الآيات إلى فرعون وملائه . أي جماعته . ثم قال (فاتبعوا أمر فرعون) ويحتمل أن يكون المراد أمره بإيأم بالكفر بموسى ومعجزاته ويحتمل أن يكون المراد من الأمر الطريق والشأن .

ثم قال تعالى «وما أمر فرعون برشيد» أي برشد إلى خير ، وقيل رشيد أي ذي رشد وأعلم أن بعد طريق فرعون عن الرشد كان ظاهراً لأنه كان دهرياً نافعاً للصانع والمعاد وكان يقول : لا إله إلا الله وإنما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته ورعاية

لمصلحة العالم وأنكر أن يكون الرشد في عبادة الله ومعرفته فلما كان هو نافياً لهذين الأمرين كان خالياً عن الرشد بالكلية . ثم إنه تعالى ذكر صفته وصفة قومه فقال (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ من حيث اللغة يقال : قدم فلان فلاناً بمعنى تقدمه ، ومنه قادمة الرجل كما يقال قدمه بمعنى تقدمه . ومنه مقدمة الجيش .

﴿والبحث الثاني﴾ من حيث المعنى وهو أن فرعون كان قدوة لقومه في الضلال حال ما كانوا في الدنيا وكذلك مقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ، أو يقال كما تقدم قومه في الدنيا فأدخلهم في البحر وأغرقهم فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم ، ويجوز أيضاً أن يريد بقوله (وما أمر فرعون برشد) أى وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله (يقدم قومه) تفسيراً لذلك . وإيضاحاً له ، أى كيف يكون أمره رشيداً مع أن عاقبته هكذا .

فان قيل : لم لم يقل : يقدم قومه فيوردهم النار ؟ بل قال : يقدم قومه فأوردهم النار بلفظ الماضى .

قلنا : لأن الماضى قد وقع ودخل في الوجود فلا سبيل البتة إلى دفعه ، فاذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضى دل على غاية المبالغة . ثم قال (وبئس الورد المورود) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ لفظ «النار» مؤنث . فكان ينبغي أن يقال : وبئست الورد المورود إلا أن لفظ «الورد» مذكر ، فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول : نعم المنزل دارك ، ونعمت المنزل دارك ، فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار هكذا قاله الواحدي .

﴿البحث الثاني﴾ الورد قد يكون بمعنى الورد فيسكون مصدرأ وقد يكون بمعنى الوارد . قال تعالى (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) وقد يكون بمعنى المورود عليه كالماء الذى يورد عليه . قال صاحب الكشاف : الورد المورود الذى حصل وردوه ، فشبه الله تعالى فرعون بمن يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردين إلى الماء ، ثم قال بئس الورد الذى يوردونه النار ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، والنار ضده .

ثم قال ﴿وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة﴾ والمعنى أنهم أتبعوا في هذه الدنيا لعنة وفي يوم القيامة أيضاً . ومعناه أن اللعن من الله ومن الملائكة والأنبياء ملتصق بهم في الدنيا وفي الآخرة لا يزول عنهم ، ونظيره قوله في سورة القصص (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبورين)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ «١٠٠» وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ «١٠١»

ثم قال (بئس الرفد المرفود) والرفد هو العطية وأصله الذي يعين على المطلوب سأل نافع بن الأزرق بن عباس رضى الله عنهما عن قوله (بئس الرفد المرفود) قال هو اللعنة بعد اللعنة . قال قتادة : ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شيء جعلته عوناً لشيء فقد ردفته به ،

قوله تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائمٌ وحصيدٌ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الأولين قال (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) والفائدة في ذكرها أمور : أَوْحَا : أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل ، وذلك إنما يكون في غاية الندرة . فاما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول .

(الوجه الثاني) أنه تعالى خلط بهذه الأقاصيص أنواع الدلائل التي كان الأنبياء عليهم السلام يتمسكون بها . ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم في دفعها ، ثم يذكر عقبيهما أجوبة الأنبياء عنها ثم يذكر عقبيهما أنهم لما أصروا واستكبروا وقعدوا في عذاب الدنيا وبقى عليهم اللعن والعقاب في الدنيا وفي الآخرة ، فكان ذكر هذه القصص سبباً لايصال الدلائل والجوابات عن شبهات إلى قلوب المنكرين . وسبباً لازالة القسوة والغلظة عن قلوبهم . فثبت أن أحسن الطرق في الدعوة إلى الله تعالى ما ذكرناه .

(الفائدة الثالثة) أنه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ، ولا تلمذ لأحد وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه .

(الفائدة الرابعة) أن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزندق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا والخروج عنها ، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع انشاء الجميل في الدنيا ، والثواب الجزيل في الآخرة ، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا

والعقاب في الآخرة ، فإذا تكررت هذه الأفاضيل على السمع ، فلا بد وأن يلين القلب وتضع النفس وتزول العداوة يحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال ، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص .

أما قوله ﴿ذلك من أنباء القرى﴾ ففيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ أن قوله (ذلك) إشارة إلى الغائب ، والمراد منه ههنا الإشارة إلى هذه القصص التي تقدمت ، وهي حاضرة . إلا أن الجواب عنه ما تقدم في قوله (ذلك الكتاب لا ريب فيه)

﴿البحث الثاني﴾ أن لفظ «ذلك» يشار به إلى الواحد والاثني والجماعة لقوله تعالى (لا تفرحوا ولا يفرحوا بين ذلك) وأيضاً يحتمل أن يكون المراد ذلك الذي ذكرناه هو كذا وكذا .

﴿البحث الثالث﴾ قال صاحب الكشف : «ذلك» مبتدأ (من أنباء القرى) خبر (نقصه عليك) خبر بعد خبر أي ذلك المذكور بعض أنباء القرى مقصوص عليك . ثم قال (منها قائم وحصيد) والضمير في قوله (منها) يعود إلى القرى شبه ما بقى من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وما عفا منها وبطر بالحصيد ، والمعنى أن تلك القرى بعضها بقى منه شيء وبعضها هلك وما بقى منه أثر البتة .

ثم قال تعالى ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلوا أنفسهم﴾ وفيه وجوه : الأول : وما ظلمناهم بالعذاب والاهلاك ، ولكن ظلوا أنفسهم بالكفر والمعصية . الثاني : أن الذي نزل بالقوم ليس بظلم من الله بل هو عدل وحكمة ، لأجل أن القوم أولاً ظلوا أنفسهم بسبب إقدامهم على الكفر والمعاصي فاستوجبوا لأجل تلك الأعمال من الله ذلك العذاب . الثالث : قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد وما نقصناهم من النعيم في الدنيا والرزق . ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى .

ثم قال ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما نفعهم تلك الآلهة في شيء البتة .

ثم قال ﴿وما زادوهم غير تنبيء﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : غير تحذير . يقال : تب إذا خسر وتبه غيره إذا أوقعه في الخسران ، والمعنى أن الكفار كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار . ثم أنه تعالى أخبر أنهم عند مساس الحاجة إلى المعين ما وجدوا منها شيئاً لأجل نفع ولا دفع ضرر . ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك



وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ «١٠٢» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ «١٠٣» وَمَا تَوْخَرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ «١٠٤»

الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب اليهم مضار الدنيا والآخرة ، فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران .

قوله تعالى ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾

وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ عاصم والجحدري : (إذ أخذ القرى) بألف واحدة ، وقرأ الباقون بألفين .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى لما أخبر الرسول عليه السلام في كتابه بما فعل بأمر من تقدم من الأنبياء لما خالفوا الرسل وردوا عليهم من عذاب الاستئصال ، وبين أنهم طلبوا أنفسهم غل بهم العذاب في الدنيا قال بعده (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) فبين أن عذابه ليس بمقتصر على من تقدم ، بل الحال في أخذ كل الظالمين يكون كذلك وقوله (وهي ظالمة) الضمير فيه عائد إلى القرى وهو في الحقيقة عائد إلى أهلها ، ونظيره قوله (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) وقوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها)

واعلم أنه تعالى لما بين كيفية أخذ الأمم المتقدمة ثم بين أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيد تأكيذا وتقوية فقال (إن أخذه أليم شديد) فوصف ذلك العذاب بالآلام وبالشدّة . ولا منغصة في الدنيا إلا الآلام . ولا تشديد في الدنيا وفي الآخرة . وفي الوهم والعقل لا تشديد إلا الآلام ،

واعلم أن هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فانه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والانابة لتلايق في الأخذ الذي وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد ولا ينبغي أن يظن أن هذه الأحكام

مختصة بأولئك المتقدمين ، لأنه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال (و كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) فبين أن كل من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي ، فلا بد وأن يشاركهم في ذلك الأخذ الاليم الشديد .

ثم قال تعالى ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ قال القفال : تقرير هذا الكلام أن يقال : إن هؤلاء إنما عذبوا في الدنيا لأجل تكذيبهم الانبياء وإشراكهم بالله ، فإذا عذبوا في الدنيا على ذلك وهي دار العمل ، فلان يعذبوا عليه في الآخرة التي هي دار الجزاء كان أولى .

واعلم أن كثيرا ممن تنبه لهذا البحث من المفسرين عولوا على هذا الوجه ، بل هو ضعيف . وذلك لأن على هذا الوجه الذي ذكره القفال يكون ظهور عذاب الاستئصال في الدنيا دليلا على أن القول بالقيامة والبعث والنشور حق وصدق ، وظاهر الآية يقتضي أن العلم بأن القيامة حق كالشرط في حصول الاعتبار بظهور عذاب الاستئصال ، وهذا المعنى للمضاد لما ذكره القفال ، لان القفال يجعل العلم بعذاب الاستئصال أصلا للعلم بأن القيامة حق ، فبطل ما ذكره القفال والاصوب عندي أن يقال : العلم بأن القيامة حق موقوف على العلم بأن المدبر لوجود هذه السموات والارضين فاعل مختار لا موجب بالذات ودالم يعرف الانسان أن إله العالم فاعل مختار وقادر على كل الممكنات وأن جميع الحوادث الواقعة في السموات والأرضين لا تحصل بالبتكوينه وقضائه ، لا يمكنه أن يعتبر بعذاب الاستئصال ، وذلك لان الذين يزعمون أن المؤثر في وجود هذا العالم موجب بالذات لافاعل مختار ، يزعمون أن هذه الاحوال التي ظهرت في أيام الانبياء مثل الغرق والحرق والحسف والمسوخ والصيحة كلها إنما حدثت بسبب قرانات الكواكب واتصال بعضها ببعض ، وإذا كان الامر كذلك فحينئذ لا يكون حصولها دليلا على صدق الانبياء ، فأما الذي يؤمن بالقيامة ، فلا يتم ذلك الايمان الا اذا اعتقد أن إله العالم فاعل مختار وأنه عالم بجميع الجزئيات ، وإذا كان الامر كذلك لزم القطع بأن حدوث هذه الحوادث الهائلة والوقائع العظيمة إنما كان بسبب أن إله العالم خلقها وأوجدتها وأنها ليست بسبب طوابع الكواكب وقراناتها ، وحينئذ ينتفع بسماع هذه القصص . ويستدل بها على صدق الانبياء ، فثبت بهذا صحة قوله ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾

ثم قال تعالى ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآخرة وصف ذلك اليوم بوصفين : أحدهما : أنه يوم مجموع له الناس ، والمعنى أن خلق الآءلين والآخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون . والثاني : أنه يوم مشهود . قال ابن عباس رضي الله عنهما يشهده البر والفاجر . وقال آخرون يشهده أهل السماء

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْ شَرُّ سَعِيدٍ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ  
 شَقُّوا فِي النَّارِ لَمْ يَمُوتْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ  
 وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا  
 فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ  
 غَيْرُ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

وأهل الأرض . والمراد من الشهود الحضور . والمقصود من ذكره أنه ربما وقع في قلب انسان  
 أنهم لما جمعوا في ذلك الوقت لم يعرف كل أحد إلا واقعة نفسه ، فبين تعالى أن تلك الوقائع  
 تصير معلومة لكل بسبب المحاسبة والمساءلة .

ثم قال تعالى ﴿وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾ والمعنى أن تأخير الآخرة وإفناء الدنيا موقوف  
 على أجل معدود وكل ماله عدد فهو متناه وكل ما كان متناهيًا فانه لا بد وأن ينفى ، فيلزم أن يقال إن  
 تأخير الآخرة سينتهي الى وقت لا بد وأن يقيم الله القيامة فيه ، وأنت تجرب الدنيا فيه . وكل  
 ما هو آت قريب .

قوله تعالى ﴿يوم يأتى لا تكلم نفس الا بإذنه فمنهم شقي وسعيد فاما الذين شقوا في النار لهم  
 فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك إن ربك فعال لما  
 يريد وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك عطاء  
 غير مجذوذ﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وحمة (يأت) بحذف الياء والباقون بأثبات الياء . قال  
 صاحب الكشاف : وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل . ونحوه قولهم  
 لا أدر حكاة الخليل وسيدويه .

﴿المسألة الثانية﴾ قال صاحب الكشاف : فاعل يأتى هو الله تعالى كقولهم (هال ينظرون

إلا أن يأتيهم الله) وقوله (أو يأتي ربك) ويعضده قراءة من قرأ (وما يؤخره) بالياء أقول لا يعجبني هذا التأويل لأن قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) حكاه الله تعالى عن أقوام والظاهر أنهم هم اليهود ، وذلك ليس فيه حجة وكذا قوله (أو يأتي ربك) أما معناها فهو صريح كلام الله تعالى واسناد فعل الايتان اليه مشكل .

فان قالوا : فما قولك في قوله تعالى (وجاء ربك)

قلنا : هناك تأويلات ، وأيضاً فهو صريح ، فلا يمكن دفعه فوجب الامتناع منه بل الواجب أن يقال : المراد منه يوم يأتي الشيء المهيب الهائل المستعظم ، فحذف الله تعالى ذكره بتعيينه ليكون أقوى في التخويف .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال صاحب الكشف : العامل في انتصاب الظرف هو قوله (لا تكلم) أو اضمار اذكر .

أما قوله ﴿لا تكلم نفس إلا باذنه﴾ ففيه حذف ، والتقدير : لا تكلم نفس فيه إلا باذن الله تعالى .

فان قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التي توهم كونها مناقضة لهذه الآية منها قوله تعالى (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) ومنها أنهم يكذبون ويحلفون بالله عليه وهو قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) ومنها قوله تعالى (وقفوه لهم مسئولون) ومنها قوله (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون)

والجواب من وجهين : الأول : أنه حيث ورد المنع من الكلام فهو محمول على الجوابات الحقية الصحيحة . الثاني : أن ذلك اليوم يوم طويل وله مواقف ، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم . وفي بعضها يكفون عن الكلام ، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم .

أما قوله ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشف : الضمير في قوله (فمنهم) لأهل الموقف ولم يذكر لأنه معلوم ولأن قوله (لا تكلم نفس إلا باذنه) يدل عليه لأنه قد مر ذكر الناس في قوله (بمجموع له الناس)

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (فمنهم شقي وسعيد) يدل ظاهره على أن أهل الموقف لا يخرجون عن هذين القسمين .



فان قيل : أليس في الناس مجانين واطفال وهم خارجون عن هذين القسمين ؟  
قلنا : المراد من يحشر من أطلق للحساب وهم لا يخرجون عن هذين القسمين .  
فان قيل : قد احتج القاضي بهذه الآية على فساد ما يقال إن أهل الأعراف لا في الجنة ولا في النار فما قولكم فيه ؟

قلنا : لما سلم أن لاطفال والمجانين خارجون عن هذين القسمين لأنهم لا يحاسبون فلم لا يجوز أيضاً أن يقال : إن أصحاب الأعراف خارجون عنه لأنهم أيضاً لا يحاسبون . لأن الله تعالى علم أن حالهم أن ثوابهم يساوى عذابهم ، فلا فائدة في حسابهم .  
فان قيل : القاضي استدلل بهذه الآية أيضاً على أن كل من حضر عرصة القيامة فانه لابد وأن يكون ثوابه زائداً أو يكون عقابه زائداً ، فأما من كان ثوابه مساوياً لعقابه فانه وإن كان جائزاً في العقل ، إلا أن هذا النص دل على أنه غير موجود .

قلنا : الكلام فيه ماسبق من أن السعيد هو الذي يكون من أهل الثواب ، والشقي هو الذي يكون من أهل العقاب ، وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفى القسم الثالث . والدليل على ذلك : أن أكثر الآيات مشتملة على ذكر المؤمنين والكافر فقط . وليس فيه ذكر ثالث لا يكون لامؤمناً ولا كافراً مع أن القاضي أثبتته . فإذا لم يلزم من عدم ذكر ذلك الثالث عدمه فكذلك لا يلزم من ذكر هذا الثالث عدمه .

«المسألة الثالثة» اعلم أنه تعالى حكم الآن على بعض أهل «قيامه» بأنه سعيد وعلى بعضهم بأنه شقي ، ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الأمر امتنع كونه بخلافه . وإلا لزم أن يصير خبر الله تعالى كذبا وعلمه جاهلا وذلك محال . فثبت أن السعيد لا يتقلب شقياً وأن الشقي لا يتقلب سعيداً ، وتقرير هذا الدليل مر في هذا الكتاب مراراً لا تحصى . وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : لما نزل قوله تعالى (فمنهم شقي وسعيد) قلت يا رسول الله فعلى ماذا نعمل على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال «على شيء قد فرغ منه ياعمر وجفت به الأقلام وجرت به الأقدار ، ولكن كل ميسر لما خلق له» وقالت المعتزلة : نقل عن الحسن أنه قال : فمنهم شقي بعمله وسعيد بعمله .

قلنا : الدليل القاطع لا يدفع بهذه الروايات وأيضاً فلا نزاع أنه إنما شقي بعمله وإنما سعد بعمله ولكن لما كان ذلك العمل حاصلًا بقضاء الله وقدره كان الدليل الذي ذكرناه باقياً .

واعلم أنه تعالى لما قسم أهل القيامة إلى هذين القسمين شرح حال كل واحد منهما فقال (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق) وفيه مسائل :

المسألة الأولى ﴿ذكروا في الفرق بين الزفير والشهيق وجوها :

﴿الوجه الأول﴾ قال اللبث : الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ولم يخرج منه ، والشهيق أن يخرج ذلك النفس ، وقال الفراء : يقال للفرس إنه عظيم الزفرة أى عظيم البطن وأقول إن الانسان إذا عظم غمه انحصر روح قلبه في داخل القلب فاذا انحصر الروح قويت الحرارة وعظمت وعند ذلك يحتاج الانسان إلى النفس القوى لأجل أن يستدخل هواء كثيراً بارداً حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة ، فلهاذا السبب يعظم في ذلك الوقت استدخال الهواء في داخل البدن وحينئذ يرتفع صدره وينتفخ جنباه ، ولما كانت الحرارة الغريزية والروح الحيوانى محصوراً في داخل القلب استولت البرودة على الأعضاء الخارجة فربما عجزت آلات النفس عن دفع ذلك الهواء الكثير المستشقق فيبقى ذلك الهواء الكثير منحصراً في الصدر ويقرب من أن يختنق الانسان منه وحينئذ تجتهد الطبيعة في إخراج ذلك الهواء فعلى قياس قول الأطباء الزفير هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة في القلب بسبب انحصار الروح فيه ، والشهيق هو إخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة في إخرجه وكل واحدة من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم .

﴿الوجه الثانى﴾ في الفرق بين الزفير والشهيق . قال بعضهم : الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنقيق . وأما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار .

﴿الوجه الثالث﴾ قال الحسن : قد ذكرنا أن الزفير عبارة عن الارتفاع . فنقول : الزفير لهيب جهنم يرفعهم بقوة حتى اذا وصلوا الى أعلى درجات جهنم وطمعوا في أن يخرجوا منها ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم الى الدرك الأسفل من جهنم . وذلك قوله تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها) فارتفعهم في النار هو الزفير . وانحطاطهم مرة أخرى هو الشهيق .

﴿الوجه الرابع﴾ قال أبو مسلم : الزفير ما يجتمع في الصدر من النفس عند البكاء الشديد فيقطع النفس . والشهيق هو الذى يظهر عند اشتداد الكربة والحزن ، وربما تبعهما الغشية ، وربما حصل عقيب الموت .

﴿الوجه الخامس﴾ قال أبو العالية : الزفير في الحلق والشهيق في الصدر .

﴿الوجه السادس﴾ قال قوم : الزفير الصوت الشديد ، والشهيق الصوت الضعيف .

﴿الوجه السابع﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما (لهم فيها زفير وشهيق) يريد ندامة ونفاساً عالية وبكاء لا ينقطع وحزننا لا يندفع .

﴿الوجه الثامن﴾ الزفير مشعر بالقوة ، والشهيق بالضعف على ما قرأناه بحسب اللغة .

إذا عرفت هذا فنقول : لم يبعد أن يكون المراد من الزفير قوة ميلهم الى عالم الدنيا وإلى الذات الجسدانية ، والمراد من الشهيق ضعفهم عن الاستسعاد بعالم الروحانيات والاستكمال بالأنوار الالهية والمعارج القدسية .

ثم قال تعالى ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قال قوم إن عذاب الكفار منقطع ولها نهاية ، واحتجوا بالقرآن والمعقول . أما القرآن فأيات منها هذه الآية والاستدلال بها من وجهين : الأول : أنه تعالى قال ( مادامت السموات والأرض ) دل هذا النص على أن مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والأرض ، ثم توافقنا على أن مدة بقاء السموات والأرض متناهية فلزم أن تكون مدة عقاب الكفار منقطعة . الثاني : إن قوله ( إلا ما شاء ربك ) استثناء من مدة عقابهم وذلك يدل على زوال ذلك العذاب في وقت هذا الاستثناء ومما تمسكوا به أيضاً قوله تعالى في سورة عم يتساءلون (لابئين فيها أحقاباً) بين تعالى أن لبهم في ذلك العذاب لا يكون إلا أحقاباً معدودة .

وأما العقل فوجهان : الأول : أن معصية الكافر متناهية ومقابلة الجرم المتناهي بعقاب لانهاية له ظلم وأنه لا يجوز . الثاني : أن ذلك العقاب ضرر خال عن النفع فيكون قيحاً بيان خلوه عن النفع أن ذلك النفع لا يرجع إلى الله تعالى لكونه متعالياً عن النفع والحرر ولا إلى ذلك المعاقب لأنه في حقه ضرر محض ولا إلى غيره . لأن أهل الجنة مشغولون بلذاتهم فلا فائدة لهم في الالتذاذ بالعذاب الدائم في حق غيرهم ، ثبت أن ذلك العذاب ضرر خال عن جميع جهات النفع فوجب أن لا يجوز . وأما الجمهور الأعظم من الأمة ، فقد اتفقوا على أن عذاب الكافر دائم وعند هذا احتاجوا إلى الجواب عن التمسك بهذه الآية . أما قوله (خالدين فيها مادامت السموات والأرض) فذكروا عنه جوابين : الأول . قالوا المراد سموات الآخرة وأرضها . قالوا والدليل على أن في الآخرة سماء وأرضاً قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وقوله (وَأُورِثُوا الأرض تنبؤاً من الجنة حيث نشاء) وأيضاً لأبد لأهل الآخرة مما يقلبهم ويظلمهم . وذلك

هو الأرض والسموات .

ولقائل أن يقول : التشبيه إنما يحسن ويجوز إذا كان حال المشبه به معلوماً مقررأ فيشبه به غيره تأكيداً لثبوت الحكم في المشبه . ووجود السموات والأرض في الآخرة غير معلوم . وبتقدير أن يكون وجوده معلوماً إلا أن بقاءها على وجه لا يفنى البتة غير معلوم ، فإذا كان أصل وجودهما مجهولاً لأكثر الخلق ودوامهما أيضاً مجهولاً للأكثر . كان تشبيه عقاب الأشقياء به في الدوام كلاماً عديم الفائدة ، أقصى ما في الباب أن يقال : لما ثبت بالقرآن وجود سموات وأرض في الآخرة وثبت دوامهما وجب الاعتراف به . وحينئذ يحسن التشبيه . إلا أننا نقول : لما كان الطريق في إثبات دوام سموات أهل الآخرة ودوام أرضهم هو السمع ، ثم السمع دل على دوام عقاب الكافر ، فحينئذ الدليل الذي دل على ثبوت الحكم في الأصل حاصل بعينه في الفرع . وفي هذه الصورة أجمعوا على أن القياس ضائع والتشبيه باطل ، فكذا ههنا .

﴿والوجه الثاني﴾ في الجواب قالوا إن العرب يعبرون عن الدوام والأبد بقولهم مادامت السموات والأرض ، ونظيره أيضاً قولهم ما اختلف الليل والنهار ، وما طام البحر ، وما أقام الجبل . وأنه تعالى خاطب العرب على عرفهم في كلامهم فلما ذكروا هذه الأشياء بناء على اعتقادهم أنها باقية أبداً أبداً ، علمنا أن هذه الالفاظ بحسب عرفهم تفيد الأبد والدوام الخالي عن الانقطاع .

ولقائل أن يقول : هل تسلمون أن قول القائل : خالدين فيها مادامت السموات والأرض . يمنع من بقاءهم وجودة بعد فناء السموات . أو تقولون إنه لا يدل على هذا المعنى . فإن كان الأول ، فلا إشكال لازم . لأن النص لما دل على أنه يجب أن تكون مدة كونهم في النار مساوية لمدة بقاء السموات ومنع من حصول بقائهم في النار بعد فناء السموات ، ثم ثبت أنه لا بد من فناء السموات فعندها يلزمكم القول بانقطاع ذلك العقاب ، وأما إن قلتم هذا الكلام لا يمنع بقاء كونهم في النار بعد فناء السموات والأرض . فلا حاجة بكم إلى هذا الجواب البتة . فثبت أن هذا الجواب على كلا التقديرين ضائع .

واعلم أن الجواب الحق عندى في هذا الباب شيء آخر ، وهو أن المعهود من الآية أنه متى كانت السموات والأرض دائمتين . كان كونهم في النار باقياً فهذا يقتضى أن كلما حصل الشرط حصل المشروط ولا يقتضى أنه إذا عدم الشرط يعدم المشروط : ألا ترى أننا نقول : إن كان هذا إنساناً فهو حيوان .



فإن قلنا : لكنه إنسان فإنه ينتج أنه حيوان ، أما إذا قلنا لكنه ليس بإنسان لم ينتج أنه ليس بحيوان ، لأنه ثبت في علم المنطق أن استثناء تقيض المقدم لا ينتج شيئاً . فكذلك ههنا إذا قلنا مادامت السموات دام عقابهم ، فإذا قلنا لكن السموات دائمة لزم أن يكون عقابهم حاصلاً . أما إذا قلنا لكنه ما بقيت السموات لم يلزم عدم دوام عقابهم .

فإن قالوا : فإذا كان العقاب حاصلاً سواء بقيت السموات أو لم تبقى لم يبق لهذا التشبيه فائدة ؟ قلنا بل فيه أعظم الفوائد وهو أنه يدل على نفاذ ذلك العذاب دهر آداهراً ، وزماناً لا يحيط العقل بطوله وامتداده ، فأما أنه هل يحصل له آخر أم لا فذلك يستفاد من دلائل أخر ، وهذا الجواب الذى قررته جواب حق ولكنه إنما يفهمه إنسان ألف شيئاً من المعقولات .

﴿ وأما الشبهة الثانية ﴾ وهى التسك بقوله تعالى ( إلاما شاء ربك ) فقد ذكروا فيه أنواعاً من الأجوبة .

﴿ الوجه الأول ﴾ فى الجواب وهو الذى ذكره ابن قتيبة وابن الأنبارى والفراء . قالوا هذا استثناء استثناء الله تعالى ولا يفعله البتة . كقولك : والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك مع أن عزيمتك تكون على ضربه ، فكذلك ههنا وطولوا فى تقرير هذا الجواب ، وفى ضرب الأمثلة فيه . وحاصله ما ذكرناه .

ولقائل أن يقول : هذا ضعيف لأنه إذا قال : لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك ، معناه : لأضربنك إلا إذا رأيت أن الأولى ترك مضرب . وهذا لا يدل البتة على أن هذه الرؤية قد حصلت أم لا بخلاف قوله ( خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ) فإن معناه الحكم بخلوهم فيها إلا المدة التى شاء ربك ، فههنا اللفظ يدل على أن هذه المشيئة قد حصلت جزئاً . فكيف يحصل قياس هذا الكلام على ذلك الكلام .

﴿ الوجه الثانى ﴾ فى الجواب أن يقال : إن كلمة ( إلا ) ههنا وردت بمعنى : سوى . والمعنى أنه تعالى لما قال ( خالدين فيها مادامت السموات والأرض ) فهم منه أنهم يكونون فى النار فى جميع مدة بقاء السموات والأرض فى الدنيا ، ثم قال سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود الدائم فذكر أولاً فى خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له بقوله ( إلا ما شاء ربك ) والمعنى : إلا ما شاء ربك من الزيادة التى لا آخر لها .

﴿ الوجه الثالث ﴾ فى الجواب وهو أن المراد من هذا الاستثناء زمان وقوفهم فى الموقف فكأنه تعالى قال فأما الذين شقوا فى النار إلا وقت وقوفهم للحساب فأنهم فى ذلك الوقت لا يكونون

في النار . وقال أبو بكر الأصم المراد إلا ما شاء ربك وهو حال كونهم في القبر ، أو المراد إلا ما شاء ربك حال عمرهم في الدنيا وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة ، والمعنى : خالدين فيها بمقدار مكثهم في الدنيا أو في البرزخ أو مقدار وقوفهم للحساب ثم يصيرون إلى النار .

«الوجه الرابع» في الجواب قالوا : الاستثناء يرجع إلى قوله (لهم فيها زفير وشهيق) وتقريره أن نقول : قوله (لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها) يفيد حصول الزفير والشهيق مع الخلود فإذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل وقت لا يحصل فيه هذا المجموع ولكنه ثبت في المعقولات أنه كما ينتفي المجموع بانتفاء جميع أجزائه فكذلك ينتفي بانتفاء فرد واحد من أجزائه فإذا اتهموا آخر الأمر إلى أن يصيروا ساكنين هامين خامدين خثين لم يبق لهم زفير وشهيق فانتفى أحد أجزاء ذلك المجموع خثين يصح ذلك الاستثناء من غير حاجة إلى الحكم باقتران كونهم في النار .

«الوجه الخامس» في الجواب أن يحمل هذا الاستثناء على أن أهل العذاب لا يكونون أبداً في النار ، بل قد ينقلون إلى البرد والزمهرير وسائر أنواع العذاب وذلك يكفى في صحة هذا الاستثناء «الوجه السادس» في الجواب قال قوم : هذا الاستثناء يفيد إخراج أهل التوحيد من النار ، لأن قوله (فأما الذين شقوا في النار) يفيد أن جملة الأشقياء يحكم عليهم بهذا الحكم ، ثم قوله (إلا ما شاء ربك) يوجب أن لا يبقى ذلك الحكم على ذلك المجموع . ويكفى في زوال حكم الخلود عن المجموع زواله عن بعضهم ، فوجب أن لا يبقى حكم الخلود لبعض الأشقياء ، ولما ثبت أن الخلود واجب للكفار وجب أن يقال : الذين زال حكم الخلود عنهم هم الفساق من أهل الصلاة ، وهذا كلام قوى في هذا الباب .

فان قيل : فهذا الوجه إنما يتعين إذا فسدت سائر الوجوه التي ذكرتموها ، فما الدليل على فسادها . وأيضاً فمثل هذا الاستثناء مذكور في جانب السعداء ، فانه تعالى قال (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ)

قلنا : إنا بهذا الوجه بيننا أن هذه الآية لا تدل على انقطاع وعيد الكفار ، ثم إذا أردنا الاستدلال بهذه الآية على صحة قولنا في أنه تعالى يخرج الفساق من أهل الصلاة من النار ،

قلنا : أما حمل كلمة «إلا» على سوى فهو عدول عن الظاهر ، وأما حمل الاستثناء على حال عمر الدنيا والبرزخ والموقف فبعيد أيضاً ، لأن الاستثناء وقع عن الخلود في النار ، ومن العلوم أن الخلود في النار كيفية من كيفيات الحصول في النار . فقبل الحصول في النار امتنع حصول الخلود في النار . وإذا لم يحصل الخلود لم يحصل المستثنى منه وامتنع حصول الاستثناء . وأما قوله الاستثناء عائد

إلى الزفير والشهيق فهذا أيضاً ترك للظاهر ، فلم يبق للآية حمل صحيح إلا هذا الذى ذكرناه . وأما قوله المراد من الاستثناء نقله من النار إلى الزمهرير ، فنقول : لو كان الأمر كذلك لوجب أن لا يحصل العذاب بالزمهرير إلا بعد انقضاء مدة السموات والأرض . والأخبار الصحيحة دلت على أن النقل من النار إلى الزمهرير وبالعكس يحصل فى كل يوم مراراً فبطل هذا الوجه . وأما قوله إن مثل هذا الاستثناء حاصل فى جانب السعداء فنقول : أجمعت الأمة على أنه يتمتع أن يقال : إن أحداً يدخل الجنة ثم يخرج منها إلى النار ، فلاجل هذا الاجتماع افتقرنا فيه إلى حمل ذلك الاستثناء على أحد تلك التأويلات . أما فى هذه الآية لم يحصل هذا الاجتماع ، فوجب اجراءها على ظاهرها فهذا تمام الكلام فى هذه الآية .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء قال (إن ربك فعال لما يريد) وهذا يحسن انطباقه على هذه الآية إذا حملنا الاستثناء على إخراج الفساق من النار ، كأنه تعالى يقول أظهرت القهر والقدرة ثم أظهرت المغفرة والرحمة لأننى فعال لما أريد وليس لأحد على حكم البتة .  
ثم قال ﴿ وأما الذين سعدوا فى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (سعدوا) بضم السين والباقون بفتحها وإنما جاز ضم السين لأنه على حذف الزيادة من أسعد ولأن سعد لا يتعدى وأسعد يتعدى وسعد وأسعد بمعنى ومنه المسعود من أسماء الرجال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الاستثناء فى باب السعداء يجب حمله على أحد الوجوه المذكورة فيما تقدم وهما وجه آخر . وهو أنه ربما اتفق لبعضهم أن يرفع من الجنة إلى العرش وإلى المنازل الرفيعة لئلا يعلمها إلا الله تعالى . قال الله تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) وقوله (عطاء غير مجذوذ) فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ جذه يحذو جذاً إذا قطعه وجذ الله دابرهم ، فقوله (غير مجذوذ) أى غير مقطوع ، ونظيره قوله تعالى فى صفة نعيم الجنة (لا مقطوعة ولا ممنوعة)

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنه تعالى لما صرح فى هذه الآية أنه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحالة منقطعة ، فلما خص هذا الموضع بهذا البيان ولم يذكر ذلك فى جانب الأشقياء دل ذلك على أن المراد من ذلك الاستثناء هو الانقطاع ، فهذا تمام الكلام فى هذه الآية .

فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ  
وَإِنَّا لَمُوفُونَهُمْ نَصِيحِهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ «١٠٩» وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ  
فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيِبٌ «١١٠»  
وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ «١١١»

قوله تعالى «فلا تك في مريم مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا  
لموفوهم نصيهم غير منقوص»

اعلم أنه تعالى لما شرح أقاصيص عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء  
شرح للرسول عليه الصلاة والسلام أحوال الكفار من قومه فقال (فلا تك في مريم) والمعنى : فلا  
تكن . إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال ، ولأن النون اذا وقع على طرف الكلام لم يبق  
عند التلغظه إلا مجرد الغنة فلا جرم أسقطوه ، والمعنى : فلا تك في شك من حال ما يعبدون في أنها  
لا تضر ولا تنفع .

ثم قال تعالى «ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل» والمراد أنهم أشبهوا آباءهم في لزوم  
الجهل والتقليد .

ثم قال «وإنما لموفوهم نصيهم غير منقوص» فيحتمل أن يكون المراد إننا موفوهم نصيهم أي  
ما يخصهم من العذاب . ويحتمل أن يكون المراد أنهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحق فإنا موفوهم  
نصيهم من الرزق والخيرات الدنيوية . ويحتمل أيضاً أن يكون المراد إننا موفوهم نصيهم من إزالة  
العذر وإزاحة العلل وإظهار الدلائل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، ويحتمل أيضاً أن يكون  
الكل مراداً .

قوله تعالى «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم  
وإنهم لفي شك منه مريب وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير»

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى إصرار كفار مكة على انكار التوحيد . بين أيضاً  
إصرارهم على انكار نبوته عليه السلام وتكذيبهم بكتابه . وبين تعالى أن هؤلاء الكفار كانوا على



هذه السيرة الفاسدة مع كل الأنبياء عليهم السلام وضرب لذلك مثلاً : وهو أنه لما أنزل التوراة على موسى عليه السلام اختلفوا فيه فقبله بعضهم وأنكره آخرون ، وذلك يدل على أن عادة الخلق هكذا :

ثم قال تعالى ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم﴾ وفيه وجوه : الأول : أن المراد : ولولا ما تقدم من حكم الله تعالى بتأخير عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقه هؤلاء الكفار عند عظيم كفرهم إزال عذاب الاستئصال عليهم لكن المتقدم من قضائه أخر ذلك عنهم في دنياهم . الثاني : لولا كلمة سبقت من ربك وهي أن الله تعالى إنما يحكم بين المختلفين يوم القيامة . وإلا لكان من الواجب تمييز المحق عن الميطل في دار الدنيا . الثالث (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهي أن رحمته سبقت غضبه وأن إحسانه راجح على قهره وإلا لقضى بينهم ولما قرر تعالى هذا المعنى قال (وإنهم لفي شك منه مريب) يعنى أن كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مريب .

ثم قال تعالى ﴿وان كلا لما يوفيه ربك أعمالهم﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ المعنى أن من مجت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب خالفهم سواء في أنه تعالى يوفيههم جزاء أعمالهم في الآخرة ، فجمعت الآية الوعد والوعيد فان توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصي وعيد عظيم ، وقوله تعالى (إنه بما يعملون خبير) تؤكد الوعد والوعيد . فانه لما كان عالماً بجميع المعلومات كان عالماً بتقادير الطاعات والمعاصي فكان عالماً بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء ، فيئذ لا يضيع شيء من الحقوق والأجزاء وذلك نهاية البيان .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي وإن مشددة النون (لما) خفيفة قال أبو علي : اللام في (لما) هي التي تقتضيه إن وذلك لأن حرف إن يقتضى أن يدخل على خبرها أو اسمها لام كقوله (إن الله لغفور رحيم) وقوله (إن في ذلك لآية) واللام الثانية هي التي تجيء بعد القسم كقوله والله لتفعلن ولما اجتمع لآمان دخلت ما لتفصل بينهما فكلمة ما على هذا التقدير زائدة ، وقال الفراء : ماموصولة بمعنى من وبقية التقرير كما تقدم ومثله (وإن منكم لمن ليبطئن) .

﴿والقراءة الثانية﴾ في هذه الآية قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم وإن كلاهما مخففتان . والسبب فيه أنهم أعلموا إن مخففة كما تعمل مشددة لأن كلمة إن تشبه الفعل فكما يجوز أعمال الفعل تاماً ومخدوفاً في قولك لم يكن زيد قائماً ، ولم يك زيد قائماً فكذلك ان وإن .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١١٢» وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ «١١٣»

﴿والقراءة الثالثة﴾ قرأ حمزة وابن عامر وحفص : (وإن كلاهما) مشددتان ، قالوا : وأحسن ما قيل فيه إن أصل لما بالثنتين كقوله (أ كلاهما) والمعنى أن كلا ملبوسين أى بمجموعين كأنه قيل : وإن كلا جميعا .

﴿المسألة الثالثة﴾ سمعت بعض الأفاضل قال : إنه تعالى لما أخبر عن توفية الجزية على المستحقين فى هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات : أولها : كلمة (إن) وهى للتأكيد . وثانيها : كلمة «كل» وهى أيضا للتأكيد . وثالثها : اللام الداخلة على خبر (إن) وهى تفيد التأكيد أيضا . ورابعها : حرف (ما) إذا جعلناه على قول القراء موصولا . وخامسها : القسم المضمر ، فإن تقدير الكلام وإن جميعهم والله ليوفينهم . وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم . وسابعها : النون المؤكدة فى قوله (ليوفينهم) فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد فى هذه الكلمة الواحدة تدل على أن أمر الربوبية والعبودية لا يتم إلا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله (إنه بما يعملون خبر) وهو من أعظم المؤكدات .

قوله تعالى ﴿فاستقيم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما أظنب فى شرح الوعد والوعيد قال لرسولنا (فاستقيم كما أمرت) وهذه الكلمة كلمة جاهة فى كل ما يتعلق بالعقائد والأعمال . سواء كان مختصا به أو كان متعلقا بتبليغ الوحي وبيان الشرائع ، ولا شك أن البقاء على الاستقامة الحقيقية مشكل جدا وأنا أضرب لذلك مثلا يقرب صعوبة هذا المعنى إلى العقل السليم ، وهو أن الخط المستقيم الذى يفصل بين الظل وبين الضوء . جزء واحد لا يقبل القسمة فى العرض ، إلا أن عين ذلك الخط بما لا يتميز فى الحس عن طرفيه ، فإنه إذا قرب طرف الظل من طرف الضوء اشتبه البعض ببعض فى الحس . فلم يقع الحس على إدراك ذلك الخط بعينه بحيث يتميز عن كل ماسواه .

إذا عرفت هذا في المثال فاعرف مثاله في جميع أبواب 'عمودية'. فأولها : معرفة الله تعالى وتحصيل هذه المعرفة على وجه يبقى العبد مصوناً في طرف الإثبات عن انقياسه . وفي طرف النفي عن التعطيل في غاية الصعوبة . واعتبر سائر مقامات المعرفة من نفسك . وأيضاً فالقوة الغضبية والقوة الشهوانية حصل لكل واحدة منهما طرفاً إفراط وتقریط وهما مذمومان ، والفصل هو المتوسط بينهما بحيث لا يميل الى أحد الجانبين ، والوقوف عليه صعب ثم العمل به أصعب ، ثبت أن معرفة الصراط المستقيم في غاية الصعوبة ، بتقدير معرفته بالبقاء عليه والعمل به أصعب ، ولما كان هذا المقام في غاية الصعوبة لاجرم قال ابن عباس : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « شيتنى هود وأخواتها ، وعن بعضهم قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له : روى عنك أنك قلت شيتنى هود وأخواتها فقال « نعم » فقلت وبأى آية ؟ فقال بقوله ( فاستقم كما أمرت ) ( المسألة الثانية ) اعلم أن هذه الآية أصل عظيم في الشريعة وذلك لأن القرآن لما ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتبة في اللفظ وجب اعتبار ترتيب فيها لقوله ( فاستقم كما أمرت ) ولما ورد الأمر في الزكاة بأداء الأبل من الأبل والبقرة من البقر وجب اعتبارها وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى به وعندى أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس ، لأنه لما دل عموم النص على حكم وجب الحكم بمقتضاه لقوله ( فاستقم كما أمرت ) والعمل بالقياس انحراف عنه . ثم قال ( ومن تاب معك ) وفيه مسائل :

( المسألة الأولى ) قال الواحدي : من في محل الرفع من وجوه : الأول : أن يكون عطفاً على الضمير المستتر في قوله ( فاستقم ) وأغنى الوصل بالجار عن تأكيده بضمير المتصل في صحة العطف أى فاستقم أنت وهم . والثاني : أن يكون عطفاً على الضمير في أمرت . والثالث : أن يكون ابتداء على تقدير ومن تاب معك فليستقم .

( المسألة الثانية ) أن الكافر والفاسق يجب عليهما الرجوع عن الكفر والفسق . ففي تلك الحالة لا يصح اشتغالهما بالاستقامة ، وأما التائب عن الكفر والفسق فإنه يصح منه الاشتغال بالاستقامة على مناهج دين الله تعالى والبقاء على طريق عبودية الله تعالى . ثم قال ( ولا تطغوا ) ومعنى الطغيان أن يجاوز المقدار . قال ابن عباس : يريد تواضعوا لله تعالى ولا تسكبروا على أحد وقيل ولا تطغوا في القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله ، وقيل : لا تتجاوزوا ما أمركم به وحد لكم ، وقيل : ولا تعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظم نعمه عليكم والأولى دخول الكل فيه ، ثم قال ( ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ) والركن هو السكون إلى الشيء والميل إليه بالمحبة وتقيضه

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ  
ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ «١١٤» وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ «١١٥»

النفور عنه ، وقرأ العامة بفتح التاء والكاف والماضي من هذا ركن كعلم وفيه لغة أخرى ركن يركن قال الأزهرى : وليست بفصيحة . قال المحققون : الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون ، ومعنى قوله (فتمسككم النار) أى أنكم إن ركنتم اليهم فهذه عاقبة الركون ، ثم قال (ومالكم من دون الله من أولياء) أى ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله .

ثم قال «ثم لاتصرون» والمراد لاتجدون من ينصركم من تلك الواقعة .

واعلم أن الله تعالى حكم بأن من ركن إلى الظلمة لابد وأن تمسه النار وإذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم في نفسه .

قوله تعالى «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكري للذاكرين واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين»

اعلم أنه تعالى لما أمره بالاستقامة أردفه بالأمر بالصلاة وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الايمان بالله هو الصلاة وفي الآية مسائل :

«المسألة الأولى» رأيت في بعض كتب القاضى أبى بكر الباقلانى أن الخوارج تمسكوا بهذه الآية في إثبات أن الواجب ليس إلا الفجر والعشاء من وجهين .

«الوجه الأول» أنهما واقعان على طرفي النهار والله تعالى أوجب إقامة الصلاة طرفي النهار ، فوجب أن يكون هذا القدر كافياً .

فان قيل : قوله (وزلفاً من الليل) يوجب صلوات أخرى .

قلنا : لانسلم فان طرفي النهار موصوفان بكونهما زلفاً من الليل فان مالا يكون نهراً يكون ليلاً غاية ما في الباب أن هذا يقتضى عطف الصفة على الموصوف إلا أن ذلك كثير في القرآن والشعر .

«الوجه الثانى» أنه تعالى قال (إن الحسنات يذهبن السيئات) وهذا يشعر بأن من صلى طرفي النهار كان إقامتهما كفارة لكل ذنب سواهما فبتقدير أن يقال إن سائر الصلوات واجبة إلا



أن إقامةهما يجب أن تكون كفارة لترك سائر الصلوات . واعلم أن هذا القول باطل بإجماع الأمة فلا يلتفت إليه .

(المسألة الثانية) كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والأقرب أن الصلاة التي تقام في طرفي النهار وهي الفجر والعصر ، وذلك لأن أحد طرفي النهار طلوع الشمس . والطرف الثاني منه غروب الشمس . فالطرف الأول هو صلاة الفجر . والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله (وزلفاً من الليل) فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر .

إذا عرفت هذا كانت الآية دليلاً على قول أبي حنيفة رحمه الله في أن التنوير بالفجر أفضل ، وفي أن تأخير العصر أفضل . وذلك لأن ظاهر هذه الآية يدل على وجوب إقامة الصلاة في دار في النهار وبين أن طرفي النهار هما الزمان الأول لطلوع الشمس ، والزمان الثاني لغروبها ، وأجمعت الأمة على أن إقامة الصلاة في ذلك الوقت من غير ضرورة غير مشروعة . فقد تعدد العمل بظاهر هذه الآية ، فوجب حمله على المجاز ، وهو أن يكون المراد : أقم الصلاة في الوقت الذي يقرب من طرفي النهار ، لأن ما يقرب من الشيء يجوز أن يطلق عليه اسمه ، وإذا كان كذلك فكل وقت كان أقرب إلى طلوع الشمس . وإلى غروبها كان أقرب إلى ظاهر اللفظ ، وإقامة صلاة الفجر عند التنوير أقرب إلى وقت الطلوع من إقامتها عند الغليس ، وكذلك إقامة صلاة العصر عند ما يصير ظل كل شيء مثله أقرب إلى وقت الغروب من إقامتها عند ما يصير ظل كل شيء مثله ، والمجاز كلما كان أقرب إلى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه أولى ، فثبت أن ظاهر هذه الآية يقرى قول أبي حنيفة في هاتين المسألتين . وأما قوله «وزلفاً من الليل» فهو يقتضي الأمر بإقامة الصلاة في ثلاث زلف من الليل ، لأن أقل الجمع ثلاثة وللمغرب والعشاء وقتان ، فيجب الحكم بوجوب الوتر حتى يحصل زلف ثلاثة يجب إيقاع الصلاة فيها ، وإذا ثبت وجوب الوتر في حق النبي صلى الله عليه وسلم وجب في حق غيره لقوله تعالى (واتبعوه) ونظير هذه الآية بعينها قوله سبحانه وتعالى (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) فالذي هو قبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر ، والذي هو قبل غروبها هو صلاة العصر .

ثم قال تعالى «ومن آتاه الليل فسيح» وهو نظير قوله (وزلفاً من الليل)

(المسألة الثالثة) قال المفسرون : نزلت هذه الآية في رجل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : مات قولون في رجل أصاب من امرأة محرمة كلما يصيبه الرجل من أمراته غير الجماع ، فقال عليه الصلاة والسلام «ليتوضأ وضوءاً حسناً ثم ليقيم وليصل» فأنزله الله تعالى هذه الآية ، فقيل

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُوَى عَنْ فَسَادِ  
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ  
 وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

لنبي عليه الصلاة والسلام : هذا له خاصة ، فقال « بل هو للناس عامة » وقوله (وزلفاً من الليل) قال  
 الليث : زلفة من أول الليل طائفة ، واجمع الزلف . قال الواحدى : وأصل الكلمة من الزلفى والزلفى  
 هى القرى ، يقال : أزلفته فازدلف أى قربته فاقترب .

﴿المسألة الرابعة﴾ قال صاحب الكشف : قرى (زلفاً) بضمين (زلفاً) باسكان اللام وزلفى  
 بوزن قرى فالزلف جمع زلفة كظلم جمع ظلمة والزلف بالسكون نحو بسرة وبسر والزلف بضمين  
 نحو : يسر فى يسر ، والزلفى بمعنى الزلفة كما أن القرى بمعنى القرية وهو ما يقرب من آخر النهار من  
 الليل ، وقيل فى تفسير قوله (وزلفاً من الليل) وقرباً من الليل ، ثم قال (ان الحسنات يذهبن  
 السيئات) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ فى تفسير الحسنات قولان : الأول : قال ابن عباس : المعنى أن الصلوات  
 الخمس كفارات لسائر الذنوب بشرط الاجتناب عن الكبائر . والثانى : روى عن مجاهد أن الحسنات  
 هى قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج من قال إن المعصية لا تضرع الايمان بهذه الآية وذلك لأن الايمان  
 أشرف الحسنات وأجلها وأفضلها . ودلت الآية على أن الحسنات يذهبن السيئات ، فلايمان الذى  
 هو أعلى الحسنات درجة يذهب الكفر الذى هو أعلى درجة فى العصيان فلاأن يقوى على المعصية  
 التى هى أقل السيئات درجة كان أولى ، فان لم يقد إزالة العقاب بالكلية فلا أقل من أن يفيد إزالة  
 العذاب الدائم المؤبد .

ثم قال تعالى (ذلك ذكرى للذاكرين) فقولوه (ذلك) اشارة إلى قوله (فاستقم كما أمرت) إلى  
 آخرها (ذكرى للذاكرين) عظة للمتعتظين وإرشاد للمسترشدين .  
 ثم قال (واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) قيل على الصلاة وهو كقوله (وأمر أهلك  
 بالصلاة واصطبر عليها)

قوله تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية يهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلاً

من أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين»

اعلم أنه تعالى لما بين أن الأمم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين أن السبب فيه أمران :

(السبب الأول) أنه ما كان فيهم قوم يهتدون عن الفساد في الأرض . فقال تعالى (فلولا كان من القرون) والمعنى فهلا كان ، وحكى عن الخليل أنه قال كل ما كان في القرآن من كلمة أولوا فعناه هلا إلا التي في الصفات . قال صاحب الكشف : وما صحت هذه الرواية عنه بدليل قوله تعالى في غير الصفات (ولأن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء . ولولا رجال مؤمنون . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، وقوله (أولوا بقية) فالمعنى أولو فضل وخير ، وسمى الفضل والوجود بقية لأن الرجل يستبقى مما يخرج أجياده وأفضله ، فصار هذا اللفظ مثلا في الجودة يقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا ، ويجوز أن تكون البقية بمعنى القوى كالتيقن بمعنى القوى أى فهلا كان منهم ذريئة على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وقرىء (أولوا بقية) بوزن لقية من بقاء يقيه إذا راقبه وانتظره ، والبقية المرة من مصدره ، والمعنى فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله تعالى . ثم قال (إلا قليلا) ولا يمكن جعله استثناء متصلا لأنه على هذا التقدير يكون ذلك ترغيبا لأولى البقية في النهي عن الفساد إلا القليل من الناجين منهم كما تقول هلا قرأ قومك القرآن إلا الصالحاء منهم تريد استثناء الصالحاء من المرغبين في قراءة القرآن . وإذا ثبت هذا قلنا : إنه استثناء منقطع ، والتقدير : لكان قليلا من أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي .

(والسبب الثاني) لنزول عذاب الاستئصال قوله (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) والترفعة النعمة وصبي مترف إذا كان منعم البدن ، والمترف الذى أبطرت النعمة وسعة المعيشة وأراد بالذين ظلموا تاركى النهي عن المنكرات أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا) أى واتبعوا حراما أترفوا فيه ، ثم قال (وكانوا مجرمين) ومعناه ظاهرا .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَادِقُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَٰذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهم من الجنة والناس أجمعين﴾

اعلم أنه تعالى بين أنه ما أهلك أهل القرى إلا بظلم وفيه وجود :

﴿الوجه الأول﴾ أن المراد من الظلم ههنا الشرك قال تعالى (إن الشرك اظلم ظلمات) والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساءوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم. ولهذا قال الفقهاء إن حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة. وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح. ويقال في الأثر المملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم، فعنى الآية (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) أى لا يهلكهم بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح والسادات. وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية. قالوا: والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق.

﴿الوجه الثاني﴾ في التأويل وهو الذى تختاره المعتزلة هو أنه تعالى لو أهلكهم حال كونهم مصلحين لما كان متعاليًا عن الظلم فلا جرم لا يفعل ذلك بل إنما يهلكهم لأجل سوء أفعالهم.

ثم قال تعالى ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الاجاء والاجبار وقد سبق الكلام عليه.

ثم قال تعالى ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ والمراد اقتراف الناس في الأديان والأخلاق والأفعال.



واعلم أنه لا سبيل إلى استقصاء مذاهب العالم في هذا الموضوع ومن أراد ذلك فليطالع كتابنا الذي سميناه بالرياض الموثقة إلا أننا نذكر ههنا تقييماً جامعاً للمذاهب . فنقول : الناس فريقان منهم من أقر بالعلوم الحسية كعلمنا بأن النار حارة والشمس مضيئة . والعلوم البديهية كعلمنا بأن النفي والاثبات لا يجتمعان ، ومنهم من أنكرهما . والمنكرون هم السوفسطائية ، والمقررون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم ، وهم فريقان : منهم من سلم أنه يمكن تركيب تلك العلوم البديهية بحيث يستنتج منها نتائج علمية نظرية ، ومنهم من أنكره . وهم الذين ينكرون أيضاً النظر إلى العلوم ، وهم قليلون ، والأولون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم . وهم فريقان : منهم من لا يثبت لهذا العالم الجسماني مبدأ أصلاً وهم الأقلون ، ومنهم من يثبت له مبدأ وهو فريقان : منهم من يقول : ذلك المبدأ واجب بالذات ، وهم جمهور الفلاسفة في هذا الزمان . ومنهم من يقول : إنه فاعل مختار وهم أكثر أهل العالم . ثم هؤلاء فريقان : منهم من يقول : إنه ما أرسل رسولا إلى العباد ، ومنهم من يقول : إنه أرسل الرسول ، فالأولون هم البراهمة .

ونقسم اثني عشر باب الشرائع والأديان ، وهم المسلمون والنصارى واليهود والمجوس . وفي كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لاحد لها ولا حصر . والعقول مضطربة . والمطالب غامضة . ومنازعات الوهم والخيال غير منقطعة ، ولما حسن من بقراط أن يقول في صناعة الطب العمر قصير ، والصناعة طويلة . والقضاء عسر . والتجربة خطر . فلان يحسن ذكره في هذه المطالب العالية والمباحث الغامضة ، كان ذلك أولى .

فان قيل : إنكم حاتم قوله تعالى (ولا يزالون مختلفين) على الاختلاف في الأديان ، فما الدليل عليه ، ولم لا يجوز أن يحمل على الاختلاف في الألوان والألسنة والأرزاق والأعمال . قلنا : الدليل عليه أن ما قبل هذه الآية هو قوله (ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة) فيجب حمل هذا الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة ، وما بعد هذه الآية هو قوله (إلا من رحم ربك) فيجب حمل هذا الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه قوله (إلا من رحم ربك) وذلك ليس إلا ما قلنا .

ثم قال تعالى «إلا من رحم ربك» احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهداية والإيمان لا تحصل إلا بتخليق الله تعالى ، وذلك لأن هذه الآية تدل على أن زوال الاختلاف في الدين لا يحصل إلا لمن خصه الله برحمته ، وتلك الرحمة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل . وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة العذر . فان كل ذلك حاصل في حق الكفار . فلم يبق إلا أن

يقال : تلك الرحمة هو أنه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة . قال القاضى معناه : إلا من رحم ربك بأن يصير من أهل الجنة والثواب ، فيرحمه الله بالثواب ، ويحتمل إلا من رحمه الله بالطفاه ، فصار مؤمناً بالطفاه وتسهيله . وهذان الجوابان فى غاية الضعف .

﴿أما الأول﴾ فلا ن قوله (ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك) يفيد أن ذلك الاختلاف إنما زال بسبب هذه الرحمة . فوجب أن تكون هذه الرحمة جارية مجرى السبب المتقدم على زوال هذا الاختلاف ، والثواب شئ متأخر عن زوال هذا الاختلاف ، فالاختلاف جار مجرى المسبب له ، ومجرى المعلول ، فحمل هذه الرحمة على الثواب بعيد .

﴿وأما الثانى﴾ وهو حمل هذه الرحمة على اللطاف . فنقول : جميع اللطاف التى فعلها فى حق المؤمن فهى مفعولة أيضاً فى حق الكافر ، وهذه الرحمة أمر اختص به المؤمن ، فوجب أن يكون شيئاً زائداً على تلك اللطاف . وأيضاً فحصول تلك اللطاف هل يوجب رجحان وجود الايمان على عدده أو لا يوجب . فان لم يوجب . كان وجود تلك اللطاف وعدمها بالنسبة الى حصول هذا المقصود سياتى ، فلم يك لطفاً فيه ، وان أوجب الرجحان فقد بينا فى الكتب العقلية أنه متى حصل الرجحان فقدوجب ، وحينئذ يكون حصول الايمان من الله ، ونما يدل على أن حصول الايمان لا يكون إلا بخلق الله ، أنه مالم يتميز الايمان عن الكفر ، والعلم عن الجهل ، امتنع القصد الى تكوين الايمان والعلم ، وإنما يحصل هذا الامتياز اذا علم كون أحد هذين الاعتقادين مطابقاً للمعتقد وكون الآخر ليس كذلك ، وإنما يصح حصول هذا العلم ، أن لو عرف أن ذلك المعتقد فى نفسه كيف يكون ، وهذا يوجب أنه لا يصح من العبد القصد الى تكوين العلم بالشئ ، إلا بعد أن كان عالماً ، وذلك يقتضى تكوين الكائن وتحصيل الحاصل وهو محال . فثبت أن زوال الاختلاف فى الدين وحصول العلم والهداية لا يحصل إلا بخلق الله تعالى ، وهو المطاوب .

ثم قال تعالى ﴿ولذلك خلقهم﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

﴿القول الأول﴾ قال ابن عباس : والرحمة خلقهم . وهذا اختيار جمهور المعتزلة . قالوا : ولا يجوز أن يقال : والاختلاف خلقهم ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن عود الضمير الى أقرب المذكورين أولى من عوده الى أبعدهما ، وأقرب المذكورين ههنا هو الرحمة ، والاختلاف أبعدهما . والثانى : أنه تعالى لو خلقهم للاختلاف وأراد منهم ذلك الايمان ، لكان لا يجوز أن يعذبهم عليه . إذ كانوا مطيعين له بذلك الاختلاف . الثالث : إذا فسرنا الآية بهذا المعنى ، كان مطابقاً لقوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون)

وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ  
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

فان قيل : لو كان المراد بالرحمة خلقهم فقال : ولتلك خلقهم ولم يقل : ولذلك خلقهم قلنا : إن تأنيث الرحمة ليس تأنيثاً حقيقياً . فكان محمولا على الفضل والغفران كقوله (هذه رحمة من ربى) وقوله (ان رحمة الله قريب من المحسنين) ﴿والقول الثانى﴾ أن المراد للاختلاف خلقهم .

﴿والقول الثالث﴾ وهو المختار أنه خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف . روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا ، وأهل العذاب لأن يختلفوا ، وخلق الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، والذي يدل على صحة هذا التأويل وجوه : الأول : الدلائل القاطعة الدالة على أن العلم والجهل لا يمكن حصولهما في العبد إلا بتخليق الله تعالى . الثانى : أن يقال : إنه تعالى لما حكم على البعض بكونهم مختلفين وتبلي الآخرين بأنهم من أهل الرحمة وعلم ذلك امتنع انقلاب ذلك . وإلا لزم انقلاب العلم جهلا وهو محال . الثالث : أنه تعالى قال بعده (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وهذا تصريح بأنه تعالى خلق أقواما للهداية والجنة ، وأقواما آخرين للضلالة والنار ، وذلك يقوى هذا التأويل .

قوله تعالى ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة في هذه السورة ذكر في هذه الآية نوعين من الفائدة (الفائدة الأولى) تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى . وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه . كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت ، فاذا سمع الرسول هذه القصص ، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع اتباعهم هكذا ، سهل عليه تحمل الأذى من قومه ، وأمكنه الصبر عليه .

﴿والفائدة الثانية﴾ قوله (وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) وفي قوله (في هذه) وجود أحدهما : في هذه السورة . وثانيها : في هذه الآية . وثالثها : في هذه الدنيا ، وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع .

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ اِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا  
 اِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاِلَيْهِ يُرْجَعُ الْاَمْرُ  
 كُلُّهُ فَاَعْبُدُوْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذه السورة بمجيء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك ، لاحتمال أن يكون الحق المذكور في هذه السورة أكمل حالا مما ذكر في سائر السور ، ولولم يكن فيها إلا قوله (فاستقم كما أمرت) لكان الأمر كما ذكرنا ، ثم إنه تعالى بين أنه جاء في هذه السورة أمور ثلاثة . الحق والموعظة والذكرى .

أما الحق : فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة .

وأما الذكرى : فهي إشارة إلى الارشاد إلى الأعمال الباقية الصالحة .

وأما الموعظة : فهي إشارة إلى التنفير من الدنيا وتبحيح أحوالها في الدار الآخرة ، والمذكرة لما هنالك من السعادة والشقاوة ، وذلك لأن الروح إنما جاء من ذلك العالم إلا أنه لاستغراقه في محبة الجسد في هذا العالم نسي أحوال ذلك العالم فالكلام الإلهي يذكره أحوال ذلك العالم . فلهذا السبب صح إطلاق لفظ الذكر عليه .

ثم هنها دقيقة أخرى عجيبة : وهي أن المعارف الإلهية لا بد لها من قابل ومن موجب ، وقابلها هو القلب ، والقلب مالم يكن كامل الاستعداد لقبول تلك المعارف الإلهية والتجليات القدسية ، لم يحصل الانتفاع بسماع الدلائل ، فلهذا السبب تدم الله تعالى ذكر اصلاح القلب ، وهو تثبيت القوادر ، ثم لما ذكر صلاح حال القابل ، أردفه بذكر الموجب ، وهو مجيء هذه السوء المشتملة على الحق والموعظة والذكرى ، وهذا الترتيب في غاية الشرف والجلالة .

قوله تعالى ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكاتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون﴾ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾

اعلم أنه تعالى لما بلغ الغاية في الأعذار والانذار ، والترغيب والترهيب ، أتبع ذلك بأن قال للرسول (وقل للذين لا يؤمنون) ولم تؤثر فيهم هذه البيانات البالغة (اعملوا على مكاتكم انا عاملون) وهذا عين ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه ، والمعنى : افعلوا كل ما تقدرون



عليه في حق من الشر ، فنحن أيضا عاملون ، وقوله (اعملوا) وإن كانت حقيقته صبيحة الأمر ، إلا أن المراد منها التهديد . كقوله تعالى لا بليس (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) وكقوله (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وانتظروا ما يعدكم الشيطان من الخذلان فانا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع العفران والاحسان . قال ابن عباس رضى الله عنهما : (وانتظروا) الهلاك فانا منتظرون لكم العذاب . ثم إنه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال (ولله عيب السموات والأرض)

واعلم أن مجموع ما يحتاج الانسان إلى معرفته أمور ثلاثة . وهى : الماضى والحاضر والمستقبل أما الماضى فهو أن يعرف الموجود الذى كان موجوداً قبله ، وذلك الموجود المتقدم عليه هو الذى نقله من العدم إلى الوجود . وذلك هو الاله تعالى وتقدس .

واعلم أن حقيقة ذات الاله وكنهه هويته غير معلومة للبشر البتة . وإنما المعلوم للبشر صفاته . ثم إن صفاته قسمان : صفات الجلال ، وصفات الاكرام . أما صفات الجلال . فهى سلوب . كقولنا : إنه ليس بجوهر ولا جسم ، ولا كذا ولا كذا . وهذه السلوب فى الحقيقة ليست صفات الكمال ، لأن السلوب عدم ، والعدم المحض والنفي الصرف ، لا كمال فيه ، فقولنا لا تأخذه سنة ولا نوم إنما أفاد الكلام لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرأ عن التغير ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدل على كمال أصلا . ألا ترى أن الميت والجماد لا تأخذه سنة ولا نوم وقوله (وهو يطعم ولا يطعم) إنما أفاد الجلال والكمال والكبرياء . لأن قوله (ولا يطعم) يفيد كونه واجب الوءود لذاته غنياً عن الطعام والشراب بل عن كل ما سواه ، فثبت أن صفات الكمال والعز والعلو هى الصفات الثبوتية وأشرف الصفات الثبوتية الدالة على الكمال والجلال صفتان : العلم والقدرة . فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاته فى هذه الآية بهما فى معرض التعظيم والتناء والمدح . أما صفة اعلم فقوله (ولله عيب السموات والأرض) والمراد أن علمه نافذ فى جميع الكليات والجزئيات والمعدومات والموجودات والحاضرات والغائبات . وتامم البيان والشرح فى دلالة هذا اللفظ على نهاية الكمال ما ذكرناه فى تفسير قوله سبحانه وتعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) وأما صفة القدرة ، فقوله (وإليه يرجع الأمر كله) والمراد أن مرجع الكل إليه ، وإنما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو هو الذى يكون مبدأ جميع الممكنات وإليه يكون مرجع كل المحدثات والكائنات ، كان عظيم القدرة نافذ المشيئة قهراً للعدم بالوجود والتحصيل جباراً له بالقوة والفعل والتكامل . فهذان الوصفان هما المذكوران فى شرح جلال المبدأ ونعت كبريائه .

﴿والمرتبة الثانية﴾ من المراتب التي يجب على الانسان كونه عالماً بها أن يعرف ماهو مهم له في زمان حياته في الدنيا ، وما ذلك إلا تكميل النفس بالمعارف الروحانية والجلال القدسية ، وهذه المرتبة لها بداية ونهاية . أما بدايتها فلاشغال بالعبادات الجسدانية والروحانية . أما العبادات الجسدانية ، فأفضل الحركات الصلاة ، وأكمل السكينات الصيام ، وأنفع البر الصدقة .  
وأما العبادة الروحانية فهي : الفكر ، والتأمل في عجائب صنع الله تعالى في ملكوت السموات والأرض . كما قال تعالى (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) وأما نهاية هذه المرتبة ، فالانتهاء من الأسباب إلى مسببها ، وقطع النظر عن كل الممكنات والمبدعات ، وتوجيه حدة العقل إلى نور عالم الجلال ، واستغراق الروح في أضواء عالم الكبرياء ، ومن وصل إلى هذه الدرجة رأى كل ما سواه مهزولاً تأمناً في ساحة كبريائه هالكة فانياً في فناء سناء أسمائه . وحاصل الكلام : أن أول درجات السير الى الله تعالى هو عبودية الله . وآخرها التوكل على الله ، فلهذا السبب قال (فاعبد وتوكل عليه)

﴿والمرتبة الثالثة﴾ من المراتب المهمة لكل عامل معرفة المستقبل . وهو أنه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسدية ، وهل لأعماله أثر في السعادة والشقاوة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (ومار بك بغافل عما تعملون) والمقصود أنه لا يضيع طاعات المطيعين ولا يهمل أحوال المتمردين الجاحدين ، وذلك بأن يحضروا في موقف القيامة ويحاسبوا على النقيير والقطمير ويعاتبوا في الصغير والكبير ، ثم يحصل عاقبة الأمر فريق في الجنة وفريق في السعير ، فظهر أن هذه الآية وإقية بالإشارة إلى جميع المطالب العلوية ، والمقاصد القدسية ، وأنه ليس وراءها للعقول مرتقى ولا للخواطر منتهى والله الهادي للصواب ، تمت الصورة بحمد الله وعونه ، وقد وجد بخط المصنف رضي الله عنه في النسخة المنتقل منها تم تفسير هذه السورة قبل طلوع الصبح ليلة الاثنين من شهر رجب ختمه الله بالخير والبركة ستة إحدى وستائة ، وقد كان لي ولد صالح حسن السيرة فتوفي في الغربة في عنفوان شبابه ، وكان قلبي كالمحترق لذلك السبب ، فانا أنشد الله إخواني في الدين وشركائي في طلب اليقين وكل من نظر في هذا الكتاب وانتفع به أن يذكر ذلك الشاب بالرحمة والمغفرة ، وأن يذكر هذا المسكين بالدعاء وهو يقول (ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## سورة يوسف

مكية . إلا الآيات : ١ و ٢ و ٣ و ٧ . فمدنية

وآياتها : ١١١ ، نزلت بعد سورة هود

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

## سورة يوسف

مائة وإحدى عشرة آية مكية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون﴾

وقد ذكرنا في أول سورة يونس تفسير (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) فقوله (تلك) إشارة إلى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة المسماة (الر) هي (آيات الكتاب المبين) وهو القرآن ، وإنما وصف القرآن بكونه مبيناً لوجوه : الأول : أن القرآن معجزة قاهرة وآية بينة لحمد صلى الله عليه وسلم . والثاني : أنه بين في الهدى والرشد ، والحلال والحرام ، ولما بينت هذه الأشياء فيه كان الكتاب مبيناً لهذه الأشياء . الثالث : أنه بينت فيه قصص الأولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين .

ثم قال ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين ، سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر . وعن كيفية قصة يوسف ، فأزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها أنه

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ

كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ «٣»

تعالى عبر عن هذه القصة بالفاظ عربية ، ليتمكنوا من فهمها ويقدرُوا على تحصيل المعرفة بها .  
والتقدير : إنا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه قرآناً عربياً ، وسمى بعض  
القرآن قرآناً ، لأن القرآن اسم جنس يقع على السكل والبعض .

(المسألة الثانية) احتج الجبائي بهذه الآية على كون القرآن مخلوقاً من ثلاثة أوجه : الأول :  
أن قوله (إنا أنزلناه) يدل عليه ، فان القديم لا يجوز تنزيله وإنزاله وتحويله من حال إلى حال اثنان :  
أنه تعالى وصفه بكونه عربياً والقديم لا يكون عربياً ولا فارسياً . الثالث : أنه لما قال (إنا أنزلناه  
قرآناً عربياً) دل على أنه تعالى كان قادراً على أن ينزله لآعربياً ، وذلك يدل على حدوثه . الرابع :  
أن قوله (تلك آيات الكتاب) يدل على أنه مركب من الآيات والكلمات ، وكل ما كان مركباً  
كان محدثاً .

والجواب عن هذه الوجوه بأسرها أن نقول : إنها تدل على أن المركب من الحروف والكلمات  
والألفاظ والعبارات محدث وذلك لانواع فيه ، أما الذي ندعى قدمه شيء آخر فسقط هذا الاستدلال  
(المسألة الثالثة) احتج الجبائي بقوله (لعلكم تعقلون) فقال : كلمة «لعل» يجب حملها على الجزم  
والتقدير : إنا أنزلناه قرآناً عربياً لتعقلوا معانيه في أمر الدين ، إذ لا يجوز أن يراد بـ«لعلكم تعقلون»؟  
الشك لأنه على الله محال ، فثبت أن المراد أنه أنزله لإرادة أن يعرفوا دلائله ، وذلك يدل على  
أنه تعالى أراد من كل العباد أن يعقلوا توحيده وأمر دينه ، من عرف منهم ، ومن لم يعرف ،  
بخلاف قول المجبرة .

والجواب : هـب أن الأمر على ما ذكرتم إلا أنه يدل على أنه تعالى أنزل هذه السورة ، وأراد  
منهم معرفة كيفية هذه القصة ولكن لم قلتم إنها تدل على أنه تعالى أراد من الكل الايمان والعمل الصالح  
قوله تعالى «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت  
من قبله لمن الغافلين»

وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) روى سعيد بن جبيرة أنه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه



وسلم وكان يتلوه على قومه ، فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا لو حدثتنا فنزل (الله نزل أحسن الحديث كتاباً) فقالوا لو ذكرتنا فنزل (ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)

(المسألة الثانية) القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً وأصله في اللغة المتابعة قال تعالى (وقالت لاخته قصيه) أى اتبعى أثره وقال تعالى (فارتدا على آثارهما قصصاً) أى اتبعوا وإمسميت الحكاية قصصاً لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً كما يقال تلا القرآن إذا قرأه لأنه يتلو أى يتبع ما حفظ منه آية بعد آية والقصص في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرأ بمعنى الاقتصاد يقال قص الحديث يقصه قصاً وقصصاً إذا طرده وساقه كما يقال أرسله ير له إرسالاً ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك هذا قدرة الله تعالى أى مقدوره وهذا الكتاب علم فلان أى معلومه وهذا جأؤنا أى مرجونا فإن حملناه على المصدر كان المعنى نقص عليك أحسن الاقتصاد ، وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان لا إلى القصة والمراد من هذا الحسن كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حد الإعجاز ألا ترى أن هذه القصة المذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة وإن حملناه على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص لما فيه من العبر والنسك والحكم والعجائب التي ليست في غيرها فان إحدى الفوائد التي في هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه .

(والفائدة الثانية) دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان .

(والفائدة الثالثة) أن الصبر مفتاح الفرج كما في حق يعقوب عليه السلام فانه لما صبر فاز بمقصوده ، وكذلك في حق يوسف عليه السلام .

فأما قوله (بما أوحينا إليك هذا القرآن) فالمعنى بوحينا إليك هذا القرآن ، وهذا التقدير إن جعلنا «ما» مع الفعل بمنزلة المصدر .

ثم قال (وإن كنت من قبله) يريد من قبل أن نوحى إليك (لن الغافلين) عن قصة يوسف وإخوته ، لأنه عليه السلام إنما علم ذلك بالوحى ، ومنهم من قال : المراد أنه كان من الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال تعالى (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان)

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ  
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ «٤»

قوله تعالى «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ  
رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»  
وفيه مسائل :

المسألة الأولى ﴿٤﴾ تقدير الآية : اذكر (إِذْ قَالَ يُوسُفُ) قال صاحب الكشف : الصحيح  
أنه اسم عبراني ، لأنه لو كان عربياً لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف ، وقرأ بعضهم  
(يوسف) بكسر السين (ويوسف) بفتحها . وأيضاً روى في يونس هذه اللغات الثلاث ، وعن  
النبي صلى الله عليه وسلم قال «إذا قيل من الكريم فقولوا الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف  
ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»

المسألة الثانية ﴿٤﴾ قرأ ابن عامر (ياأبت) بفتح التاء في جميع القرآن ، والباقرن بكسر التاء .  
أما الفتح فوجهه أنه كان في الأصل ياأبتاه على سبيل التندبة ، فحذفت الألف والهاء . وأما الكسر  
فأصله ياأبني . فحذفت الياء واكتفى بالكسرة عنها ثم أدخل هاء الوقف فقال (ياأبت) ثم كثر  
استعماله حتى صار كأنه من نفس الكلمة فأدخلوا عليه الإضافة ، وهذا قول ثعلب وابن الأثير .  
واعلم أن النحويين طولوا في هذه المسألة ، ومن أراد كلامهم فليطالع كتبهم .

المسألة الثالثة ﴿٤﴾ أن يوسف عليه السلام رأى في المنام أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر  
سجدت له ، وكان له أحد عشر نفرا من الاخوة ، ففسر الكواكب بالاخوة ، والشمس والقمر  
بالأب والأم ، والسجود بتواضعهم له . وذخولهم تحت أمره ، وإنما حملنا قوله (إني رأيت أحد  
عشر كوكبا) على الرؤيا لوجهين : الأول : أن الكواكب لا تسجد في الحقيقة ، فوجب حمل هذا  
الكلام على الرؤيا . والثاني : قول يعقوب عليه السلام (لا تنقص رؤياك على إخوتك)  
وفي الآية سوالات :

السؤال الأول ﴿٤﴾ قوله (رأيتهم لي ساجدين) فقوله (ساجدين) لا يليق إلا بالعقلاء . والكواكب  
جمادات ، فكيف جازت اللفظة المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات .

قلنا : إن جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون أن الكواكب أحياء ناطقة احتجوا بهذه الآية ،  
وكذلك احتجوا بقوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) واجمع بالواو والنون مختص بالعقلاء . وقال

الواحدى : إنه تعالى لما وصفها بالسجود صارت كأنها تعقل . فأخبر عنها كما يخبر عن يعقل كما قال في صفة الأصنام (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) وكما في قوله (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم)

(السؤال الثاني) قال (إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) ثم أعاد لفظ الرؤيا مرة ثانية . وقال (رأيتهم لى ساجدين) فما الفائدة في هذا التكرير ؟

الجواب : قال الفقهاء رحمه : الله ذكر الرؤية الأولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر ، والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له . وقال بعضهم : إنه لما قال (إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) فكأنه قيل له : كيف رأيت ؟ فقال : رأيتهم لى ساجدين ، وقال آخرون : يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا . وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل على الرؤية وأيها الرؤيا فنذكر قولنا بجمل غير مبين .

(السؤال الثالث) لم أخرج الشمس والقمر ؟

قلنا : أخرهما لفضلهما على الكواكب ، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله (وملائكته ورسله وجبريل وميكال)

(السؤال الرابع) المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كما في قوله :

ترى الآكم فيه سجدا للحوافر

قلنا : كلاهما محتمل ، والأصل في الكلام حمله على حقيقة . ولادانغ أن يرى في المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له .

(السؤال الخامس) متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا ؟

قلنا : لا شك أنه رأى حال الصغر ، فاما ذلك الزمان بعينه فلا يعلم إلا بالآخبار . قال وهب : رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طولا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة . وإذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعها فذكر ذلك لأبيه فقال إياك أن تذكر هذا لأخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيدا . وقيل : كان بين رؤيا يوسف ومصير أخوته إليه أربعون سنة وقيل : ثمانون سنة .

واعلم أن الحكماء يقولون إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب ، والرؤيا الحسنة إنما يظهر تعبيرها بعد حين . قالوا : والسبب في ذلك أن رحمة الله تقتضي أن لا يحصل الاعلام بوصول

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ٥ وَكَذَلِكَ يَحْتَبِكُ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦

الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل ، وأما الاعلام بالخبر فانه يحصل متقدماً على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم .  
 ﴿السؤال السادس﴾ قال بعضهم : المراد من الشمس والقمر أبوه وخالته فما السبب فيه ؟  
 قلنا : انما قالوا ذلك من حيث ورد في الخبر أن والدته توفيت وما دخلت عليه حال ما كان بمصر قالوا : ولو كان المراد من الشمس والقمر أباه وأمه لما ماتت لأن رؤيا الأنبياء عليهم السلام لا بد وأن تكون وحياً وهذه الحجة غير قوية لأن يوسف عليه السلام ما كان في ذلك الوقت من الأنبياء  
 ﴿السؤال السابع﴾ وما تلك الكواكب ؟

قلنا : روى صاحب الكشاف أن يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أخبرني عن النجوم التي رأى يوسف فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودي «إن أخبرتك هل تعلم» قال نعم قال «جربان والطارق والذبال وقابس وعمودان والفليق والمصيبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين وآها يوسف والشمس والقمر نزلت من السماء وسجدت له» فقال اليهودي : أى والله انها لأسمائها واعلم أن كثيراً من هذه الأسماء غير مذكور في الكتب المصنفة في صورة الكواكب والله أعلم بحقيقة الحال .

قوله تعالى ﴿قال يابني لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ وكذلك يحتيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم  
 في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حفص (يابني) بفتح الياء والبا فون بالكسر .



﴿المسألة الثانية﴾ أن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه خفسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالأمارات الكثيرة فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فقال لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيداً .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال الواحدى : الرؤيا مصدر كالبرى والبقيا والبقيا والشورى . إلا أنه لما صار اسماً لهذا المتخيل فى المنام جرى مجرى الأسماء . قال صاحب الكشف : الرؤيا بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة . فلا جرم فرق بينهما بحرفى التأنيث ، كما قيل : القربة والقربى وقرى . رؤياك بقلب الهمزة واو أو سمع الكسانى يقرأ رباك ورباك بالادغام وضم الراء وكسرها وهى ضعيفة .

ثم قال تعالى ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ وهو منصوب باضمار أن والمعنى إن قصصتها عليهم كادوك فان قيل : فلم لم يقل فيكيدوك كما قال (فيكيدونى) .

قلنا : هذه اللام تأكىد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون ، وكقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك ، وقيل هى من صلة الكيد على معنى فيكيدوا كيداً لك . قال أهل التحقيق : وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا وإلا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقداً وغضباً .

ثم قال ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ والسبب فى هذا الكلام انهم لو أقدموا على الكيد لكان ذلك مضافاً إلى الشيطان ونظيره قول موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان ، ثم إن يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكروا أموراً أولها : قوله (وكذلك يجتبيك ربك) يعنى وكما اجتنباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شأن كذلك يجتبيك لأموال عظام . قال الزجاج : الاجتناء مشتق من جبيت الشئ إذا خلصته لنفسك ومنه جبيت الماء فى الحوض . واختلفوا فى المراد بهذا الاجتناء ، فقال الحسن : يجتبيك ربك بالنبوة ، وقال آخرون : المراد منه اعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة فاما تعيين النبوة فلا دلالة فى اللفظ عليه . وثانيها : قوله (ويعلمك من تأويل الأحاديث) وفيه وجوه : الأول : المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلاً لأنه يؤل أمره الى ما رآه فى المنام يعنى تأويل أحاديث الناس فيما يرونه فى منامهم . قالوا : إنه عليه السلام كان فى علم التعبير غاية ، والثانى : تأويل الأحاديث فى كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين ، كما أن الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله ، وتأويل الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والثالث : الأحاديث جمع حديث .

والحديث هو الحادث ، وتأويلها مآلها ، ومآل الحوادث الى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته ، والمراد من تأويل الأحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته ، وثالثها : قوله (وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ)

واعلم أن من فسر الاجتناب بالنبوة لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة ههنا بالنبوة أيضاً وإلا لزم التكرار ، بل يفسر إتمام النعمة ههنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة . أما سعادات الدنيا فلا كثر من الأولاد والخدم والاتباع والتوسع في المال والجاه والحشم وإجلاله في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد . وأما سعادات الآخرة : فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى . وأما من فسر الاجتناب بنيل الدرجات العالية ، فههنا يفسر إتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بأمر : الأول : أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان . وماذا في حق البشر إلا بالنبوة ، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة الى كمال النبوة ، فالكمال المطلق وإتمام المطلق في حق البشر ليس إلا النبوة ، والثاني : قوله ( كما أتمها على أبيك من قبل إبراهيم وإسحق ) ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز إبراهيم وإسحق عن سائر البشر ليس إلا النبوة ، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة .

واعلم أننا فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء ، وذلك لأنه قال (وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ) وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب ، فلبا كان المراد من إتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به في حق من عدا أبناءه فوجب أن لا يبق معمولا به في حق أولاده . وأيضاً أن يوسف عليه السلام قال (إني رأيت أحد عشر كوكبا) وكانت تأويله أحد عشر نفساً لهم فضل وكمال . ويستضيء بعلومهم ودينهم أهل الأرض ، لأنه لا شيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى . وذلك يقتضي أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسل .

فان قيل : كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام ؟ قلنا : ذلك وقع قبل النبوة ، وعندنا العصمة إنما تعتبر في وقت النبوة لا قبلها .

( أقول الثاني ) أن المراد من قوله (وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) خلاصه من المحن ، ويكون وجه التشبيه في ذلك بإبراهيم وإسحق عليهما السلام هو انعام الله تعالى على إبراهيم بإنجائه من النار وعلى ابنه إسحق بتخليصه من الذبح .

( والقول الثالث ) أن إتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه في الدنيا بنعمة الآخرة بأن

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ  
وَإِخْوَهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٨

جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى في الجنة .

واعلم أن القول الصحيح هو الأول ، لأن النعمة النامة في حق البشر ليست إلا النبوة . وكل ما سواها فهي ناقصة بالنسبة إليها ، ثم إنه عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله (إن ربك عليم حكيم) فقلوه (عليم) إشارة إلى قوله (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) وقوله (حكيم) إشارة إلى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث ، لا يضيع النبوة إلا في نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية .

فان قيل : هذه البشارات التي ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعا بصحتها أم لا ؟ فان كان قاطعا بصحتها . فكيف حزن على يوسف عليه السلام . وكيف جاز أن يشتبه عليه أن الذئب أكله ، وكيف خاف عليه من إخوته أن يهلكوه ، وكيف قال لإخوته وأخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون ، مع علمه بأن الله سبحانه سيحجتيه ويجعله رسولا ، فاما إذا قلنا إنه عليه السلام ما كان عالما بصحة هذه الأحوال ، فكيف قطع بها ؟ وكيف حكم بوقوعها ؟ حكما جازما من غير تردد .

قلنا : لا يبعد أن يكون قوله (وكذلك يحجتيك ربك) مشروطا بأن لا يكيدوه ، لأن ذكر ذلك قد تقدم ، وأيضاً فتقدير أن يقال : إنه عليه السلام كان قاطعا بأن يوسف عليه السلام سيصل إلى هذه المناصب إلا أنه لا يمتنع أن يقع في المضائق الشديدة ثم يتخلص منها ويصل إلى تلك المناصب فكان خوفه لهذا السبب ويكون معنى قوله (وأخاف أن يأكله الذئب) الزجر عن التهاون في حفظه وإن كان يعلم أن الذئب لا يصل إليه .

قوله تعالى ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين﴾  
في هذه الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكر صاحب الكشاف أسماء إخوة يوسف : يهودا . روبيل . شمعون . لاوي . ربالون ، يشجر ، دينة ، دان ، نفتالي ، جاد ، آشور . ثم قال : السبعة الأولون من ليا بنت

خالة يعقوب والأربعة الآخرون من سريتين . زلفة وبلة ، فلباتوفيت لياتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (آيات للسائلين) قرأ ابن كثير آية بغير ألف حملة على شأن يوسف والباقرن (آيات) على الجمع لأن أمور يوسف كانت كثيرة وكل واحد منها آية بنفسه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا في تفسير قوله تعالى (آيات للسائلين) وجوهاً الأول : قال ابن عباس دخل حبر من اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم فسمع منه قراءة يوسف فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنه سمعها منه كما هي في التوراة ، فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع ، فقالوا له من علمك هذه القصة ؟ فقال : الله علمي ، فنزل (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) وهذا الوجه عندى بعيد ، لأن المفهوم من الآية أن في واقعة يوسف آيات للسائلين وعلى هذا الوجه الذي نقلناه هـ اكانت الآيات في قصة يوسف ، بل كانت الآيات في أخبار محمد صلى الله عليه وسلم عنها من غير سبق تعلم ولا مطالعة وبين الكلامين فرق ظاهر . والثاني : أن أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا ينسكرون نبوته ويظهرون العداءة الشديدة معه بسبب الحسد فذكر الله تعالى هذه القصة وبين أن إخوة يوسف بالغوا في إيذائه لأجل الحسد وبالأخرة فإن الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته ، ومثل هذه الواقعة إذا سمعها العاقل كانت زجراً له عرب الإقدام على الحسد والثالث : أن يعقوب لما عبر رؤيا يوسف وقع ذلك التعبير ودخل في الوجود بعد ثمانين سنة فكذلك أن الله تعالى لما وعد محمداً عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الأعداء ، فاذن آخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذباً فيه فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه . الرابع : أن إخوة يوسف بالغوا في إبطال أمره ، ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الأمر كما قدره الله تعالى لا كما سعى فيه الأعداء ، فكذلك واقعة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله لما ضمن له إعلاء الدرجة لم يضره سعى الكفار في إبطال أمره . وأما قوله (للسائلين) فاعلم أن هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها ، وهو كقوله تعالى (في أربعة أيام سواء للسائلين)

ثم قال تعالى « إذ قالوا لـيوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (ليوسف) اللام لام الابتداء ، وفيها تأكيد وتحقيق للمضمون الجملة . أرادوا أن زيادة محبة لها أمر ثابت لاشبهة فيه وأخوه هو بنيامين ، وإنما قالوا أخوه ، وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً ، وقيل إلى الأربعين سموا بذلك



لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ، ونقل عن علي عليه السلام أنه قرأ (ونحن عصبه) بالنصب قيل : معناه ونحن نجتمع عصبه .

﴿المسألة الثانية﴾ المراد منه بيان السبب الذي لأجله قصدوا إيذاء يوسف . وذلك أن يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الأولاد في الحب وأنهم تأذوا منه لوجود : الأول : أنهم كانوا أكبر سناً منهما . وثانيها : أنهم كانوا أكثر قوة وأكثر قياماً بمصالح الأب منهما . وثالثها : أنهم قالوا إنا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات ، والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات . إذا ثبت ما ذكرناه من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه في هذه الفضائل ، ثم إنه عليه السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم . لاجرم قالوا (إن أبانا لفي ضلال مبين) يعنى هذا حيف ظاهر وضلال بين . وههنا سوالات :

﴿السؤال الأول﴾ إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد ، ويورث الآفات . فلما كان يعقوب عليه السلام عالماً بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل وأيضاً الأسن والأعلم والأنافع أفضل ، فلم قلب هذه القضية ؟ والجواب : أنه عليه السلام ما فضلها على سائر الأولاد إلا في المحبة . والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذوراً فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم .

﴿السؤال الثاني﴾ أن أولاد يعقوب عليه السلام إن كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقاً من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه . وكيف زيفوا طريقته وطعنوا في فعله ، وإن كانوا مكذبين لنبرته . فهذا يوجب كفرهم .

والجواب : أنهم كانوا مؤمنين بنبوته أيهم مقربين بكونه رسولا حقاً من عند الله تعالى ، إلا أنهم لعلمهم جوزوا من الانبئاء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالا مخصوصة بمجرد الاجتهاد . ثم إن اجتهادهم أدى إلى تحطئة أيهم في ذلك الاجتهاد . وذلك لأنهم كانوا يقولون هما صبيان مابلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهم في السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة والقيام بالمهمات وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل . وأما يعقوب عليه السلام فلعلمه كان يقول : زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة ، فليس لله على فيه تكليف . وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجود : أحدها : أن أههما مانت وهما صغار . وثانيها : لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والتجربة ما لم يجد في سائر الأولاد . وثالثها : لعله عليه السلام وإن كان صغيراً إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى مما كان يصدر عن سائر الأولاد ، والحاصل

اَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ اَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ اَیِّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ  
بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ «٩» قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا یُوسُفَ وَالْقَوْهٗ فِی غِیَابَتِ  
الْجُبِّ یَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّیَّارَةِ اِنْ کُنْتُمْ فَاعِلِیْنَ «١٠»

أن هذ المسألة كانت اجتهادية . وكانت مخلوطة بمیل النفس وهو جبات الفطرة . فلا يلزم من وقوع  
الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر أو في عرضه .

«السؤال الثالث» أنهم نسبوا أباهم الى الضلال المبين ، وذلك مبالغه في الذم والطعن ، ومن  
بالغ في الطعن في الرسول كفر ، لاسيما اذا كان الطاعن ولداً فان حق الأبوة يوجب مزيد التعظيم .  
والجواب : المراد منه الضلال عن رعاية المصالح في الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب .  
«السؤال الرابع» أن قولهم (يوسف وأخوه أحب الى أئنا منا) محض الحسد ، والحسد من  
أهيات الكبائر ، لاسيما وقد أقدموا على الكذب بسبب ذلك الحسد ، وعلى تضييع ذلك الأخ  
الصالح وإلقاءه في ذل العبودية وتبعيده عن الأب المشفق ، وألقوا أباهم في الحزن الدائم والأسف  
العظيم ، وأقدموا على الكذب فما بقيت خصلة مذهبهم ولا طريقة في الشر والفساد إلا وقد أتوا  
بها ، وكل ذلك يقدر في العصمة والنبوة .

والجواب : الأمر كما ذكرتم ، إلا أن المعتبر عندنا عصمة الأنبياء عليهم السلام في وقت  
حصول النبوة . وأما قبلها فذلك غير واجب والله أعلم .

قوله تعالى ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما  
صالحين قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾  
واعلم انه لما قوى الحسد وبلغ النهاية قالوا لا بد من تباعد يوسف عن أبيه : وذلك لا يحصل  
إلا بأحد طريقين : القتل ، أو التخريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه  
في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك ، ثم ذكروا العلة فيه وهي قولهم (يخل لكم وجه أبيكم) والمعنى  
أن يوسف شغلنا عنا وصرف وجهه إليه فاذا أفقده أقبل علينا بالميل والمحبة (وتكونوا من بعده  
قوماً صالحين) وفيه وجوه : الأول : أنهم علموا أن ذلك الذي عزموا عليه من الكبائر فقالوا :  
إذا فعلنا ذلك تبنا إلى الله ونصير من القوم الصالحين . والثاني : أنه ليس المقصود ههنا صلاح الدين  
بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أباكم محباً لكم مشغولاً بشأنكم . الثالث : المراد أنكم بسبب

هذه الوحشة صرّتم مشوشين لا تنفرون لاصلاح مهم ، فاذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لاصلاح مهماتكم . واختلفوا في أن هذا القاتل الذي أمر بالقتل من كان ؟ على قولين : أحدهما : أن بعض إخوته قال هذا . والثاني : أنهم شاوروا أجنبياً فأشار عليهم بقتله ، ولم يقل ذلك أحد من إخوته ، فأما من قال بالأول فقد اختلفوا . فقال وهب : إنه شمعون ، وقال مقاتل : روبيل .  
فان قيل : كيف يليق هذا بهم وهم أنبياء ؟

قلنا : من الناس من أجاب عنه بأنهم كانوا في هذا الوقت مرافقين وما كانوا بالغين ، وهذا ضعيف ، لأنه يبعد من مثل نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم إنسان عاقل يمنعهم من القباح . وأيضاً أنهم قالوا ( وتكفونوا من بعده قوماً صالحين ) وهذا يدل على أنهم قبل التوبة لا يكونون صالحين ، وذلك يناقض كونهم من الصبيان ، ومنهم من أجاب بأن هذا من باب الصغائر ، وهذا أيضاً بعيد لأن إيذاء الأب الذي هو نبي معصوم ، والكذب معه والسعي في إهلاك الأخ الصغير كل واحد من ذلك من أهيات الكبائر ، بل الجواب الصحيح أن يقال : إنهم ما كانوا أنبياء . وإن كانوا أنبياء إلا أن هذه الواقعة إنما أقدموا عليها قبل التوبة .

ثم إنه تعالى حكى أن قاتلاً قال ( لا تقتلوا يوسف ) قيل إنه كان روبيل وكان ابن خالة يوسف وكان أحسنهم رأياً فيه فمنعهم عن القتل ، وقيل يهودا ، وكان أقدمهم في الرأي والفضل والسن .  
ثم قال «وَأَلْقَوْهُ فِي غِيَابَاتِ الْجُبِّ» وفيه مسائل :

«المسألة الأولى» قرأ نافع (في غيابات الجب) على الجمع في الحرفين ، وهذا والذي بعده ، والباقيون (غيابة) على الواحد في الحرفين . أما وجه الغيابات فهو أن للجب أقطارا ونواحي ، فيكون فيها غيابات ، ومن وحد قال : المقصود موضوع واحد من الجب يغيب فيه يوسف ، فالوجه أحسن وأدل على المعنى المطلوب . وقرأ الجحدري (في غيبة الجب)

«المسألة الثانية» قال أهل اللغة : الغيابة كل ما غيب شيئا وستره ، فغيابة الجب غوره ، وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله ، والجب البئر التي ليست بمطوية سميت جباً ، لأنها قطعت قطعاً ولم يحصل فيها غير القطع من طي أو ما شبه ذلك . وإنما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى إذ كان يحتمل أن يلقى في موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين .

«المسألة الثالثة» الألف واللام في الجب تقتضي المعهود السابق ، واختلفوا في ذلك الجب

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا  
غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

فقال قتادة : هو بئر بيت المقدس ، وقال وهب : هو بأرض الأردن ، وقال مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب ، وإنما عينوا ذلك الجب لليلة التي ذكروها وهي قولهم (يلتقطه بعض السيارة) وذلك لأن تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيراً ، وكان يعلم أنه إذا طرح فيها يكون إلى السلامة أقرب ، لأن السيارة إذا جازوا وردوها ، وإذا وردوها شاهدوا ذلك الانسان فيها ، وإذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان القاؤه فيها أبعد عن الهلاك .

(المسألة الرابعة) الالتقاط تناول الشيء من الطريق ، ومنه : اللقطة واللقيط . وقرأ الحسن (تلتقطه) بالناء على المعنى ، لأن بعض السيارة أيضاً سيارة ، والسيارة الجماعة الذين يسرون في الطريق للسفر . قال ابن عباس : يريد المارة وقوله (إن كنتم فاعلين) فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئاً من ذلك ، وأما إن كان ولا بد فاقصروا على هذا القدر ونظيره قوله تعالى (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) يعنى الأولى أن لا تفعلوا ذلك .

قوله تعالى «قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون»

اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك وإلا لما قالوا هذا القول .

واعلم أنهم لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف وفي غاية الشفقة عليه ، وكانت عادتهم أن يغيثوا عنه مدة إلى الرعى فسألوه أن يرسله معهم وقد كان عليه السلام يحب تطيب قلب يوسف فاغتر بقولهم وأرسله معهم . وفي الآية مسائل .

(المسألة الأولى) قال صاحب الكشاف : (لا تأمنا) قرئ بأظهار النونين وبالا دغام بأشمام وبغير إشمام ، والمعنى لم نخافنا عليه ونحن نخبه ونزيد الخير به .

(المسألة الثانية) في (يرتع ويلعب) خمس قراآت :

(القراءة الأولى) قرأ ابن كثير : بالنون ، وبكسر عين ترتع من الارتعاء ، ويلعب بالياء .

والارتعاء افتعال من رعى ، يقال : رعت الماشية الكلاً ترعاه رعيًا إذا أكلته . وقوله (ترتع)



قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنَنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا خَاسِرُونَ ﴿١٤﴾

الارتقاء للابل والمواشي ، وقد أضافوه إلى أنفسهم ، لأن المعنى يرتع إبلنا ، ثم نسبوه إلى أنفسهم لأنهم هم السبب في ذلك الرعي ، والحاصل أنهم أضافوا الارتقاء والقيام بحفظ المسال إلى أنفسهم لأنهم بالغون كاملون وأضافوا اللعب إلى يوسف لصغره .

﴿القرأة الثانية﴾ قرأ نافع : كلاهما بالياء وكسر العين من يرتع أضاف الارتقاء إلى يوسف بمعنى أنه يباشر رعي الابل ليتدرب بذلك فرة و مرة يلعب كفعل الصبيان .

﴿القرأة الثالثة﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر ( يرتع ) بالنون وجرم العين ومثله نلعب . قال ابن الأعرابي : يرتع الأكل بشره ، وقيل : إنه الخصب ، وقيل : المراد من اللعب الاقدام على المباحات وهذا يوصف به الانسان ، وأما نلعب فروى أنه قيل لأبي عمرو : كيف يقولون نلعب وهم أنبياء ؟ فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء ، وأيضا جاز أن يكون المراد من اللعب الاقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لجابر «فهلأ بكمرا تلاعبها وتلاعبك» وأيضا كان لعبهم الاستباق ، والغرض منه تعلم المحاربة والمقاتلة مع الكفار . والدليل عليه قولهم : إنا ذهبنا نستبق وإنما سموه لعبا لأنه في صورته .

﴿القرأة الرابعة﴾ قرأ أهل الكوفة : كليهما بالياء وسكون العين ، ومعناه اسناد الرتع واللعب إلى يوسف عليه السلام .

﴿القرأة الخامسة﴾ ( يرتع ) بالياء ( ونلعب ) بالنون وهذا بعيد ، لأنهم إنما سألو الإرسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لا ليفرحوا باللعب ، والله أعلم .

قوله تعالى «قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنَنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا خَاسِرُونَ»

اعلم أنهم لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر إليهم بشيئين : أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة . والثاني : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به . قيل : إنه رأى في النوم أن الذئب شد على يوسف ، فكان يحذره فمن هذا ذكر ذلك ، وكأنه لفتهم الحجة . وفي أمثالهم البلاء موكل بالمنطق . وقيل : الذئب كانت في أرا ضميم كثيرة ، وقرئ ( الذئب ) بالهمز على الأصل وبالتخفيف . وقيل : اشتقاقه من

﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ ١٥

تذابت الريح إذا أتت من كل جهة ، فلما ذكر يعقوب عليه السلام هذا الكلام أجابوا بقولهم (لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) وفيه سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ما فائدة اللام في قوله (لئن أكله الذئب)

والجواب من وجهين : الأول : أن كلمة إن تفيد كون الشرط مستلزماً للجزاء . أى إن وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون ، فهذه اللام دخلت لتأكيد هذا الاستلزام . الثانى : قال صاحب الكشف هذه اللام تدل على إضمار القسم تقديره : والله لئن أكله الذئب لكننا خاسرين .

﴿السؤال الثانى﴾ ما فائدة الواو في قوله (ونحن عصبة)

الجواب : أنها واو الحال حلقوا لئن حصل ماخافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذا لقوم خاسرون .

﴿السؤال الثالث﴾ ما المراد من قولهم (إنا إذا لخاسرون)

الجواب فيه وجوه : الأول : خاسرون أى هالكون ضعفاً وعجزاً . ونظيره قوله تعالى (لئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون) أى لما جزون . الثانى : أنهم يكونون مستحقين لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار . وأن يقال خسروا الله تعالى ودمروهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون . الثالث : المعنى أنا ان لم نقدر على حفظ أخينا فقد هلكنا مواشينا وخسرناها . الرابع : أنهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم فى خدمة أبيهم واجتهدوا فى القيام بمهماتهم وانما تحملوا تلك المتاعب ليقوزوا منه بالدعاء والشاء فقالوا : لو قصرنا فى هذه الخدمة فقد أحبطنا كل تلك الأعمال وخسرنا كل ما صدر منا من أنواع الخدمة .

﴿السؤال الرابع﴾ أن يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟

والجواب : أن حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الأول ، وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه .

قوله تعالى ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم

هذا وهم لا يشعرون﴾

اعلم أنه لا بد من الاضمار في هذه الآية في موضعين : الأول : أن تقدير الآية قالوا (لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) فأذن له وأرسله معهم ثم يتصل به قوله (فلما ذهبوا به) وثاني أنه لا بد لقوله (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب) من جواب إيجاب لمسا غير مذكور وتقديره فجعلوه فيها . وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلاً عليه وههنا كذلك . قال السدي : إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحماً فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بانيك . فقال يهودا أليس قد أعطيتهموني موثقاً أن لا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب يدلون فيه وهو متعلق بشفير البئر فزعوا قيصه ، وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب . فقال لهم ردوا على قيصى لأتوارى به . فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً لتؤنسك ، ثم دلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى الصخرة فقام بها وهو يبكي فنادوه فظن أنه رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهودا فتمهم وكان يهودا يأتيه بالطعام ، وروى أنه عليه السلام لما ألقى في الجب قال يا شاهدا غير غائب . ويا قريبا غير بعيد . ويا غالبا غير مغلوب . اجعل لي من أمري فرجا وخرجاً ، وروى أن إبراهيم عليه السلام لما ألقى في النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلى اسحق ، واسحق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب في تيممة وعلقها في عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام فأخرجته وألبسه إياه .

ثم قال تعالى «وأوحينا اليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون» وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في قوله (وأوحينا اليه) قولان : أحدهما : أن المراد منه الوحي والنبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين . ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام هل كان في ذلك الوقت بالغا أو كان صبياً قال بعضهم : إنه كان في ذلك الوقت بالغاً وكان سنه سبع عشرة سنة . وقال آخرون : إنه كان صغيراً إلا أن الله تعالى أكل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة كما في حق عيسى عليه السلام .

﴿والقول الثاني﴾ إن المراد من هذا الوحي الإلهام كما في قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى) وقوله (وأوحى ربك إلى النحل) والأول : أولى . لأن الظاهر من الوحي ذلك .

فان قيل : كيف يجعله نبياً في ذلك الوقت وليس هناك أحد يبلغه الرسالة ؟

قلنا : لا يمتنع أن يشرفه بالوحي والتنزيل ويأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات ويكون فائدة

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا  
يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾  
وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ  
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

تقديم الوحي تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه .

﴿المسألة الثانية﴾ في قوله (وهم لا يشعرون) قولان : الأول : المراد أن الله تعالى أوحى إلى يوسف  
إنك لتخبرن إخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون في ذلك الوقت إنك يوسف ، والمقصود  
تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستويا عليهم ويصيرون تحت قهره وقدرته ،  
وروى أنهم حين دخلوا عليه لطلب الحنطة وعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ،  
ثم نقره فظن ، فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه  
في البئر وقتلتم لأبيكم أكلة الذئب ، والثاني : أن المراد إنا أوحينا إلى يوسف عليه السلام في البئر  
بأنك تنبئ إخوتك بهذه الأعمال ، وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحي عليه . والفائدة في إخفاء  
نزول ذلك الوحي عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم فكانوا يقصدون قتله .

﴿المسألة الثالثة﴾ إذا حملنا قوله (وهم لا يشعرون) على التفسير الأول ، كان هذا أمرا من الله  
تعالى نحو يوسف في أن يستر نفسه عن أبيه وأن لا يخبره بأحوال نفسه ، فلهذا السبب كتم أخبار  
نفسه عن أبيه طول تلك المدة ، مع علمه بوجود أبيه به خوفا من مخالفة أمر الله تعالى ، وصبر على  
تجرع تلك المرارة ، فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يوصل إليه تلك  
الغوم الشديدة والهجوم العظيمة ليكثر رجوعه إلى الله تعالى . وينقطع تعلق فكره عن الدنيا  
فيصل إلى درجة عالية في العبودية لا يمكن الوصول إليها إلا بتحمل المحن الشديدة . والله أعلم .

قوله تعالى «وجاءوا أباهم عشاء يبكون» قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا  
فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وجاءوا على قيسه بدم كذب قال بل سولت لكم  
أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»

اعلم أنهم لما طرحو يوسف في الحب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء باكين ورواه ابن جني



عشا بضم العين والقصر . وقال : عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال : هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا لا قال : فما فعل يوسف ؟ قالوا ( ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ) فبكى وصاح وقال : أين القميص ؟ فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص ، وروى أن امرأة تحاكت إلى شريح فبكت فقال الشعبي : يا أبا أمية ما تراها تبكي ؟ قال : قد جاء أخوة يوسف ليكون وهم ظلة كذبة . لا ينبغي للإنسان أن يقضى إلا بالحق . واختلفوا في معنى الاستباق قال الزجاج : يسابق بعضهم بعضاً في الرمي ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « لا سبق إلا في خف أو نعل أو حافر » يعني بالنصل الرمي ، وأصل السبق في الرمي بالسهم هو أن يرمى اثنان ليتبين أيهما يكون أسبق سهماً وأبعد غلوة . ثم يوصف المتراميان بذلك فيقال : استبقا وتسابقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أسبق سهماً ويدل على صحة هذا التفسير ما روى أن في قراءة عبد الله ( إنا ذهبنا نتفضل )

﴿ والقول الثاني ﴾ في تفسير الاستباق ما قاله السدي ومقاتل ( نستبق ) نشدت ونعدو ليتبين أينا أسرع عدواً .

فان قيل : كيف جاز أن يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان ؟

قلنا : الاستباق منهم كان مثل الاستباق في الخيل وكانوا يجرّبون بذلك أنفسهم ويدربونها على العدو ولأنه كالآلة لهم في محاربة العدو ومدافعة الذئب إذا اختلس الشاة وقوله ( فأكله الذئب ) قيل أكل الذئب يوسف وقيل عرضوا ، وأرادوا أكل الذئب المتاع ، والوجه هو الأول .

ثم قالوا ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ليس المعنى أن يعقوب عليه السلام لا يصدق من يعلم أنه صادق ، بل المعنى لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا في يوسف لشدة محبتك إياه ولظننت أننا قد كذبنا . والحاصل أنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدقنا لأنك تبهتنا . وقيل : المعنى : إنا وإن كنا صادقين فانك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمانة تدل على صدقنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإيمان في أصل اللغة عبارة عن التصديق لأن المراد من قوله ( وما أنت بمؤمن لنا ) أي بمصدق . وإذا ثبت أن الأمر كذلك في أصل اللغة وجب أن يبق في عرف الشرع كذلك . وقد سبق الاستقصاء فيه في أول سورة البقرة في تفسير قوله ( الذين يؤمنون بالغيب )

ثم قال تعالى ﴿ وجاؤا على قيصه بدم كذب ﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ إنما جاؤا بهذا القميص المطلق بالدم ليؤهم كونهم صادقين في مقاتلتهم . قيل : ذبحوا جدياً ولطخوا ذلك القمص بدمه . قال القاضي : ولعل غرضهم في نزع قميصه عند اللقاء في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيداً لصدقهم ، لأنه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعاً في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يقرن بهذا الخذلان ، فلو خرّقه مع لطمه بالدم لكان الإيهام أقوى . فلما شاهد يعقوب القميص صحيحاً علم كذبهم .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (وجاؤا على قميصه) أي وجاؤا فوق قميصه بدم كما يقال : جاؤا على جمالهم بأحمال .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال أصحاب العربية وهم الفراء والمبرد والزجاج وابن الانباري (بدم كذب) أي مكذوب فيه ، إلا أنه وصف بالمصدر على تقدير دم ذي كذب ولكنه جعل نفسه كذباً للمبالغة قالوا : والمفعول والفاعل يسميان بالمصدر كما يقال : ماء سكب ، أي مسكوب ودرهم ضرب الأمير وثوب نسج linen ، والفاعل كقوله (إن أصبح مأوكم غوراً) ورجل عدل وصوم ، ونساء نوح ولما سميا بالمصدر سمي المصدر أيضاً فهما فقالوا : للعقل المعقول ، وللجلد المجلود ، ومنه قوله تعالى (بأيكم المفتون) وقوله (إذا مزقتم كل ممزق) قال الشعبي : قصة يوسف كلها في قميصه . وذلك لأنهم لما ألّفوه في الجب نزعوا قميصه ولطخواه بالدم وعرضوه على أبيه ، ولما شهد الشاهد قال (إن كان قميصه قد من قبل) ولما أتى بقميصه إلى يعقوب عليه السلام فألقى على وجهه ارتد بصيراً . ثم ذكر تعالى أن إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص المطلق بالدم قال يعقوب عليه السلام (بل سولت لكم أنفسكم أمراً)

قال ابن عباس : معناه : بل زينت لكم أنفسكم أمراً . والتسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه قال الأزهري : كأن التسويل تفعيل من سؤال الانسان . وهو أمنيته التي يطلبها فتزين أطلالها الباطل وغيره . وأصله مهموز غير أن العرب استعملوا فيه الهمز وقال صاحب الكشاف : (سولت) سهلت من السول وهو الاسترخاء

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (بل) رد لقولهم (أكله الذئب) كأنه قال : ليس كما تقولون (بل سولت لكم أنفسكم) في شأنه (أمراً) أي زينت لكم أنفسكم أمراً غير ما تصفون ، واختلفوا في السبب الذي به عرف كونهم كاذبين على وجوه : الأول : أنه عرف ذلك بسبب أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم . والثاني : أنه كان عالماً بأنه حي لأنه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف (وكذلك يحثيك ربك) وذلك دليل قاطع على أنهم كاذبون في ذلك .

القول الثالث : قال سعيد بن جبير : لما جاؤا على قبيصة بدم كذب ، وما كان متخرقاً ، قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قبيصة . وعن السدي أنه قال : إن يعقوب عليه السلام قال إن هذا الذئب كان رحيماً ، فكيف أكل لحمه ولم يخرق قبيصة ؟ وقيل : إنه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم : بل قتله اللصوص . فقال كيف قتلوه وتركوا قبيصة وهم إلى قبيصة أحوج منه إلى قتله ؟ فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم . ثم قال يعقوب عليه السلام (فصبر جميل) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) منه من قال : إنه مرفوع بالابتداء ، وخبره محذوف ، والتقدير : فصبر جميل أولى من الجزع ، ومنهم من أضمر المبتدأ قال الخليل : الذي أفعله صبر جميل . وقال قطرب : معناه : فصبري صبر جميل . وقال الفراء : فهو صبر جميل .

(المسألة الثانية) كان يعقوب عليه السلام قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقه ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال طول الزمان وكثرة الأحزان : فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أشكوني ؟ فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي . وروى عن عائشة رضي الله عنها في قصة الالفك أنها قالت : والله لئن حلفت لاتصدقوني وإن اعتذرت لاتعذوني ، فثبلي ومثلكم كمثل يعقوب وه . لده (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) فأنزله الله عز وجل في عذرها ما أنزل .

(المسألة الثالثة) عن الحسن أنه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله (فصبر جميل) فقال : «صبر لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر» وبدل عليه من القرآن قوله تعالى (إنما أشكوا بشي وحزني إلى الله) وقال مجاهد : فصبر جميل . أي من غير جزع ، وقال الثوري : من الصبر أن لاتحدث بوجعك ولا بمصيبتك ، ولا تترك نفسك ، وههنا بحث وهو أن الصبر على قضاء الله تعالى واجب فاما الصبر على ظلم الظالمين . ومكر المكرين وغير واجب ، بل الواجب إزالته لاسيما في الضرر "عائد إلى الغير ، وههنا أن اخوة يوسف لما ظهر كذبهم وخيانتهم فلم صبر يعقوب على ذلك ؟ ولم لم يبالغ في التفتيش والبحث سعياً منه في تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة ان كان في الاحياء وفي إقامة القصاص إن صح أنهم قتلوه . فثبت أن الصبر في المقام مذموم .

وما يقوى هذا السؤال أنه عليه الصلاة والسلام كان عالماً بأنه حتى سليم لأنه قال له (وكذلك يحتبك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) والظاهر أنه اتما قال هذا الكلام من الوحي وإذا كان عالماً بأنه حتى سليم فكان من الواجب أن يسعى في طلبه . وأيضاً إن يعقوب عليه السلام كان رجلاً عظيم القدر في نفسه ، وكان من بيت عظيم شريف . وأهل العالم كانوا يعرفونه ويعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ في الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التليس . فما السبب في أنه

عليه السلام مع شدة رغبته في حضور يوسف عليه السلام ، ونهاية حبه له لم يطلبه مع أن طلبه كان من الواجبات ، فثبت أن هذا الصبر في هذا المقام مذموم عقلا وشرعا .

والجواب عنه : أن نقول لاجواب عنه إلا أن يقال إنه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديداً للحنة عليه ، وتقليطاً للأمر عليه ، وأيضاً لعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والتفحص ، وأنه لو بالغ في البحث فربما أقدموا على إيذائه وقته ، وأيضاً لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والحنة وأن أمره سيكظم بالآخرة . ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده ومارضى بالقائم في السنة الناس وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب في العذاب الشديد لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وإن انتقم فانه يحترق قلبه على الولد الذي ينتقم منه . فلما وقع يعقوب عليه السلام في هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتقويض الأمر إلى الله تعالى بالسكينة .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله تعالى (فصبر جميل) يدل على أن الصبر على قسمين : منه ما قد يكون جميلاً وما قد يكون غير جميل ، فالصبر الجميل هو أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى ، ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك ولا اعتراض على المسالك في أن يتصرف في ملك نفسه فيصير استغراق قلبه في هذا المقام مانعاً له من إظهار الشكاية .

﴿والوجه الثاني﴾ أنه يعلم أن منزل هذا البلاء ، حكيم لا يجهل . وعالم لا يغفل ، عليم لا ينسى رحيم لا يظنى ، وإذا كان كذلك ، فكان كل ما صدر عنه حكمة وصواباً ، فعند ذلك يسكت ولا يعترض .

﴿والوجه الثالث﴾ أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق ، فاستغراقه في شهود نور المبلى يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء . ولذلك قيل . المحبة التامة لاتزداد بالوفاة ولا تنقص بالجفاء ، لأنها لو ازدادت بالوفاة لكان المحبوب هو النصيب والحظ . وموصل النصيب لا يكون محبوباً بالذات بل بالعرض ، فهذا هو الصبر الجميل . أما إذا كان الصبر لاجل الرضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الأغراض . فذلك الصبر لا يكون جميلاً . والضابط في جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات أن كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسناً وإلا فلا ، وههنا يظهر صدق ما روى في الأثر «استفت قلبك ، ولو أفتاك المفتون» فليتأمل الرجل تأملاً شافياً . أن الذي أتى به هل الحامل والمباعث عليه طلب العبودية أم لا ؟ فإن أهل العلم لو أفتونا بالشئ مع أنه لا يكون في نفسه كذلك لم يظهر منه نفع البتة . ولما ذكر يعقوب قوله (فصبر جميل) قال (والله المستعان على



وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ وَقَالَ يَابَشْرَى هَذَا غُلَامٌ  
وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ  
مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

ما تصفون) والمعنى: أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوية. والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين، فسلم تحصل إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة، فقوله (فصبر جميل) يجرى مجرى قوله (إياك نعبد) وقوله (والله المستعان على ما تصفون) يجرى مجرى قوله (وإياك نستعين)

قوله تعالى ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾

اعلم أنه تعالى بين كيف سهل السبيل في خلاص يوسف من تلك المحنة، فقال (وجاءت سيارة) يعني رفقة تسير للسفر. قال ابن عباس: جاءت سيارة أى قوم يسرون من مدين إلى مصر فاخطوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن إلا للراعاة، وقيل: كان مأوى ملجأ فعذب حين ألقي فيه يوسف عليه السلام فأرسلوا رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء، والوارد الذي يرد الماء ليستقي القوم (فأدلى دلوه) ونقل الواحدى عن عامة أهل اللغة أنه يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها في البئر ودلاها إذا نزعها من البئر يقال: أدلى يدلى لإدلاء إذا أرسل ودلا يدلو دلواً إذا جذب وأخرج، والدلو معروف، والجمع دلاء (قال يا بشرى هذا غلام) وههنا بخذوف، والتقدير: فظهر يوسف قال المفسرون: لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلق بالجلب فنظر الوارد إليه ورأى حسنه نادى، فقال: يا بشرى. وفيه مسألتان:

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ عاصم وحزمة والكسائي (بشرى) بغير الألف وبسكون الياء، والباقون يابشرى بالالف وفتح الياء على الإضافة.

﴿المسألة الثانية﴾ في قوله (يا بشرى) قولان:

﴿القول الأول﴾ أنها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم: يا عجباً من كذا وقوله (يا أسفاً

على يوسف) وعلى هذا القول فني تفسير النداء وجهان : الأول : قال الزجاج : معنى النداء في هذه الاشياء التي لا تجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة فإذا قلت : يا بعبه ، فكأنك قلت اعجبوا . الثاني : قال أبو علي : كأنه يقول : يا أيها البشرى هذا الوقت وقتك ، ولو كنت ممن يخاطب لخطبت الآن ولأمرت بالحضور .

واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلاماً في غاية الحسن وقالوا : نبيعه بثمان عظيم ويصير ذلك سبباً لحصول الغنى ،

﴿والقول الثاني﴾ وهو الذي ذكره السدي أن الذي نادى صاحبه وكان اسمه ، فقال يا بشرى كما تقول يا زيد . وعن الأعمش أنه قال : دعا امرأة اسمها بشرى (يا بشرى) قال أبو علي الفارسي : إن جعلنا البشرى اسماً للبشارة ، وهو الوجه جاز أن يكون في محل الرفع كما قيل : يا رجل لاختصاصه بالنداء ، وجاز أن يكون في موضع النصب على تقدير : أنه جعل ذلك النداء شائعاً في جنس البشرى . ولم يخص كما تقول : يا رجلاً (ويا حشرة على العباد) وأما قوله تعالى ﴿وأسروه بضاعة﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ الضمير في (وأسروه) إلى من يعود؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه في الجب ، وذلك لأنهم قالوا : إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه . وإن قلنا اشتريناه : سألونا الشركة ، فالأصوب أن نقول : إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر . والثاني : نقل عن ابن عباس أنه قال (وأسروه) يعني : إخوة يوسف أسروا شأنه ، والمعنى : أنهم أخفوا كونه أخاً لهم ، بل قالوا : إنه عبد لنا أبق منا وتابعهم على ذلك يوسف لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية ، والأول أولى لأن قوله (وأسروه بضاعة) يدل على أن المراد أسروه حال ما حكموا بأنه بضاعة ، وذلك إنما يليق بالوارد لا باخوة يوسف .

﴿المسألة الثانية﴾ البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم إذا قطعت . قال الزجاج : وبضاعة منصوبة على الحال كأنه قال : وأسروه حال ما جعلوه بضاعة .

ثم قال تعالى ﴿والله عليم بما يعملون﴾ والمراد منه أن يوسف عليه السلام لما رأى النكوا كب والشمس والقمر في النوم سجدت له وذكر ذلك حسده إخوته عليه واحتالوا في إبطال ذلك الأمر عليه فأوقعوه في البلاء الشديد حتى لا يتيسر له ذلك المقصود ، وأنه تعالى جعل وقوعه في ذلك البلاء سبباً إلى وصوله إلى مصر . ثم تمددت وقائعه وتتابع الأمر إلى أن صار ملك مصر وحصل ذلك الذي رآه في النوم فكان العمل الذي عمله الأعداء في دفعه عن ذلك المطلوب صيره

الله تعالى سبباً لحصول ذلك المطلوب ، فلهذا المعنى قال (والله عليم بما يعملون)

ثم قال تعالى ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ أما قوله (وشروه) ففيه قولان :

﴿القول الأول﴾ المراد من الشراء هو البيع ، وعلى هذا التقدير في ذلك البائع قولان :

﴿القول الأول﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أن إخوة يوسف لما طرحوا يوسف في الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره . فلما لم يروه في الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا : هذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم : فبيعهوه منا فباعوه منهم ، والمراد من قوله (وشروه) أى باعوه يقال : شريت الشيء إذا بعته ، وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع ، لأن الضمير في قوله (وشروه) وفي قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) عائد الى شيء واحد لكن الضمير في قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) عائد الى الاخوة فكذا في قوله (وشروه) يجب أن يكون عائداً الى الاخوة ، وإذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع .

﴿والقول الثانى﴾ أن بائع يوسف هم الذين استخرجوه من البئر ، وقال محمد بن إسحق : ربك أعلم بإخوته باعوه أم السيارة ، وههنا قول آخر وهو أنه يحتمل أن يقال: المراد من الشراء نفس الشراء . والمعنى أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين ، لأنهم علموا بقرائن الحال أن إخوة يوسف كذابون في قولهم إنه عبدنا وربما عرفوا أيضاً أنه ولد يعقوب فكروهوا شراءه خوفاً من الله تعالى ، ومن ظهور تلك الواقعة ، إلا أنهم مع ذلك اشتروه بالآخرة لأنهم اشتروه بثمن قليل . مع أنهم أظهروا من أنفسهم كونهم فيه من الزاهدين ، وغرضهم أن يتوصلوا بذلك إلى تقليل الثمن ، ويحتمل أيضاً أن يقال إن الاخوة لما قالوا : إنه عبدنا أبق صار المشتري عديم الرغبة فيه . قال مجاهد : وكانوا يقولون استوثقوا منه لثلاث يابق .

ثم اعلم أنه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث .

﴿الصفة الأولى﴾ كونه بخساً . قال ابن عباس : يريد حراماً لأن ثمن الحرام . وقال كل بخس في كتاب الله نقصان إلا هذا فإنه حرام ، قال الواحدي سموا الحرام بخساً لأنه ناقص البركة ، وقال قتادة : بخس ظلم والظلم نقصان يقال ظلمه أى نقصه . وقال عكرمة والشعبي قليل وقيل : ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً ، وقيل كانت الدراهم زيوفا ناقصة العيار . قال الواحدي رحمه الله تعالى : وعلى الأقوال كلها ، فالبخس مصدر وضع موضع الاسم ، والمعنى بثمن مخسوس .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله (دراهم معدودة) قيل تعد عدداً ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا إذا بلغ أوقية . وهى الأربعون ويعدون مادونها قليل للقليل معدود ، لأن الكثيرة يمتنع من عددها

أَوْ تَتَخَذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ  
الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَا يَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

لكثرتها ، وعن ابن عباس كانت عشرين درهما ، وعن السدي اثنين وعشرين درهما . قالوا والاخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين إلا يهوذا لم يأخذ شيئا .

الصفة الثالثة ﴿قوله﴾ (وكانوا فيه من الزاهدين) ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا إذا لم يرغب فيه وأصله القلة . يقال : رجل زهيد إذا كان قليل الطمع ، وفيه وجوه : أحدها : أن إخوة يوسف باعوه ، لأنهم كانوا فيه من الزاهدين . والثاني : أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين ، لأنهم التقطوه والمثلث للشيء متهاون به لا يبالي بأى شيء يبيعه . أو لأنهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم . فلا جرم باعوه بأوكس الأثمان . والثالث : أن الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين ، وقد سبق توجيه هذه الأقوال فيما تقدم ، والضمير في قوله (فيه) يحتمل أن يكون عائدا إلى يوسف عليه السلام ، ويحتمل أن يكون عائدا إلى الثمن البخس والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ تَتَخَذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه ثبت في الأخبار أن الذي اشتراه إما من الاخوة أو من الواردين على المساء ذهب به الى مصر وباعه هناك . وقيل إن الذي اشتراه قطفير أو إطفير وهو العزيز الذي كان يلي خزان مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فآمن واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة . وقيل كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعين سنة بدليل قوله تعالى (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، وقيل اشتراه



العزير بعشرين ديناراً ، وقيل أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه ما يساويه في الوزن من المسك والورق والحرير . فابتاعه قطفير بذلك الثمن ، وقالوا : اسم تلك المرأة زليخا ، وقيل راعيل .

واعلم أن شيئاً من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن . ولم يثبت أيضاً في خبر صحيح وثبت كتاب الله تعالى لا يتوقف على شيء من هذه الروايات . فالأليق بالعقل أن يحتز من ذكرها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أكرمى مشواه) أى منزله ومقامه عندك من قولك ثويت بالمكان إذا أقمت به ، ومصدره الثواء والمعنى : اجعلنى منزله عندك كريماً حسناً مرضياً بدليل قوله (إنه رضى أحسن مشواى) وقال المحققون أمر العزيز امرأته بأكرام مشواه دون إكرام نفسه . يدل على أنه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال : سلام الله على المجلس العالى ، ولما أمرها بأكرام مشواه علل ذلك بأن قال (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) أى يقوم باصلاح مهماتنا ، أو نتخذه ولداً ، لأنه كان لا يولد له ولد ، وكان حصوراً .

ثم قال تعالى ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ أى كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بأن عطفنا عليه قلب العزيز ، حتى توصل بذلك الى أن صار متمكناً من الأمر والنهى فى أرض مصر واعلم أن الحكالات الحقيقية ليست إلا القدرة والعلم وأنه سبحانه لما حاول إعلاء شأن يوسف ذكره بهذين الوصفين . أما تكميله فى صفة القدرة والممكنة فاليه الإشارة بقوله (مكنا ليوسف فى الأرض) وأما تكميله فى صفة العلم ، فاليه الإشارة بقوله (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) وقد تقدم تفسير هذه الكلمة .

واعلم أنا ذكرنا أنه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال تعالى (وأوحينا اليه لتنبئهم بأمرهم هذا) وذلك يدل ظاهراً على أنه تعالى أوحى اليه فى ذلك الوقت . وعندنا الارهاص جائز ، فلا يبعد أن يقال : إن ذلك الوحي اليه فى ذلك الوقت ما كان لأجل بعثته الى الخلق . بل لأجل تقوية قلبه وإزالة الحزن عن صدره . ولأجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام ، ثم انه تعالى قال ههنا (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) والمراد منه إرساله الى الخلق بتبليغ التكليف ، ودعوة الخلق الى الدين الحق . ويحتمل أيضاً أن يقال : إن ذلك الوحي الاول كان لأجل الرسالة والنبوة ويحمل قوله (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) على أنه تعالى أوحى اليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم أعلى حالاً مما كان قبله وقال ابن مسعود : أشد الناس فراسة ثلاثة : العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته أكرمى مشواه عسى أن ينفعنا ، والمرأة لما رأت موسى . فقالت (يا أبت استأجره)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «٢٢»

وأبو بكر حين استخلف عمر .

ثم قال تعالى ﴿والله غالب على أمره﴾ وفيه وجهان : الأول . غالب على أمر نفسه لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في أرضه وسماؤه ، والثاني : والله غالب على أمر يوسف ، يعنى أن انتظام أموره كان إلهياً ، وما كان بسعيه وإخوته أرادوا به كل سوء ومكر وه الله أراد به الخير ، فكان كما أراد الله تعالى ودبر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله . واعلم أن من تأمل في أحوال الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن أن الأمر كله لله ، وأن قضاء الله غالب . قوله تعالى ﴿ولما بلغ أشده آتيناها حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين﴾ في الآية مسائل :

«المسألة الأولى» وجه النظم أن يقال : بين تعالى أن إخوته لما أساءوا إليه ، ثم إنه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنته الله تعالى في الأرض ، ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم ، والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزء على صبره على تلك المحن ، ومن الناس من قال : إن النبوة جزء على الأعمال الحسنة ، ومنهم من قال : إن من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة . واحتجوا على صحة قولهم : بأنه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر أنه أعطاه النبوة والرسالة .

ثم قال تعالى ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ وهذا يدل على أن كل من أتى بالطاعات الحسنة التي أتى بها يوسف ، فإن الله يعطيه تلك المناصب ، وهذا بعيد لا تتفق العلماء على أن النبوة غير مكتسبة . واعلم أن من قال : إن يوسف ما كان رسولا ولا نبيا البتة . وإنما كان عبداً أطاع الله تعالى فأحسن الله إليه . وهذا القول باطل بالإجماع . وقال الحسن : إنه كان نبيا من الوقت الذي قال الله تعالى في حقه (وأوحينا إليه لتبينهم بأمرهم هذا) وما كان رسولا ، ثم إنه صار رسولا من هذا الوقت أعنى قوله (ولما بلغ أشده آتيناها حكما وعلما) ومنهم من قال : إنه كان رسولا من الوقت الذي أتى في غيابة الحب .

«المسألة الثانية» قال أبو عبيدة تقول العرب بلغ فلان أشده إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان وهذا اللفظ يستعمل في الواحد والجمع يقال بلغ أشده وبلغوا أشدهم ، وقد ذكرنا تفسير الأشد في سورة الأنعام عند قوله (حتى يبلغ أشده) وأما التفسير فروى ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس ، ولما بلغ أشده قال ثلاثاً وثلاثين سنة : وأقول هذه الرواية شديدة

الانطباق على القوانين الطبية وذلك لأن الأطباء قالوا إن الانسان يحدث في أول الأمر وبداية يوم شيئا فشيئا إلى أن ينتهي إلى غاية الكمال . ثم يأخذ في التراجع والانتقاص إلى أن لا يبق منه شيء ، فكانت حالته شبيهة بحال القمر ، فانه يظهر هلالا ضعيفا ثم لا يزال يزداد إلى أن يصير بدرا تاما ، ثم يتراجع إلى أن ينتهي إلى العدم والمحاق .

إذا عرفت هذا فنقول : مدة دور القمر ثمانية وعشرون يوما وكسرها إذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام ، كان كل قسم منها سبعة أيام . فلاجرم رتبوا أحوال الأبدان على الأسابيع فالانسان إذا ولد كان ضعيف الخلقه نحيف التركيب إلى أن يتم له سبع سنين ، ثم إذا دخل في السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة . ثم لا يزال في الترقى إلى أن يتم له أربع عشرة سنة . فإذا دخل في السنة الخامسة عشرة دخل في الأسبوع الثالث . وهناك يكمل العقل ويبلغ إلى حد التكليف وتحرك فيه الشهوة ، ثم لا يزال يرتقى على هذه الحالة إلى أن يتم السنة الحادية والعشرين ، وهناك يتم الأسبوع الثالث ويدخل في السنة الثانية والعشرين ، وهذا الأسبوع آخر أسابيع النشو والنماء ، فإذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد تمت مدة النشو والنماء ، وينتقل الانسان منه إلى زمان الوقوف وهو الزمان الذي يبلغ الانسان فيه أشده . وبتمام هذا الأسبوع الخامس يحصل للانسان خمسة وثلاثون سنة ، ثم إن هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان : فهذا الأسبوع الخامس الذي هو أسبوع الشدة والكمال يتبدأ من السنة التاسعة والعشرين إلى الثالثة والثلاثين ، وقد يمتد إلى الخامسة والثلاثين ، فهذا هو الطريق المعقول في هذا الباب ، والله أعلم بحقائق الأشياء .

(المسألة الثالثة) في تفسير الحكم والعلم ، وفيه أقوال :

(القول الأول) أن الحكم والحكمة أصلهما حبس النفس عن هواها ، ومنعها عما يشينها . فالمراد من الحكم الحكمة العملية ، والمراد من العلم الحكمة النظرية . وإنما قدم الحكمة العملية هنا على العملية ، لأن أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية . ثم يترقون منها إلى الحكمة النظرية . وأما أصحاب الأفكار العقلية والأفكار الروحية فانهم يصلون إلى الحكمة النظرية أولا ، ثم ينزلون منها إلى الحكمة العملية ، وطريقة يوسف عليه السلام هو الأول . لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات ، فلهذا السبب قال ( آتيناه حكما وعلما )

(القول الثاني) الحكم هو النبوة ، لأن النبي يكون حاكما على الخلق ، والعلم علم الدين .

(والقول الثالث) يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الأمانة بالسوء مستعيلة عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة

وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي يَبَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ  
قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

فاضت الأنوار القدسية والأضواء الالهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول في هذا الباب أن جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف السكلية والأنوار العقلية، إلا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المسكشافات العلوية أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة بالمهايات فمنها ذكية وبليدة . ومنها حرة ونذلة . ومنها شريفة وخسيسة ، ومنها عظيمة الميل إلى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة في الجسمانيات فهذه الأقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للشد والأضعف والأكمل والأقص فإذا اتفق أن كان جوهر النفس الناطقة جوهرأ مشرقا شريفا شديدا لاستعداد لقبول الأضواء العقلية واللوامع الالهية ، فهذه النفس في حال الصغر لا يظهر منها هذه الأحوال . لأن النفس الناطقة إنما تقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات في حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها ، فإذا كبر الانسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن فضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت ، فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لأن تستعملها النفس الانسانية وإذا كانت النفس في أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى أنوارها ويعظم لمعان الأضواء فيها . فقوله (ولما بلغ أشده) إشارة إلى اعتدال الآلات البدنية ، وقوله (آتيناه حكما وعلما) إشارة إلى استكمال النفس في قوتها العملية والنظرية ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ورأودته التي هو في يبيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾

اعلم أن يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن ، فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال : أيضاً إن زوجها كان عاجزاً يقال : رأود فلان جاريته عن نفسها ورأودته هي عن نفسه إذا حاول كل واحد منهما الوط . والجماع (وغلقت الأبواب) والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة لاسيما إذا كان حراماً ، ومع قيام الخوف الشديد وقوله (وغلقت الابواب) أى أغلقتها قال الواحدي : وأصل هذا من قولهم في كل شيء تشبث في شيء فلهزمه قد غلق يقال : غلق في الباطل وغلق في غضبه . ومنه غلق الرهن ، ثم يعدى بالألف فيقال : أغلق الباب إذا جعله بحيث يعسر فتحه . قال المفسرون : وإنما جاء غلقت على التكثير لأنها غلقت سبعة أبواب ، ثم دعت إلى نفسها



ثم قال تعالى ﴿وقالت هيت لك﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدى : هيت لك اسم للفعل نحو : رويدا ، وصه ، ومه . ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة ، وقال الأخفش (هيت لك) مفتوحة الهاء والتاء ، ويجوز أيضاً كسر التاء ورفعهما . قال الواحدى : قال أبو الفضل المنذرى : أفادنى ابن التبريزى عن أبى زيد قال : هيت لك بالعبرانية هياح . أى تعال عربى القرآن ، وقال الفراء : إنها لغة لأهل حوران سقطت الى بكى فتكلموا بها . قال ابن الانبارى : وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم فى «القسطاس» ولغة العرب والفرس فى السجيل ولغة العرب والترك فى «الغساق» ولغة العرب والحبشة فى «ناشئة الليل»

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ نافع وابن عامر فى رواية ابن ذكوان (هيت) بكسر الهاء وفتح التاء ، وقرأ ابن كثير (هيت لك) مثل حيث ، وقرأ هشام بن عمار عن أبى عامر (هيت لك) بكسر الهاء وهمز الباء وضم التاء مثل جمئت من تهيات لك ، والباقون بفتح الهاء وإسكان الباء وفتح التاء ، ثم إنه تعالى قال : إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام . قال يوسف عليه السلام (معاذ الله إنه ربنى أحسن مثواى) فقلوه (معاذ الله) أى أعوذ بالله معاذاً . والضمير فى قوله (إنه) للشأن والحديث (ربى أحسن مثواى) أى ربنى وسيدى ومالكى أحسن مثواى حين قال لك : أكرمى مثواه ، فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الاحسان بهذه الخيانة القبيحة (إنه لا يفلح الظالمون) الذين يجازون الاحسان بالاسادة ، وفيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم أو لأن عملهم يقتضى وضع الشئ فى غير موضعه . وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أن يوسف عليه السلام كان حراً وما كان عبداً لأحد فقلوه (إنه ربنى) يكون كذباً وذلك ذنب وكبيرة .

والجواب : أنه عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبداً له وأيضاً أنه رباه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فعنى بكونه ربا له كونه مربياً له ، وهذا من باب المعارض الحسنة ، فإن أهل الظاهر يحملونه على كونه ربا له وهو كان يعنى به أنه كان مربياً له ومنعماً عليه .

﴿السؤال الثانى﴾ هل يدل قول يوسف عليه السلام (معاذ الله) على صحة مذهبنا فى القضاء والقدر والجواب : أنه يدل عليه دلالة ظاهرة لأن قوله عليه السلام أعوذ بالله معاذاً ، طلب من الله أن يعينه من ذلك العمل ، وتلك الاعاذه ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل والآلة ، وازاحة

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ  
السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

الاعتذار ، وإزالة الموانع وفعل اللطف ، لأن كل ما كان في مقدور الله تعالى من هذا الباب فقد فعله ، فيكون ذلك إما طلباً لتحصيل الحاصل ، أو طلباً لتحصيل الممتنع وأنه محال فعلنا أن تلك الأعادة التي طلبها يوسف من الله تعالى لا معنى لها ، إلا أن يخلق فيه داعية جازمة في جانب الطاعة وأن يزيل عن قلبه داعية المعصية ، وذلك هو المطلوب ، والدليل على أن المراد ما ذكرناه ما نقل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقع بصره على زينب قال «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» وكان المراد منه تقوية داعية الطاعة ، وإزالة داعية المعصية فكذا ههنا ، وكذا قوله عليه السلام «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» فالمراد من الأصبعين داعية الفعل ، وداعية الترك وهاتان الداعيتان لا يصلحان إلا بخلق الله تعالى ، والا لا تقتصر إلى داعية أخرى ولزم التسلسل فثبت أن قول يوسف عليه السلام (معاذ الله) من أدل الدلائل على قولنا والله أعلم .

﴿السؤال الثالث﴾ ذكر يوسف عليه السلام في الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء : أحدها : قوله (معاذ الله) والثاني : قوله تعالى عنه (انه ربى أحسن مشاوى) والثالث : قوله (إنه لا يفلح الظالمون) فما وجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض ؟

والجواب : هذا الترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة أنعامه وألطافه في حق العبد فقوله (معاذ الله) إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل ، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية ، فلبا كان هذا الرجل قد أنعم في حق يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالأساء ، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب ، وهذه اللذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا ، وعذاب شديد في الآخرة ، واللذة القليلة اذا لزمها ضرر شديد ، فالعقل يقتضى تركها والاحتراز عنها فقوله (إنه لا يفلح الظالمون) إشارة إليه . فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب .

قوله تعالى ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾

اعلم أن هذه الآية من المهمات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها وفي هذه الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في أنه عليه السلام هل صدر عنه ذنب أم لا ؟ وفي هذه المسألة قولان : الأول : أن يوسف عليه السلام هم بالفاحشة . قال الواحدى : في كتاب البسيط قال المفسرون : الموثوق بعلمهم المرجوع الى ربه . إيتهم هم يوسف أيضاً بهذه المرأة هما صحيحا وجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه . قال جعفر الصادق رضى الله عنه : باسناده عن على عليه السلام أنه قال : طمعت فيه وطمع فيها فكان طمعه فيها أنه هم أن يحل التكة ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : حل الهيمان وجلس منها مجلس الخائن وعنه أيضا أنها استلقت له وجلس بين رجلها ينزع ثيابه . ثم إن الواحدى طول في كلمات عديدة الفائدة في هذا الباب . وما ذكر آية يحتج بها ولا حديثاً صحيحاً يعول عليه في تصحيح هذه المقالة ، ومأله من النظر في تلك الكلمات العارية عن الفائدة روى أن يوسف عليه السلام لما قال : ذلك ليعلم أنى لم أخته بالغيب قال له جبريل عليه السلام ولا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك (وما أبرىء نفسى) ثم قال والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعراف بحقوق الأنبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا الهم عنه ، فهذا خلاصة كلامه في هذا الباب .

﴿والقول الثانى﴾ أن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل ، والهم المحرم ، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين ، وبه نقول وعنه نذب .

واعلم أن الدلائل الدالة على وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام كثيرة . ولقد استقصيناها في سورة البقرة في قصة آدم عليه السلام فلا نعيد لها إلا أن نزيد ههنا وجوها :

﴿فالحجة الأولى﴾ أن الزنا من منكرات الكبائر والخيانة في معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذنوب ، وأيضاً مقابلة الاحسان العظيم بالاساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضاً من منكرات الذنوب ، وأيضاً الصبي إذا تربى في حجر انسان وبقي مكفى المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكال قوته فاقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الاساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال .

إذا ثبت هذا فنقول : إن هذه المعصية التى نسبوها الى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه ، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ! المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة . ثم إنه تعالى قال في غير هذه الواقعة ( كذلك لتصرف عنه السوء والفحشاء ) وذلك يدل على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه ، ولا شك أن المعصية التى نسبوها اليه أعظم أنواع

وأخش أقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء . وأيضاً فالآية تدل على قولنا من وجه آخر ، وذلك لأننا نقول هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه ، إلا أنه لاشك أنها تقيد المدح العظيم والثناء البالغ ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة . ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم ، فإن مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأخش الأعمال ثم إنه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبهِ ، فإن ذلك يستنكر جداً فكذا ههنا والله أعلم . الثالث : أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة ، أو هفوة استعظموا ذلك وأتبعوها باظهار الندامة والتوبة والتواضع ، ولو كان يوسف عليه السلام أقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها كما في سائر المواضع وحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنه ماصدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولا معصية . الرابع : أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية .

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة . يوسف عليه السلام ، وتلك المرأة وزوجها ، والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب ، وإبليس أقر ببراءته أيضاً عن المعصية ، وإذا كان الأمر كذلك ، فحينئذ لم يبق للمسلم توقف في هذا الباب . أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام (هي راودتني عن نفسي) وقوله عليه السلام (رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه) وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وأيضاً قالت (الآن حصح الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك ، فهو قوله (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك) وأما الشهود . فقوله تعالى (وشهد شاهد من أهلها إن كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات : أولها : قوله (لنصرف عنه السوء) واللام للتأكيد والمبالغة . والثاني : قوله (والفحشاء) أى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . والثالث : قوله (إنه من عبادنا) مع أنه تعالى قال (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) والرابع : قوله (المخلصين) وفيه قرأتان : تارة باسم الفاعل وأخرى باسم



المفعول فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص . ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته ، وعلى كلا الوجهين فانه من أدل الالفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه اليه ، وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته ، فلا أنه قال فبعض تك لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى (إنه من عبادنا المخلصين) فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى ، وعند هذا نقول هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة إن كانوا من اتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من اتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ولعلمهم يقولون كنا في أول الأمر تلامذة لإبليس إلى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه في السفاهة كما قال الحواري :  
وكنتم أمراً من جند إبليس فارتقى بي الدهر حتى صار إبليس من جندي  
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده طرائق فوق ليس يحسنها بعدى  
فتبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام برى عما يقول هؤلاء الجهال .

وإذا عرفت هذا فنقول : الكلام على ظاهر هذه الآية يقع في مقامين :

﴿المقام الأول﴾ أن نقول لانسلم أن يوسف عليه السلام هم بها . والدليل عليه : أنه تعالى قال (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) وجواب (لولا) ههنا مقدم ، وهو كما يقال : قد كنت من الهالكين لولا أن فلانا خلصك ، وطعن الزجاج في هذا الجواب من وجهين : الأول : أن تقديم جواب (لولا) شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح . الثاني : أن (لولا) يحجب جوابها باللام ، فلو كان الأمر على ما ذكرتم لقال : ولقد همت ولحم بها لولا . وذكر غير الزجاج سؤالاً ثالثاً وهو أنه لو لم يوجد الهم لما كان لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) فائدة .

واعلم أن ما ذكره الزجاج بعيد ، لانا نسلم أن تأخير جواب (لولا) حسن جائز ، إلا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب ، وكيف ونقل عن سيدييه أنه قال : إنهم يقدمون الأهم فالأهم ، والذي هم بشأنه أعنى فكان الأمر في جواز التقديم والتأخير مربوطاً بشدة الاهتمام . وأما تعيين بعض الالفاظ بالمنع فذلك مما لا يليق بالحكمة ، وأيضاً ذكر جواب (لولا) باللام جائز . أما هذا لا يدل على أن ذكره بغير اللام لا يجوز ، ثم إننا نذكر آية أخرى تدل على فساد قول الزجاج في هذين السائلين ، وهو قوله تعالى (إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها)

﴿وأما السؤال الثالث﴾ وهو أنه لو لم يوجد الهم لم يبق لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) فائدة .

فتقول : بل فيه أعظم الفوائد ، وهو بيان أن ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته في النساء ، وعدم قدرته عليهن بل لأجل أن دلائل دين الله منته عن ذلك العمل ، ثم نقول : إن الذي يدل على أن جواب (لولا) مذكراً أنه (لولا) تستدعي جواباً ، وهذا المذكور يصلح جواباً له ، فوجب الحكم بكونه جواباً له لا يقال إنا نضم له جواباً ، وترك الجواب كثير في القرآن ، لانا نقول : لانزاع أنه كثير في القرآن ، إلا أن الأصل أن لا يكون محذوفاً . وأيضاً فالجواب إنما يحسن تركه وحذفه إذا حصل في اللفظ ما يدل على تعينه ، وههنا بتقدير أن يكون الجواب محذوفاً فليس في اللفظ ما يدل على تعينه ذلك الجواب ، فان ههنا أنواعاً من الاضمارات يحسن إضمار كل واحد منها ، وليس إضمار بعضها أولى من إضمار الباقي فظهر الفرق . والله أعلم .

**المقام الثاني** في الكلام على هذه الآية أن نقول : سلمنا أن الهم قد حصل إلا أنا نقول : إن قوله (وهم بها) لا يمكن حمله على ظاهره لأن تعليق الهم بذات المرأة محال لأن الهم من جنس القصد والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية . ثبت أنه لا بد من إضمار فعل مخصوص يحمل متعلق ذلك الهم وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن ذلك المضمر هو إيقاع الفاحشة بها ونحن نضم شيئاً آخر يغير ما ذكره وبيانه من وجوه : الأول : المراد أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لأن الهم هو القصد ، فوجب أن يحمل في حق كل أحد على القصد الذي يليق به ، فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة والتنعيم والالتصاف بالرسول المبعوث إلى الخلق القصد إلى زجر العاصي عن معصيته وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . يقال : هممت بفلان أي بضربه ودفعه فان قالوا : فعلى هذا التقدير لا يليق لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) فائدة .

قلنا : بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين : الأول : أنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها لقتله أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله . فأعلمه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صونا للنفس عن الهلاك ، والثاني : أنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فرمى بغيرها فتلقت به ، فكان يتمزق ثوبه من قدام ، وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن ، ولو كان ثوبه تمزقاً من خلف لكانت المرأة هي الخائنة ، فالله تعالى أعلم بهذا المعنى . فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هارباً عنها ، حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية .

**(الوجه الثاني)** في الجواب أن يفسر الهم بالشهوة ، وهذا مستعمل في اللغة الشائعة . يقول القائل : فيما لا يشتهي ما يعني هذا . وفيما يشتهي هذا أهم الأشياء إلى ، فسمى الله تعالى شهوة يوسف

عليه السلام إلهما، فعنى الآية: ولقد اشتته واشتهاها لولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل في الوجود. الثالث: أن يفسر الهم بتحديث النفس، وذلك لأن المرأة لفائقة في الحسن والجمال إذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوى فلا بد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات، فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة. فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية، ومثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم في الصيف الصائت، إذا رأى الجلاب المبرد بالثلج فإن طبيعته تحمله على شربه، إلا أن دينه وهداه يمنعه منه، فهذا لا يدل على حصول الذنب، بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة في القيام بلوازم العبودية أكمل، فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذي ذهبا إليه ولم يبق في يد الواحدى إلا مجرد التصلف وتعدد أسماء المفسرين، ولو كان قد ذكر في تقرير ذلك القول شبهة لأجبت عنها، إلا أنه مازاد على الرواية عن بعض المفسرين.

واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما كذب إبراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات» فقلت الأولى أن لا تقبل مثل هذه الأخبار فيقال على طريق الاستدكار فان لم تقبله لزمنا تكذيب الرواة فقلت له: يامسكين ان قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم عليه السلام وان ارددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة ولاشك أن صون إبراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب.

إذا عرفت هذا الأصل فنقول للواحدى: ومن الذى يضمن لنا أن الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا صادقين أم كاذبين. والله أعلم.

«المسألة الثانية» في أن المراد بذلك البرهان ما هو أما المحققون المتيقنون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه: الأول: أنه حجة الله تعالى في تحريم الزنا. والعلم بما على الزانى من العقاب والثاني: أن الله تعالى طهر نفوس الانبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة. بل نقول: انه تعالى طهر نفوس المتصلين به عنها كما قال (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الأخلاق وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الأقدام على المنكرات. والثالث: أنه رأى مكتوباً في سقف البيت (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) والرابع: أنه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش. والدليل عليه أن الانبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح، فلو أنهم منعوا الناس عنها، ثم أقدموا على أفجائهم وأفعالهم وأفسادهم لدخلوا تحت قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)

وأيضاً أن الله تعالى عير اليهود بقوله (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وما يكون عيباً في حق اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيد بالمعجزات .

وأما الذين نسبوا المعصية إلى يوسف عليه السلام فقد ذكروا في تفسير ذلك البرهان أموراً :  
 الأول : قالوا إن المرأة قامت إلى صم مكل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف لم فعلت ذلك ؟ قالت أستحي من إلهي هذا أن يرأى علي معصية . فقال يوسف أتستحين من صم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت فوالله لا أفعل ذلك أبداً قالوا : فهذا هو البرهان . الثاني : نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمثل له يعقوب فرآه عاصياً على أصابعه ويقول له : أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب في زمرة الأنبياء فاستحي منه . قال وهو قول عكرمة . ومجاهد . والحسن . وسعيد بن جبير . وقتادة . والضحاك . ومقاتل . وابن سيرين قال سعيد بن جبير : تمثل له يعقوب فضرب في صدره فخرجت شهوته من أنامله . والثالث : قالوا إنه سمع في الهواء قائلاً يقول يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فاذا زنا ذهب ريشه . والرابع : نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لم ينزح برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شيء من الشهوة إلا خرج ، ولما نقل الواحدى هذه الروايات تصلف وقال : هذا الذي ذكرناه قول أئمة التفسير الذين أخذوا التأويل عن شاهد التنزيل فيقال له : انك لا تأتينا البتة إلا بهذه التصلفات التي لا فائدة فيها فأين هذا من الحجّة والدليل ، وأيضاً فإن ترادف الدلائل على الشيء الواحد جائز ، وأنه عليه الصلاة والسلام كان متمتعاً عن الزنا بحسب الدلائل الأصلية ، فلما انضاف إليها هذه الزواجر قوى الانزجار وكمل الاحتراز والعجب أنهم نقلوا أن جبرئيل دخل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم وبقي هناك بغير عمله قالوا : فامتنع جبرئيل عليه السلام من الدخول عليه أربعين يوماً ، وههنا زعموا أن يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب إليه جبرئيل عليه السلام ، والعجب أنهم زعموا أنه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبرئيل عليه السلام . ولو أن أفسق الخلق وأكفرهم كان مشتغلاً بفاحشة فإذا دخل عليه رجل على زى الصالحين استحيما منه وفر وترك ذلك العمل ، وههنا رأى يعقوب عليه السلام عض على أنامله فلم يلتفت إليه ، ثم إن جبرئيل عليه السلام على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع أيضاً عن ذلك القبيح بسبب حضوره حتى احتاج جبرئيل عليه السلام إلى أن يركضه على ظهره ففسأل الله أن يصوننا عن الفى في الدين . والخذلان في طلب اليقين فهذا هو الكلام المخلص في هذه المسألة والله أعلم .  
 (المسألة الثالثة) في الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجود : الأول : أن السوء جناية اليد



وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ  
 مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٢٥» قَالَ هِيَ  
 رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ  
 وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ «٢٦» وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ  
 الصَّادِقِينَ «٢٧» فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكِنَّ إِنْ كَيْدُكَ  
 عَظِيمٌ «٢٨» يَوْسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفَرَ لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ  
 مِنَ الْخَاطِئِينَ «٢٩»

والفحشاء هو الزنا . الثاني : السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة . والفحشاء هو الزنا .  
 أما قوله (إنه من عبادنا المخلصين) أى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ومن فتح اللام أراد الذين  
 خلصهم الله من الأسواء ، ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام الذين قال الله  
 فيهم (إنا أخلصناهم بخالصة)

(المسألة الرابعة) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (المخلصين) بكسر اللام في جميع القرآن  
 والباقون بفتح اللام .

قوله تعالى «واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من  
 أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان  
 قميصه قد من دبر فكذبت وهى من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدك إن كيدك  
 عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفر لي ذنبك إنك كنت من الخاطئين»

اعلم أنه تعالى لما حكى عنها أنها (همت) أتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال (واستبقا الباب) والمراد  
 أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه إلى نفسها ، والاستباق طلب  
 سبق إلى الشيء ، ومعناه تبادر إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فان سبق يوسف فتح

الباب وخرج ، وإن سبقت المرأة أمسكت الباب لئلا يخرج ، وقوله (واستبقا الباب) أى استبقا إلى الباب كقوله (واختار موسى قومه سبعين رجلاً) أى من قومه .

واعلم أن يوسف عليه السلام سبقها إلى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل إلا إلى دبر القميص فقدته ، أى قطعه طويلاً ، وفى ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله (والفيا سيدها لدى الباب) أى صادفها بعلها تقول المرأة لبعليها سيدى ، وإنما لم يقل سيدهما لأن يوسف عليه السلام ما كان ملوكاً لذلك الرجل فى الحقيقة ، فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت إلى أن رمت يوسف بالفعل القبيح . وقالت : ماجزأ من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، والمعنى ظاهر . وفى الآية لطائف : إحداها : أن «ما» يحتمل أن تكون نافية ، أى ليس جزأؤه إلا السجن ، ويجوز أيضاً أن تكون استفهامية يعنى أى شئ جزأؤه إلا أن يسجن كما تقول : من فى الدار إلا زيد . وثانيها : أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين فى هذا الموضع وذلك لأنها بدأت بذكر السجن . وأخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يسعى فى إبلام المحبوب ، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين ، بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء والالام ، وأيضاً قالت (إلا أن يسجن) والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف .

فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة ، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام فى قوله (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) وثالثها : أنها لما شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها أنه كان فى عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة ، عظم اعتقادها فى طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول إن يوسف عليه السلام قصدنى بالسوء ، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض ، فانظر إلى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب وأن هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح . ورابعها : أن يوسف عليه السلام أراد يضربها ويدفعها عن نفسه ، وكان ذلك بالنسبة إليها جارياً مجرى السوء فقولها : ماجزأ من أراد بأهلك سوءاً ، جارياً مجرى التعريض فلعلها بقلها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها . وفى ظاهر الأمر كانت توهم أنه قصدنى بما لا ينبغى .

واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف إلى إزالة هذه التهمة فقال : هى راودتنى عن نفسى ، وأن يوسف عليه السلام ما هتك سترها فى أول الأمر إلا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الأمر .

واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو صادق : فالأول : أن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر كان عبداً لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد والثاني : أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدواً شديداً ليخرج والرجل "طالب للبراءة لا يخرج من الدار على هذا الوجه ، والثالث : أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه . وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان إلقاء هذه الفتنة بالمرأة أولى ، الرابع : أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر ، وذلك أيضاً مما يقوى الظن ، الخامس : أن المرأة مانسته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاماً مجحلاً مبهماً . وأما يوسف عليه السلام فإنه صرح بالأمرو لو أنه كان متهماً لما قدر على التصريح باللفظ الصريح قال الحافظ خاتمة : السادس : قيل : إن زوج المرأة كان عاجزاً وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة فالخلاق هذه الفتنة بها أولى ، فلما حصلت هذه الأمارات الكثيرة الدالة على أن عبداً هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعله بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة ، ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلاً آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه بريء عن الذنب وأن المرأة هي المذنبه ، وهو قوله (وشهد شاهد من أهلها) وفي هذا الشاهد ثلاثة أقوال : الأول : أنه كان لها ابن عم وكان رجلاً حكيماً . واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجليلة من وراء الباب وشق القميص إلا أنا لا ندري أيكما قدام صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب . وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة فلما نظروا إلى القميص ورأوا الشق من خلفه ، قال ابن عمها (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) أي من عملكن . ثم قال ليوسف أعرض عن هذا واكتمه ، وقال لها استغفري لذنبك ، وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين . والثاني : وهو أيضاً منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك : أن ذلك الشاهد كان صبياً أنظفه الله تعالى في المهد ، فقال ابن عباس : تكلم في المهد أربعة صغار شاهد يوسف ، وابن ماشطة بنت فرعون ، وعيسى بن مريم ، وصاحب جريج الراهب الراهب قال الجبائي : والقول الأول أولى لوجوه : الأول : أنه تعالى لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرد قوله إنها كاذبة كافياً وبرهاناً قاطعاً ، لأنه من البراهين القاطعة القاهرة ، والاستدلال بشعيق القميص من قبل ومن دبر دليل ظني ضعيف والعدول عن الحجة القاطعة حال حضورها وحصولها إلى الدلالة الظنية لا يجوز . الثاني : أنه تعالى قال (وشهد شاهد من أهلها) وإنما قال من أهلها

ليكون أولى بالقبول في حق المرأة لأن الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والاضرار ، فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها تقوية قول ذلك الرجل وهذه التريجات إنما يصار إليها عند كون الدلالة ظنية ، ولو كان هذا القول صادرا عن الصبي الذي في المهد لكان قوله حجة قاطعة . ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها ، وبين أن لا يكون من أهلها ، وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر . والثالث : أن لفظ الشاهد لا يقع في العرف الا على من تقدمت له معرفة بالواقعة وأحاطة بها .

﴿والقول الثالث﴾ أن ذلك الشاهد هو القميص ، قال مجاهد : الشاهد كون قميصه مشقوقا من دبر ، وهذا في غاية الضعف لأن القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب إلى الأهل . واعلم أن القول الأول عليه أيضا إشكال وذلك لأن العلامة المذكورة لا تدل قطعا على براءة يوسف عليه السلام عن المعصية لأن من المحتمل أن الرجل قصد المرأة لطلب الزنا فالمرأة غضبت عليه فهرب الرجل فعدت المرأة خلف الرجل وجذبت له قصد أن تضربه ضربا وجيعا فعلى هذا الوجه يكون القميص متخرقا من دبر مع أن المرأة تكون بريئة عن الذنب والرجل يكون مذنباً .

وجوابه : أنا بينا أن علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا إليها هذه العلامة الأخرى لا لأجل أن يعولوا في الحكم عليها ، بل لأجل أن يكون ذلك جارا بما جرى المقويات والمرجحات ثم إنه تعالى أخبر وقال : (فلا رأى قميصه) وذلك يحتمل السيد الذي هو زوجها ويحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه ، قال (إنه من كيدكن) أي إن قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءا من كيدكن إن كيدكن عظيم .

فان قيل : إنه تعالى لما خلق الانسان ضعيفا فكيف وصف كيد المرأة بالعظم ، وأيضا فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء .

والجواب عن الأول : أن خلقة الانسان بالنسبة الى خلقة الملائكة والسموات والكلواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوات بالنسبة إلى كيد البشر عظيم ولا منافاة بين القولين وأيضا فالنساء هن في هذا الباب من المكر والحيل مالا يكون للرجال ولأن كيدهن في هذا الباب يورث من العار مالا يورثه كيد الرجال .

واعلم أنه لما ظهر للقوم براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه أنه قال (يوسف أعرض عن هذا) فقليل : إن هدامن قول العزيز ، وقيل : إنه من قول الشاهد . ومعناه : أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها ، وكما أمر يوسف بكتن هذه الواقعة أمر المرأة بالاستغفار فقال (واستغفري لذنبك) وظاهر ذلك طلب المغفرة ،



وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا  
إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ  
لَهُنَّ مَتَكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ  
أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ  
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

ويحتمل أن يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة العفو والصفح ، وعلى هذا التقدير فالأقرب  
أن قائل هذا القول هو الشاهد ، ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله ، لأن أولئك الأقوام  
كانوا يشتون الصانع ، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعبدون الأوثان بدليل أن يوسف عليه السلام قال  
(أرأب منفرقون خير أم الله الواحد للقهار) وعلى هذا التقدير : فيجوز أن يكون القائل هو الزوج .  
وقول : (إنك كنت من الخاطئين) نسبة لها إلى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم ، وهذا أحد ما يدل  
على أن الزوج عرف في أول الأمر أن الذنب للمرأة لا ليوسف ، لأنه كان يعرف منها إقدامها على  
مالا ينبغي . وقال أبو بكر الأصم : إن ذلك لزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار . قال  
صاحب الكشف : وإنما قال من الخاطئين بلفظ التذكير ، تعليلاً للذكور على الإناث ، ويحتمل أن  
يقال : المراد إنك من نسل الخاطئين ، فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك . والله أعلم .  
قوله تعالى ﴿وقال نسوة في المدينة امراة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا  
لنراها في ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن  
سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا  
إلا ملك كريم﴾  
وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ لم لم يقل (وقالت نسوة) قلنا لوجهين : الأول : أن النسوة اسم مفرد لجمع  
المرأة وتأتيه غير حقيقي فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث ، الثاني : قال الواحدى تقديم الفعل يدعو  
إلى إسقاط علامة التأنيث على قياس إسقاط علامة التثنية والجمع .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الكلبي : هن أربع ، امرأة ساقى العزيز . وامرأة خبازه . وامرأة صاحب بجنه . وامرأة صاحب دوابه ، وزاد مقاتل وامرأة الحاجب . والاشبه أن تلك الواقعة شاعت في البلد واشتهرت وتحدث بها النساء . وامرأة العزيز هي هذه المرأة المعلومه (تراود فتاها عن نفسه) الفقى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة (قدشغفها حباً) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ أن الشغاف فيه وجوه : الأول : أن الشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف "قلب يقال شغفت فلاناً إذا أصبت شغافه كما تقول كبدة أى أصبت كبده فقوله (شغفها حباً) أى دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب . والثانى : أن حبه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب ، ومعنى إحاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجاباً بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها إلا إياه . والثالث : قال الزجاج : الشغاف حبة القلب وسويداء القلب . والمعنى : أنه وصل حبه الى سويداء قلبها ، وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ جماعة من الصحابة والتابعين (شعفها) بالعين . قال ابن السكيت : يقال شعفه الهوى اذا بلغ الى حد الاحتراق ، وشعف الهناء البعير اذا بلغ منه الألم الى حد لا احتراق ، وكشف أبو عبيدة عن هذا المعنى فقال : الشعف بالعين إحراق الحب القلب مع لذة يجدها ، كما أن البعير اذا هنىء بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح اليه . وقال ابن الأنبارى : الشعف رؤس الجبال ، ومعنى شعف بفلان اذا ارتفع حبه الى أعلى المواضع من قلبه .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (حبها) نصب على التمييز ،

ثم قال ﴿إننا لنراها فى ضلال مبين﴾ أى فى ضلال عن طريق الرشd بسبب حبها إياه كقوله (إن أبانا لى فى ضلال مبين)

ثم قال تعالى ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً﴾ وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ المراد من قوله (فلما سمعت بمكرهن) أنها سمعت قولهن وانما سمى قولهن مكرأ لوجوه : الأول : أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه . لأنهن عرفن أنهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عندها عندهن . الثانى : أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر ، فلما أظهرن السر كان ذلك عذراً ومكراً . الثالث : أنهن وقعن فى غيبتها ، والغية إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر .

﴿المسألة الثانية﴾ أنها لما سمعت أنهن يلبنها على تلك المحبة المفرطة أرادت إبداء عدره فاختذ مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعدت لهن «متكا» وفي نسخة وجود : الأول : المتكا : الفرك الذي يتكا عليه . الثاني أن المتكا هو الطعام . قال العتبي والأصل فيه أن من دعونه ليطعمه عندك فقد أعددت له وسادة تسمى الطعام متكا على الاستعارة . والثالث : متكاً : أترجا . وغو قول وهب وأنكر أبو عبيد ذلك ولكنه يحول على أنها وضعت عندهن أنواع الفاكة في ذلك المجلس . والرابع : متكاً طعاماً يحتاج إلى أن يقطع بالسكين . لأن الطعام متى كان كذلك احتاج الانسان إلى أن يتكا عليه عند القطع . ثم يقول : حاصل ذلك أنها دعت أولئك النسوة وأعدت لكل واحدة منهن مجلساً معيناً وآتت كل واحدة منهن سكيناً أى لأجل أكل الفاكة أو لأجل قطع اللحم ثم إنها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج إليهن ويعبر عليهن وأنه عليه السلام ما قدر على مخالها خوفاً منها (فلما رأيته أكبره وقطعن أيديهن) وههنا مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في (أ أكبره) قولان : الأول : أعظمته . والثاني (أ أكبرن) بمعنى حضن . قال الأزهرى والهاء للسكت يقال أ كبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته دخلت في الكبر لأنها بالحض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر وفيه وجه آخر . وهو أن المرأة إذا خافت وفزعت فربما أسقطت ولدها فخاضت . فإن صح تفسير الأ كبار بالحض فالسبب فيها ذكرناه وقوله (فقطعن أيديهن) كناية عن دهشتين وحيرتين ، والسبب في حسن هذه الكناية أنها لما دهشت فكانت تظن أنها تقطع الفاكة وكانت تقطع يد نفسها ، أو يقال : إنها لما دهشت صارت تبحث لتمييز نصابها من حديدتها وكانت تأخذ الجانب الحاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة في كفها .

﴿المسألة الثالثة﴾ اتفق الاكثرون على أنهن إنما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل قيل : كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج في الى السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا ؟ فقال هذا يوسف فقيل يارسول الله كيف رأيته ؟ قال : كالقمر ليلة البدر» وقيل : كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلالؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها ، وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه ، وهذا القول هو الذي اتفقوا عليه ، وعندى أنه يحتمل وجهاً آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيا الرسالة . وآثار الخضوع والاحتشام ، وشاهدن منه مهابة النبوة ، وهيئة الملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح ، وعدم الاعتداد بهن ، وكان الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيئة والهيئة فتعجبن من تلك

الحالة فلا جرم أكبره وعظمه ، ووقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن ، وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى .

فان قيل : فإذا كان الأمر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها (فذلكن الذى لمتنى فيه) وكيف تصير هذه الحالة عذراً لها في قوة العشق وافراط المحبة ؟

قلنا : قد تقرر أن الممنوع متبوع فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول اليه فلهاذا الباب وقعت في المحبة ، والحسرة ، والأرق والقلق ، وهذا الوجه في تأويل الآية أحسن والله أعلم .  
(المسألة الثالثة) قرأ أبو عمرو (وقان حاشا لله) بآثبات الألف بعد الشين وهى رواية الاصمعي عن نافع وهى الأصل لأنها من المحاشاة وهى التنحية والتبديد ، والباقون بحذف الألف للتخفيف وكثرة دورها على الألسن اتباعاً للصحيف «وحاشا» كلمة يفيد معنى التنزيه ، والمعنى ههنا تنزيه الله تعالى من المعجز حيث قدر على خلق جميل مثله . وأما قوله (حاش لله ما علمنا عليه من سوء) فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله .

(المسألة الرابعة) قوله (ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) فيه وجهان :

(الوجه الأول) وهو المشهور أن المقصود منه اثبات الحسن العظيم له قالوا : لأنه تعالى ركز في الطباع أن لا يحى أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا يحى أقبح من الشيطان ، ولذلك قال تعالى في صفة جهنم (طلعها كأنه رؤس الشياطين) وذلك لما ذكرنا أنه تقرر في الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر في الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك ، فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن لاجرم شبهته بالملك .

(والوجه الثانى) وهو الأقرب عندى أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة ، وجواذب الغضب ، ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله تعالى وشرابهم الثناء على الله تعالى ، ثم إن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم ياتفن اليهن البتة ورأين عليه هيمية النبوة وهيمية الرسالة ، وسما الطهارة قلن انا مارأينا فيه أثراً من أثر الشهوة ، ولا شيئاً من البشرية ، ولا صفة من الانسانية ، فهذا قد تظهر عن جميع الصفات المغروزة في البشر ، وقد ترقى عن حد الانسانية ودخل في الملكية .

فان قالوا : فان كان المراد ما ذكرتم فكيف يتمهد عذر تلك المرأة عند النسوة ؟ فالجواب قد سبق . والله أعلم .



قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿المسألة الخامسة﴾ القائلون بأن الملك أفضل من البشر . احتجوا بهذه الآية فقالوا : لاشك أنهم إنما ذكرت هذا الكلام فى معرض تعظيم يوسف عليه السلام . فوجب أن يكون إخراجهم من البشرية وإدخاله فى الملكية سبباً لتعظيم شأنه وإعلاء مرتبته ، وإنما يكون الأمر كذلك لو كان الملك أعلى حالا من البشر . ثم نقول : لا يخلو إما أن يكون المقصود بيان كمال حاله فى الحسن الذى هو الخلق الظاهر ، أو كمال حاله فى الحسن الذى هو الخلق الباطن ، والاول باطل لوجهين : الاول : أنهم وصفوه بكونه كريماً ، وإنما يكون كريماً بسبب الأخلاق الباطنة لا بسبب الخلقة الظاهرة ، والثانى : أنا نعلم بالضرورة أن وجه الانسان لا يشبه وجوه الملائكة البتة . أما كونه بعيداً عن الشهوة والغضب معرضاً عن الذات الجسدية متوجهاً الى عبودية الله تعالى مستغرق القلب ، والروح فيه فهو أمر مشترك فيه بين الانسان الكامل وبين الملائكة .

وإذا ثبت هذا فنقول : تشبيه الانسان بالملك فى الأمر الذى حصلت المشابهة فيه على سبيل الحقيقة أولى من تشبيهه بالملك فيما لم تحصل المشابهة فيه البتة ، فثبت أن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك فى هذه الآية . انما وقع فى الخلق الباطن ، لا فى الصورة الظاهرة ، وثبت أنه متى كان الأمر كذلك وجب أن يكون الملك أعلى حالا من الانسان فى هذه الفضائل ، فثبت أن الملك أفضل من البشر والله أعلم .

﴿المسألة السادسة﴾ لغة أهل الحجاز اعمال «ما» عمل ليس وبها ورد قوله (ما هذا بشراً) ومنها قوله (ما هن أمهاتهم) ومن قرأ على لغة بنى تميم . قرأ (ما هذا بشراً) وهى قراءة ابن مسعود وقرئ (ما هذا بشراً) أى ما هو بعبد يملك للبشر (إن هذا إلا ملك كريم) ثم نقول : ما هذا بشراً ، أى حاصل بشراً بمعنى هذا مشترى ، ونقول : هذا لك بشراً أم بكراً . والقراءة المعتبرة هى الاولى لموافقها المصحف ، وللمقابلة البشر للملك .

قوله تعالى ﴿قالت فذلكن الذى لمتنى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن ولیکونا من الصاغرین﴾

اعلم أن النسوة لما قلن فى امرأة العزيز قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين . عظم ذلك

قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ «٢٣» فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٢٤»

عليها فجمعتهن (فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن) فعند ذلك ذكرت أنهن باللوم أحق لأنهن بنظرة واحدة لحقن أعظم مما نالها مع أنه طال مكثه عندها .

فان قيل : فلم قالت (فذلكن) مع أن يوسف عليه السلام كان حاضرا ؟

والجواب عنه من وجوه : الأول : قال ابن الأنباري : أشارت بصيغة ذلكن إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس . والثاني : وهو الذي ذكره صاحب الكشف وهو أحسن ما قيل : إن النسوة كن يقنن إتهاعشقت عندها الكنعاني ، فلما رأيته ووقعن في تلك الدهشة قالت : هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتني فيه يعني : أنكرن . لم تتصورنه حق تصوره ولو حصلت في خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة .

واعلم أنها لما أظهرت عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)

واعلم أن هذا تصريح بأنه عليه السلام كان بريئا عن تلك التهمة ، وعن السدي أنه قال (فاستعصم) بعد حل السراويل . وما الذي يحمله على إلحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب .

ثم قال (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) والمراد أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار . ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام ، وقوله (وليكونا) كان حمزة والكسائي يقفان على (وليكونا) بالالف . وكذلك قوله (لنسفعا) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

واعلم أن المرأة لما قالت (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر أنهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك في مخالفة أمرها

وإلا وقعت في السجن وفي الصغار . فعند ذلك اجتمع في حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة : أحدها : أن زليخا كانت في غاية الحسن . والثاني : أنها كانت ذات مال وثروة . وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطالبتها . والثالث : أن امرأة أخرى عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ، ومكر النساء في هذا "باب شديد" . والرابع : أنه عليه السلام كان خائفا من شرها وإقدامها على قتله وإهلاكه فاجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها . فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه .

واعلم أن القوة البشرية والطاقة الانسانية لا تنفي بمحصول هذه العصمة القوية . فعند هذا التجأ الى الله تعالى وقال (رب السجن أحب إلى مما يدعونني اليه) وقرئ (السجن) بالفتح على المصدر وفيه سؤالان :

(السؤال الأول) السجن في غاية المكروهية . ومادعونه اليه في غاية المطاوية ، فكيف قال : المشقة أحب الى من اللذة :

والجواب : أن تلك اللذة كانت تستعقب آلاما عظيمة . وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة ، وذلك المكروه وهو اختيار السجن . كان يستعقب سعادات عظيمة ، وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة ، فلهاذا السبب قال (السجن أحب إلى مما يدعونني إليه)

(السؤال الثاني) أن حبسهم له معصية كما أن الزنا معصية ، فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية .

والجواب : تقدير الكلام أنه إذا كان لابد من التزام أحد الأمرين أعنى الزنا والسجن ، فهذا أولى ، لأنه متى وجب التزام أحد شيئين كل واحد منهما شرفاً خفهما أو لاهما بالتحمل .

ثم قال (والا تصرف عنى كيدهم) أصب إليهن وأكن من الجاهلين (أصب إليهن أمل إليهن يقال : صب إلى اللهو يصبو صبوا إذا مال . واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الانسان لا ينصرف عن المعصية إلا إذا صرفه الله تعالى عنها قالوا : لأن هذه الآية تدل على أنه تعالى إن لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه وتقديره : أن القدرة والداعي إلى الفعل والترك إن استويا امتنع الفعل . لأن الفعل رجحان لأحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولها حال استواء الطرفين جمع بين التقيضين وهو محال ، وإن حصل الرجحان في أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد . وإلا لذهبت المراتب إلى غير النهاية . بل هو من الله تعالى فالصرف عبارة عن جعله مرجوحاً لأنه متى

﴿ثُمَّ بَدَأْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَ جَنَّتُهُ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ﴾ (٣٥) ودخل معه  
السَّجَنَ فَيَتَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ  
فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثًا بَتَّوِيلُهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)

صار مرجوحا صار ممتنع الوقوع لأن الوقوع رجحان ، فلو وقع حال المرجوحية لحصل الرجحان  
حال حصول المرجوحية ، وهو يقتضى حصول الجمع بين التقيضين وهو محال ، فثبت بهذا أن  
انصراف العبد عن القبيح ليس لإلهن الله تعالى . ويمكن تقرير هذا الكلام من وجه آخر ، وهو  
أنه كان قد حصل في حق يوسف عليه السلام جميع الأسباب المرغبة في تلك المعصية . وهو الانتفاع  
بالمال والجاه والتعق بالمنسكوح والمطعوم وحصل في الأعراض عنها جميع الأسباب المنفرة . ومتى  
كان الأمر كذلك ، فقد قويت الدواعي في الفعل وضعفت الدواعي في الترك ، فطلب من الله سبحانه  
وتعالى أن يحدث في قلبه أنواعا من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية . إذ لو لم يحصل هذا  
المعارض لحصل المرجح للوقوع في المعصية خاليا عما يعارضه ، وذلك يوجب وقوع الفعل وهو  
المراد بقوله (أصعب إليهن وأكن من الجاهلين)

قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَدَأْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَ جَنَّتُهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ودخل معه السجين فتيان قال  
أحدهما إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثًا  
بَتَّوِيلُهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿

وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن زوج المرأة لما ظهر له براءة ساحة يوسف عليه السلام فلا جرم  
لم يتعرض له ، فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى تحمل يوسف عليه السلام على موافقتها على  
مرادها ، فلم يلتفت يوسف إليها ، فلما أيسست منه احتالت في طريق آخر وقالت لزوجها : إن هذا  
العبد العبراني فضحني في الناس يقول لهم : إنى راودته عن نفسه ، وأنا لأقدر على إظهار عذرى ، فاما  
أن تأذن لى فأخرج واعتذر وإما أن تحبسه كما حبستى ، فعند ذلك وقع في قلب العزيز أن الأصلح  
حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة ، فهذا هو المراد من قوله  
(ثُمَّ بَدَأْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَ جَنَّتُهُ حَتَّىٰ حِينٍ) لأن البدء عبارة عن تغير الرأى عما كان عليه



في الأول، والمراد من الآيات برأيه بقدر انقيص من دبر، ونشأ الوجه، وإلزام الحكم لها قبل (إنه من كيدك إن كيدك عظيم) وذكرنا أنه ظهرت هناك أنواع أخر من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعيًا في إخفاء الفضيحة.

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (بدلهم) فعل وفاعله في هذا الموضع قوله (ليسجنه) وظاهر هذا الكلام يقتضى إسناد الفعل إلى فعل آخر، إلا أن التحويين اتفقوا على أن إسناد الفعل إلى فعل لا يجوز. فإذا قلت خرج ضرب لم يقبل، فمقد البتة، فمقد هذا قالوا: تقدير الكلام ثم بدلهم سجنه، إلا أنه أقيم هذا الفعل مقام ذلك الاسم، وأقول: الذوق يشهد بأن جعل الفعل مخبر عنه لا يجوز وليس لأحد أن يقول الفعل خبراً فجعل الخبر مخبراً عنه لا يجوز، لأننا نقول: الاسم قد يكون خبراً كقولك: زيد قائم فقائم اسم وخبر فعلنا أن كونه الشيء، خبراً لا ينافي كونه مخبراً عنه، بل نقول في هذا المقام: شكوك أحدهما: أنا إذا قلنا: ضرب فعل فالخبر عنه بأنه فعل هو ضرب، فالفعل صار مخبراً عنه.

فإن قالوا: المخبر عنه هو هذه الصيغة وهي اسم فتقول: فعلى هذا التقدير يلزم أن يكون المخبر عنه بأنه فعل اسم لأفعل وذلك كذب وإدخال، بل نقول المخبر عنه بأنه فعل إن كان فعلاً فقد ثبت أن الفعل يصح الإخبار عنه وإن كان اسماً كان معناد: أنا أخبرنا عن الاسم بأنه فعل ومعلوم أنه باطل. وفي هذا الباب مباحث عميقة ذكرناها في كتب المعتولات.

﴿المسألة الثالثة﴾ قال أهل اللغة: المئين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه، وعلى الطويل، وقال ابن عباس: يريد إلى انقطاع المقالة. وما نابع في المدينة من الفاحشة، ثم قيل: الحين ههنا خمس. نين، وقيل: بل سبع سنين، وقال مقاتل بن سليمان: حبس يوسف اثنتي عشر سنة، والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة، وإنما القدر المعلوم أنه بقى محبوساً مدة طويلة لقوله تعالى (وإذك بعد أمه)

أما قوله تعالى «ودخل معه السجن فتيان» ففهمنا مخاوف، والتقدير: لما أرادوا حبسه حبسوه وحذف ذلك لدلالة قوله (ودخل معه السجن فتيان) عليه قيل: هما غلامان كانا الملك الأكبر بمصر أحدهما صاحب طامه، والآخر صاحب شرابه رفع إليه أن صاحب طعامه يريد أن يسمه وظن أن الآخر يساعد عليه فأمر بحبسهما بقى في الآية سؤالات:

﴿السؤال الأول﴾ كيف عرف أنه عليه السلام عالم بالتعبير؟

والجواب: لعلمه عليه السلام سألها عن حزبهما وغمهما فذكرنا إننا رأينا في المنام هذه الرؤيا، ويحتمل أنهما رأياه وقد أظهر معرفته بأمر منها تعبیر الرؤيا فعندما ذكرنا له ذلك.

(السؤال الثاني) كيف عرف أنهما كانا عبيدين للملك :

الجواب : لقوله (فيسق ربه خمرًا) أي مولاه وبقوله (اذكرني عند ربك)

(السؤال الثالث) كيف عرف أن أحدهما صاحب شراب الملك ، والآخر صاحب طعامه ؟

والجواب : رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته لأن أحدهما رأى أنه يعصر الخمر والآخر كأنه يحمل فوق رأسه خبزاً .

(السؤال الرابع) كيف وقعت رؤية المنام ؟

والجواب : فيه قولان :

(والقول الأول) أن يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله إني أعبس الأحلام فقال

أحد الفتيين ، هلم فلنختبر هذا العبد العبراني برؤيا نختبرها له فسألاه من غير أن يكونا رآيا شيئاً . قال ابن مسعود : ما كانا رآيا شيئاً وإنما تحاملا ليختبرا عليه .

(والقول الثاني) قال مجاهد كانا قد رآيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام

فسألاه عنها ، فقال الساقى أيها العالم إني رأيت كأنني في بستان فإذا بأصل عنب حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتهما وكان كأس الملك يدي فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشر به فذلك قوله (إني أراني أعصر خمرًا) وقال صاحب الطعام إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها خبز وألوان وأطعمة وإذا سباع الطير تنهش منه فذلك قوله تعالى (وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه)

(السؤال الخامس) كيف عرف يوسف عليه السلام أن المراد من قوله (إني أراني أعصر

خمرًا) رؤيا المنام ؟

الجواب : لوجوه : الأول : أنه لو لم يقصد النوم كان ذكر قوله (أعصر) يغني عن ذكر قوله

(أراني) والثاني : دل عليه قوله (نبتنا بتأويله)

(السؤال السادس) كيف يعقل عصر الخمر ؟

الجواب : فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أن يكون المعنى أعصر عنب خمر ، أي العنب الذي يكون

عصيره خمرًا خذف المضاف . الثاني : أن العرب تسمى الشيء بأسم ما يؤل إليه إذا انكشف المعنى

ولم يلتبس يقولون فلان يطبخ ديسا وهو يطبخ عصيراً . والثالث : قال أبو صالح : أهل عمان

يسمون العنب بالخمر فوقت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك : نزل القرآن

بالسنة جميع العرب .

قَالَ لَا يَأْتِيكَ طَعَامُ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكَ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ ذَلِكَ مَا  
عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٢٧  
وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ

﴿السؤال السابع﴾ ما معنى التأويل في قوله (نبئنا بتأويله)

الجواب : تأويل الشيء ما يرجع إليه وهو الذي يؤل إليه آخر ذلك الأمر .

﴿السؤال الثامن﴾ ما المراد من قوله (إننا نراك من المحسنين)

الجواب من وجوه : الأول : معناه انا نراك تؤثر الاحسان وتأتي بمكارم الأخلاق وجميع  
الافعال الحميدة . قيل : إنه كان يعود مرضاهم ، ويؤنس حزبنهم فقالوا إنك من المحسنين . أى فى حق  
الشركاء والأصحاب . وقيل : إنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا انك  
من المحسنين فى أمر الدين ، ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا ، وفى سائر  
الأمور . وقيل : المراد (إننا نراك من المحسنين) فى علم التعبير ، وذلك لانه متى عبر لم يخط كما قال  
(وعلمتني من تأويل الأحاديث)

﴿السؤال التاسع﴾ ما حقيقة علم التعبير ؟

الجواب : القرآن والبرهان يدلان على صحته . أما القرآن فهو هذه الآية ، وأما البرهان فهو أنه  
قد ثبت أنه سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها "صعود إلى عالم الأفلاك . ومطالعة  
اللوح المحفوظ والمنافع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن وفى وقت النوم يقل هذا التشاغل  
فتقوى على هذه المطالعة فاذا وقعت الروح على حالة من الأحوال تركت آثاراً مخصوصة مناسبة  
لذلك الادراك الروحاني إلى عالم الخيال فالمعبر يستدل بتلك الآثار الخيالية على تلك الادراكات  
العقلية فهذا كلام مجمل . وتفصيله مذكور فى الكتب العقلية ، والشريعة مؤكدة له روى عن انبي  
صلى الله عليه وسلم أنه قال «الرؤيا ثلاثة : رؤيا ما يحدث به الرجل نفسه ، ورؤيا تحدث من الشيطان  
ورؤيا اتى هى الرؤيا الصادقة حقة» وهذا تقسيم صحيح فى علوم العقلية وقال عليه السلام «رؤيا  
الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»

قوله عز وجل ﴿قال لا يأتيناك طعام ترزقناه إلا نبأتك بتأويله قبل أن يأتيناك ذلك﴾ ما علمني  
ربي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

شَيْءٌ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن  
أكثر الناس لا يشكرون  
وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أن المذكور في هذه الآية ليس بجواب لما سألا عنه فلا بد ههنا من بيان  
الوجه الذي لأجله عدل عن ذكر الجواب إلى هذا الكلام والعلماء ذكروا فيه - وبها - الأول :  
أنه لما كان جواب أحد السائلين أنه يعذب ، ولا شك أنه متى سمع ذلك عظم حزنه وتشتد نفرتة  
عن سماع هذا الكلام ، فرأى أن الإصلاح أن يقدم قبل ذلك ما يؤثر معه بعلمه وعلامته ، حتى إذا جاء  
بها من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة . الثاني : لعله عليه السلام أراد أن  
يبين أن دجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه ، وذلك لأنهم ظنوا منه علم التعبير ، ولا شك  
أن هذا العلم مبنى على الظن والتخمين ، فبين لهم أنه لا يمكنه الاخبار عن الغيوب على سبيل القطع  
واليقين مع مجزئ كل الخلق عنه ، وإذا كان الأمر كذلك فبأن يكون فائقا على كل الناس في علم التعبير  
كان أولى ، فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقا في علم التعبير واصلا فيه إلى ما لم  
يصل غيره . والثالث : قال السدي (لَا يَأْتِيَكُمُ طَعَامٌ تَرْزُقَانَهُ) في النوم بين بذلك أن علمه بتأويل الرؤيا  
ليس بمقصود على شيء دون غيره ، ولذلك قال (إِلَّا نَبَأْتُكُمُ بِتَأْوِيلِهِ) الرابع : لعله عليه السلام لما  
علم أنهما اعتقدا فيه وقبلا قوله : فأورد عليهما ما دل على كونه رسولا من عند الله تعالى ، فإن الاشتغال  
باصلاح مهمات الدين أولى من الانشغال بمهمات الدنيا ، والخامس : لعله عليه السلام لما علم أن  
ذلك الرجل سيصلب اجتهد في أن يدخله في الاسلام حتى لا يموت على الكفر ، ولا يستوجب  
العقاب الشديد (ولهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) والسادس : قوله (لَا يَأْتِيَكُمُ طَعَامٌ  
تَرْزُقَانَهُ إِلَّا نَبَأْتُكُمُ بِتَأْوِيلِهِ) محمول على اليقظة ، والمأني : أنه لَا يَأْتِيَكُمُ طَعَامٌ تَرْزُقَانَهُ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمْ أَى  
طَعَامٌ هُوَ ، وَأَى لَوْنٌ هُوَ ، وَكَمْ هُوَ ، وَكَيْفَ يَكُونُ عَاقِبَتُهُ ؟ أَى إِذَا أَكَلَهُ الْإِنْسَانُ فَهُوَ يَفِيدُ الصَّحَّةَ  
أَوْ السَّقَمَ ، وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرٌ ، قِيلَ : كَانَ الْمَلِكُ إِذَا أَرَادَ قَتْلَ إِنْسَانٍ صَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ ،  
فَقَالَ يُوسُفُ لَا يَأْتِيَكُمُ طَعَامٌ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمْ أَن فِيهِ سَمٌ أَمْ لَا ، هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ (لَا يَأْتِيَكُمُ طَعَامٌ  
تَرْزُقَانَهُ إِلَّا نَبَأْتُكُمُ بِتَأْوِيلِهِ) وحاصله راجع إلى أنه ادعى الاخبار عن الغيب ، وهو يحرى بحرى



قول عيسى عليه السلام . وأنبيكم بما تأكلون ، وما تدخرون في بيوتكم ، فالوجود الثلاثة الأول لتقرير كونه فائقاً في علم التعبير ، والوجود الثلاثة الآخر لتقرير كونه نيباً صادقاً من عند الله تعالى .

فان قيل : كيف يجوز حمل الآية على ادعاء المعجزة مع أنه لم يتقدم ادعاء للنبوة ؟  
قلنا : إنه وإن لم يذكر ذلك لكن يعلم أنه لا بد وأن يقال : إنه كان قد ذكره ، وأيضاً في قوله (ذلكما علمني ربّي) وفي قوله (واتبعت ملة آبائي) ما يدل على ذلك .  
ثم قال تعالى ﴿ذلكما علمني ربّي﴾ أي لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم ، وإنما أخبركما برحى من الله وعلم حصل بتعليم الله .

ثم قال ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وفيه مسائل :  
﴿المسألة الأولى﴾ لقائل أن يقول : في قوله ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ توهم أنه عليه السلام كان في هذه الملة . فنقول جوابه من وجوه : الأول : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للنبي . وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضاً فيه . والثاني : وهو الأصح أن يقال إنه عليه السلام كان عبداً لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ، ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفاً منهم على سبيل التقية . ثم إنه أظهره في هذا الوقت ، فكان هذا جارياً مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر .

﴿المسألة الثانية﴾ تكرير لفظ (هم) في قوله (وهم بالآخرة هم كافرون) لبيان اختصاصهم بالكفر ، ولعل انكارهم للمعاد كان أشد من انكارهم للمبدأ ، فلأجل مبالغتهم في انكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد .

واعلم أن قوله ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ إشارة إلى علم المبدأ . وقوله (وهم بالآخرة هم كافرون) إشارة إلى علم المعاد ، ومن تأمل في القرآن المجيد وتفكر في كيفية دعوة الأنبياء عليهم السلام علم أن المقصود من إرسال الرسل وإزالة الكتب صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد وبالمبدأ والمعاد ، وإن ما وراء ذلك عبث ،

ثم قال تعالى ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسماعيل ويعقوب﴾ وفيه سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ما الفائدة في ذكر هذا الكلام

الجواب : أنه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة ، وأن أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله . فان الإنسان متى ادعى حرفة

أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه ، وأيضاً فكما أن درجة إبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب كان أمراً مشهوراً في الدنيا ، فإذا ظهر أنه ولد لهم عظموه ونظروا إليه بعين الاجلال ، فكان انقيادهم له أتم وتأثر قلوبهم بكلامه أكمل .

﴿السؤال الثاني﴾ لما كان نبياً فكيف قال . إني اتبعت ملة آبائي ، والنبي لا بد وأن يكون مختصاً بشريعة نفسه .

قلنا : لعل مراده التوحيد الذي لم يتغير ، وأيضاً لعله كان رسولا من عند الله ، إلا أنه كان على شريعة إبراهيم عليه السلام .

﴿السؤال الثالث﴾ لم قال (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) وحال كل المكلفين كذلك ؟ والجواب : ليس المراد بقوله (ما كان لنا) أنه حرم ذلك عليهم ، بل المراد أنه تعالى طهر آباءه عن الكفر ، ونظيره قوله (ما كان لله أن يتخذ من ولد) ﴿السؤال الرابع﴾ ها الفائدة في قوله (من شيء)

الجواب : أن أصناف الشرك كثيرة ، فمنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة ، فقوله (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق ، وإرشاد إلى الدين الحق ، وهو أنه لا موجد إلا الله ولا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله .

ثم قال ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ وفيه مسألة . وهي أنه قال (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء)

ثم قال ﴿ذلك من فضل الله﴾ فقوله (ذلك) إشارة إلى ما تقدم من عدم الاشرار . فهذا يدل على أن عدم الاشرار وحصول الايمان من الله . ثم بين أن الأمر كذلك في حقه بعينه ، وفي حق الناس . ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون ، ويجب أن يكون المراد أنهم لا يشكرون الله على نعمة الايمان ، حكى أن واحداً من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر ، وقال : هل تشكر الله على الايمان أم لا . فان قلت لا ، فقد خالفت الاجماع ، وإن شكرته فكيف تشكره على ما ليس فعلاً له . فقال له بشر : إنا نشكره على أنه تعالى أعطانا القدرة والعقل والآلة ، فيجب علينا أن نشكره على إعطاء القدرة والآلة ، فإما أن نشكره على الايمان مع أن الايمان ليس فعلاً له ، فذلك باطل ، وصعب الكلام على بشر ، فدخل عليهم ثمانية بن الأشرس وقال : إنا لا نشكر الله على الايمان ، بل الله يشكرنا عليه كما قال (أولئك كانت سعيهم مشكورا) فقال بشر : لما صعب الكلام سهل .

يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۚ مَا تَعْبُدُونَ  
 مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا آتَمٌ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ  
 الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

واعلم أن الذي الزمه ثمامة باطل بنص هذه الآية ، وذلك لأنه تعالى بين أن عدم الاشراك من فضل الله . ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة ، وإنما ذكره على سبيل الذم فدل هذا على أنه يجب على كل مؤمن أن يشكر الله تعالى على نعمة الايمان . حيث قد تقوى الحجة وتكمل الدلالة . قال القاضي قوله (ذلك) ان جعلناه اشارة إلى التمسك بالتوحيد فهو من فضل الله تعالى لأنه إنما حصل بألطافه وتسهيله ، ويحتمل أن يكون اشارة إلى النبوة .

والجواب : أن ذلك اشارة إلى المذكور السابق ، وذلك هو ترك الاشراك فوجب أن يكون ترك الاشراك من فضل الله تعالى ، والقاضي يصرفه إلى اللطاف والتسهيل ، فكان هذا تركا للظاهر وأما صرفه إلى النبوة فبعيد ، لأن اللفظ الدال على الاشارة يجب صرفه إلى أقرب المذكورات وهو ههنا عدم الاشراك .

قوله تعالى «يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها آتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»  
 في الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قوله (يا صاحبي السجن) يريد صاحبي في السجن ، ويحتمل أيضا أنه لما حصلت مرافقتهم في السجن مدة قليلة أضيفا إليه وإذا كانت المرافقة القليلة كافية في كونه صاحبا فن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بأن يبقى عليه اسم المؤمن المأمن من العارف المحب .

(المسألة الثانية) اعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوة في الآية الأولى وكان اثبات النبوة مبنياً على إثبات الاهليات لاجرم شرع في هذه الآية في تقرير الاهليات . ولما كان أكثر الخلق مقرين بوجود الاله العالم القادر وإنما الشأن في أنهم يتخذون أصناماً على صورة الأرواح الفلكية

ويعبدونها ويتوقعون حصول النفع والضرر منها لاجرم كان سعى أكثر الأنبياء في المنع من عبادة الأوثان . فكان الأمر على هذا القانون في زمان يوسف عليه السلام ، فلهذا السبب شرع ههنا في ذكر ما يبدل على فساد القول بعبادة الأصنام وذكر أنواعا من الدلائل والحجج .

(الحجة الأولى) قوله (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) وتقرير هذه الحجة أن أن نقول : إن الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم وهو قوله (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل ، وكون الإله واحداً يقتضى حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى في سائر الآيات . قال ههنا (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار .

(والحجة الثانية) أن هذه الأصنام معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة ، فإن الإنسان إذا أراد كسرها وإبطائها قدر عليها فهي مقهورة لا تأثير لها ، ولا يتوقع حصول منفعة ولا مضرة من جهتها وإله العالم قهار قادر يقدر على إيصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار ، فقوله (أأرباب) إشارة إلى الكثرة فجعل في مقابلته كونه تعالى واحداً وقوله (متفرقون) إشارة إلى كونها مختلفة في الكبر والصغر ، واللون والشكل ، وكل ذلك إنما حصل بسبب أن الناحية والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله (متفرقون) إشارة إلى كونها مقهورة عاجزة وجعل في مقابلته كونه تعالى قهاراً فهذا الطريق الذي شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين .

(والحجة الثالثة) أن كونه تعالى واحداً يوجب عبادته ، لأنه لو كان له ثناء لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا ، فيقع الشك في أننا نعبد هذا أم ذاك ، وفيه إشارة إلى ما يبدل على فساد القول بعبادة الأوثان وذلك لأن بتقدير أن تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة إلا أنها كثيرة فحينئذ لا نعلم أن نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الآخر أو حصل بمشاركتهما ومعاًوتهما ، وحينئذ يقع الشك في أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك أما إذا كان المعبود واحداً ارتفع هذا الشك وحصل اليقين في أنه لا يستحق للعبادة إلا هو ولا معبود للخلق والكائنات إلا هو ، فهذا أيضاً وجه لطيف مستنبط من هذه الآية .

(الحجة الرابعة) أن بتقدير أن يساعد على أن هذه الأصنام تنفع وتضر على ما يقوله أصحاب الطلسمات ، إلا أنه لا نزاع في أنها تنفع في أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة ، والآله تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الإطلاق نافذ المشيئة والقدرة في كل الممكنات على الإطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى .



﴿الحجة الخامسة﴾ وهى شريفة عالية ، وذلك لأن شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهاراً لكل ماسواه وهذا يقتضى أن يكون الاله واجب الوجود لذاته إذ لو كان يمكننا لكان مقهوراً لا قهاراً ويجب أن يكون واحداً ، اذ لو حصل فى الوجود واجبان لما كان قهاراً لكل ماسواه ، فالاله لا يكون قهاراً إلا إذا كان واجباً لذاته وكان واحداً ، وإذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك فهذا يقتضى أن يكون الاله شيئاً غير "عالم" وغير الكواكب وغير النور والظلمة ، وغير العقل والنفس . فأما من تمسك بالكواكب فهى أرباب متفردون وهى ليست موصوفة بأنها قهارة ، وكذا القول فى الطائعات والأرواح والعقول والنفوس فهذا الحرف الواحد كاف فى إثبات هذا التوحيد المطابق وأنه مقام عال فهذا مجموع الدلائل المستنبطة من هذه الآية بقى فيها سؤالان :  
 ﴿السؤال الأول﴾ لم سماها أرباباً وليست كذلك .

والجواب : لا اعتقادهم فيها أنها كذلك ، وأيضاً الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير : والمعنى أنها إن كانت أرباباً فهى خير أم الله الواحد القهار .

﴿السؤال الثانى﴾ هل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى يقال إنها خير أم الله الواحد القهار ؟

الجواب : أنه خرج على سبيل الفرض ، والمعنى : لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهى خير أم الله الواحد القهار .

ثم قال ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ وفيه سؤال : وهو أنه تعالى قال فيما قبل هذه الآية (أرباب متفردون خير أم الله الواحد القهار) وذلك يدل على وجود هذه المسميات . ثم قال عقيب تلك الآية (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها) وهذا يدل على أن المسمى غير حاصل وبينهما تناقض .

الاجراب : أن الذات موجودة حاصلة إلا أن المسمى بالاله غير حاصل . وبيان من وجهين : الأول : أن ذوات الأصنام وإن كانت موجودة إلا أنها غير موصوفة بصفات الالهية ، وإذا كان كذلك كان الشيء الذى هو مسمى بالاله فى الحقيقة غير موجود ولا حاصل ، الثانى : يروى أن عبدة الأوثان مشبهة فاعتقدوا أن الاله هو النور الأعظم وأن الملائكة أنوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الأنوار هذه الأوثان ومعبودهم فى الحقيقة هو تلك الأنوار السجاية . وهذا قول المشبهة فانهم تصوروا جسماً كبيراً مستقراً على العرش ويعبدونه وهذا المتخيل غير موجود البتة فصح أنهم لا يعبدون إلا مجرد الأسماء .

يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ  
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ «٤١»

واعلم أن جماعة من يعبدون الأصنام قالوا نحن لا نقول : إن هذه الأصنام آلهة للعالم بمعنى أنها هي التي خلقت العالم إلا أنا نطابق عليها اسم الاله ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا أن الله أمرنا بذلك ، فأجاب الله تعالى عنه . فقال أما تسميتها بالآلهة فما أمر الله تعالى بذلك وما أنزل في حصول هذه التسمية حجة ولا برهان ولا دليلا ولا سلطانا . وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام بل الحكم والأمر والتكليف ليس الاله ، ثم إنه أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، وذلك لأن العبادة نهاية التعظيم والاحلال فلا تليق إلا بمن حصل منه نهاية الانعام وهو الاله تعالى لأن منه الخلق والاحياء والعقل والرزق والهداية ، ونعم الله كثير وقهجات إحسانه إلى الخلق غير متناهية ثم إنه تعالى لما بين هذه الأشياء ، قال (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وتقديره أن أكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الأرضية إلى الاتصالات الفلكية والمناسبات السكونية لأجل أنه تقر في العقول أن الحادث لا بد له من سبب . فاذا رأوا أن تغير أحوال هذا العالم في الحر والبرد والفصول الأربعة ، إنما يحصل عند تغير أحوال الشمس في أرباع الفلك ربطوا الفصول الأربعة بحركة الشمس ، ثم لما شاهدوا أن أحوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الأربعة ربطوا حدوث النبات وتغير أحوال الحيوان باختلاف الفصول الأربعة ، فبهذا الطريق غلب على طبع أكثر الخلق أن المدبر لحدوث الحوادث في هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب ، ثم إنه تعالى اذا وفق لإنسانا حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف أنها في ذاتها وصفاتها فتقررة الى موجد ومبدع قاهر قادر عليم حكيم ، فذلك الشخص يكون في غاية الندرة ، فهذا قال (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

قوله عز وجل ﴿يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

اعلم أنه عليه السلام لما قرر أمر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذي ذكره ، والمعنى ظاهر . وذلك لأن الساق لما قرر رؤياه على يوسف ، وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف : ما أحسن ما رأيت . أما حسن العنبة فهو حسن حاله ، وأما الأغصان الثلاثة فتلاثة أيام يوجه اليك الملك عند انقضاءهم فيردك الى عملك فتصير كما كنت بل أحسن ، وقال للخبايز : لما قص

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ  
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٣﴾

عليه بئسما رأيت السلال الثلاث ثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيصالبك وتأكل الضير من رأسك ، ثم نقل في التفسير أنهما قالاً مارأينا شيئا فقال (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) واحذف فيما لأجله قالاً مارأينا شيئا فقبل إنهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع أنهما مارأيا شيئا وقيل : إنهما لما كرهما ذلك الجواب قالاً مارأينا شيئا .

فان قيل : هذا الجواب الذى ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحي من قبل الله تعالى أوبناء على علم التعبير ، والاول باطل لأن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نقل أنه إنما ذكره على سبيل التعبير ، وأيضا قال تعالى (وقال للذي ظن أنه ناج منهما) ولو كان ذلك التعبير مبني على الوحي لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين ، والثاني : أيضا باطل لأن علم التعبير مبني على الظن والحسبان .

الجواب : لا يبعد أن يقال : إنهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه أو كذبا فان الله تعالى أوحى إليه أن عاقبة كل واحد منهما تكون على الوجه المخصوص . فلما نزل الوحي بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع في الظن أنه ذكره على سبيل التعبير ، ولا يبعد أيضا أن يقال : إنه بنى ذلك الجواب على علم التعبير ، وقوله (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) ما عني به ان الذى ذكره واقع لاحتمال بل عني به أنه حكمه في تعبير ماسألاه عنه ذلك الذى ذكره .

قوله عز وجل ﴿وقال الذى ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك﴾ فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴿﴾  
فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا في أن الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام أو الناجي فعلى الاول كان المعنى وقال الرجل الذى ظن يوسف عليه السلام كونه ناجيا . وعلى هذا قول فقيه وجهان : الاول : أن تحمل هذا الظن على العلم واليقين . وهذا اذا قلنا بأنه عليه السلام إنما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحي . قال هذا القائل وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير في القرآن . قال تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) ويقال (إنى ظننت أنى ملاق حسابه) والثاني : أن تحمل هذا الظن على حقيقة

الظن، وهذا اذا قلنا انه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لابناء على الوحي، بل على الاصول المذكورة في ذلك العلم، وهي لا تفيد الا الظن والحسبان.

﴿والقول الثاني﴾ أن هذا الظن صفة الناجي، فإن الرجلين السائلين ما كانا مؤمنين بذنوب يوسف ورسالته، ولسكنهما كانا حسنى الاعتقاد فيه، فكان قوله لا يفيد في حقهما الا مجرد الظن.

﴿المسألة الثانية﴾ قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذى حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع الى خدمة الملك (اذكرنى عند ربك) أى عند الملك. والمعنى: اذكر عنده أنه مظلوم من جهة اخوته لما أخرجوه وباعوه، ثم انه مظلوم في هذه الواقعة التى لأجلها حبس، فهذا هو المراد من الذكر. ثم قال تعالى «فأنساه الشيطان ذكر ربه» وفيه قولان: الأول: أنه راجع الى يوسف، والمعنى

أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه، وعلى هذا القول ففيه وجهان: أحدهما: أن تمسكه بغير الله كان مستدركا عليه، وتقديره من وجوه: الأول: أن مصلحته كانت في أن لا يرجع في تلك الواقعة الى أحد من المخاوقين وأن لا يعرض حاجته على أحد سوى الله، وأن يقتدى بجدد ابراهيم عليه السلام، فانه حين وضع في المنجنيق ليرى الى النار جاءه جبريل عليه السلام وقال: هل من حاجة، فقال أما اليك فلا، فلما رجع يوسف الى المخلوق لا جرم وصف الله ذلك بأن الشيطان أنساه ذلك التفويض، وذلك التوحيد، ودعاه الى عرض الحاجة الى المخلوقين، ثم لما وصفه بذلك ذكر أنه بقى لذلك السبب في السجن بضع سنين، والمعنى أنه لما عدل عن الانقطاع الى ربه الى هذا المخلوق عوقب بأن لبث في السجن بضع سنين، وحاصل الأمر أن رجوع يوسف الى المخلوق صار سبباً لأمرين: أحدهما: أنه صار سبباً لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه. الثانى: أنه صار سبباً لبقاء المحنة عليه مدة طويلة.

﴿الوجه الثانى﴾ أن يوسف عليه السلام قال في ابطال عبادة الأوثان (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) ثم إنه ههنا أثبت رباً غيره حيث قال (اذكرنى عند ربك) ومعاذ الله أن يقال إنه حكم عليه بكونه رباً بمعنى كونه إلهاً، بل حكم عليه بالربوبية كما يقال: رب الدار، ورب الثوب على أن اطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفى الأرباب.

﴿الوجه الثالث﴾ أنه قال في تلك الآية ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ، وذلك نفى للشرك على الإطلاق، وتفويض الامور بالكلية الى الله تعالى، فهنا الرجوع الى غير الله تعالى كالمنافض لذلك التوحيد.

واعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين



فهذا وإن كان جائزاً لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصدقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب .

﴿الوجه الثاني﴾ في تأويل الآية أن يقال : هب أنه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقى أن يشرح حاله عند ذلك الملك ، إلا أنه كان من الواجب عليه أن لا يخل ذلك الكلام من ذكر الله مثل أن يقول ان شاء الله أو قدر الله فلما أخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك .

﴿القول الثاني﴾ أن يقال إن قوله «فأنساه الشيطان ذكر ربه» راجع إلى الناجي والمعنى : أن الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الأمر (فلتب في السجن بضع سنين) بهذا السبب ، ومن الناس من قال القول الأول أولى لما روى عنه عليه السلام قال «رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك ما لبث في السجن» وعن قتادة أن يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه إلى غير الله ، وعن إبراهيم التيمي أنه لما انتهى إلى باب السجن قال له صاحبه : ما حاجتك قال : أن تذكرني عند رب سوى الرب الذي قال يوسف ، وعن مالك لما قال يوسف للساقى اذكرني عند ربك قيل : يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيل حبسك فبكى يوسف وقال : طول البلاء أنساني ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لاختوتي .

قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازي رحمه الله ، والذي جربته من أول عمرى إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سبباً إلى البلاء والخسرة ، والشدة والرزية . وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى إلى هذا الوقت الذى بلغت فيه إلى السابعة والخمسين ، فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه ومن الناس من رجع القول الثانى لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل أولى من صرفها إلى يوسف الصديق ، ولأن الاستعانة بالعباد في التخلص من الظلم جائزة .

واعلم أن الحق هو القول الأول وما ذكره هذا القائل الثانى تمسك بظاهر الشريعة وما قرره القائل الأول تمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة . ومن كان له ذوق في مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف أن الأمر كما ذكرناه ، وأيضاً ففي لفظ الآية ما يدل على أن هذا القول ضعيف ، لأنه لو كان المراد ذلك لقال «فأنساه الشيطان ذكره» لربه .

﴿المسألة الثالثة﴾ الاستعانة بغير الله في دفع الظلم جائزة في الشريعة لا إنكار عليه إلا أنه لما كان ذلك مستدركا من المحققين المتوغلين في بحار العبودية لاجرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذاً

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عَجَافٌ وَسَبْعُ سَنَابِلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابَسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَةُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ «٤٣» قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ «٤٤»

به ، وعند هذا نقول : الذي يصير مؤاخذا بهذا القدر لأن يصير مؤاخذا بالاقدام على طلب الزنا ومكافأة الاحسان بالاساءة كان أولى . فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر ، ولم يؤاخذه في تلك القضية البتة ، ومانابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والتناء علمنا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبته الجهال والحشوية اليه .

﴿المسألة الرابعة﴾ الشيطان يمكنه اتياء الوسوسة ، وأما النسيان فلا ، لأنه عبارة عن ازالة العلم عن القلب ، والشيطان لا قدرة له عليه ، والالكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بني آدم . وجوابه : أنه يمكنه من حيث أنه بوسوسته يدعو إلى سائر الأعمال واشتغال الانسان بسائر الأعمال يمنع عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة .

﴿المسألة الخامسة﴾ قوله (فلبت في السجن بضع سنين) فيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ بحسب الالفة قال الزجاج : اشتقاقه من بضعت بمعنى قطعت ومعناه القطعة من العدد قال القراء : ولا يذكر البضع إلا مع عشرة أو عشرين إلى اتسعين . وذلك يقتضى أن يكون مخصوصاً بما بين الثلاثة إلى التسعة ، وقال هكذا رأيت العرب يقولون ومارأيتهم يقولون بضع ومائة . وروى الشعبي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه «لا بضع» قالوا الله ورسوله أعلم قال «مادون العشرة» واتفقوا أكثر على أن المراد ههنا بضع سنين . سبع سنين قالوا : إن يوسف عليه السلام حين قال لذلك الرجل (اذكرني عند ربك) كان قد بقى في السجن خمس سنين ثم بقى بعد ذلك سبع سنين . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما تضرع يوسف عليه السلام إلى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث في السجن بعده سبع سنين ، وروى أن الحسن روى قوله صلوات الله عليه وسلامه «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها لما لبث في السجن هذه المدة الطويلة» ثم بكى الحسن وقال : نحن إذا نزل بنا أمر تضرعنا إلى الناس .

قوله تعالى ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنابلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن

بتأويل الاحلام بالأمين

اعلم أنه تعالى إذا أراد شيئاً هياً له أسباباً ، ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر في النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس . وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، ورأى سبع سنبلات خضرقا انعمد حبيها . وسبعاً آخر يابسات ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله (يا أيها الملأ أقتوني في رؤيائي) فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا تقدر على تأويلها وتعيرها ، فهذا ظاهر الكلام وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الليث : العجف ذهاب السمن والفعل عجف يعجف والذكر أعجف والأشئ عجفاء والجمع عجاف في الذكران والاناث ، وليس في كلام العرب أفعل وفعلاء جمعاً على فعال غير أعجف وعجاف وهي شاذة حلوها على لفظ سمان فقالوا : سمان وعجاف لأنهما نقيضان ومن دأبهم حمل النظير على النظير . والنقيض على النقيض . واللام في قوله (لرؤيا تعبرون) على قول البعض زائدة لتقدم المفعول على الفعل ، وقال صاحب الكشف : يجوز أن تكون الرؤيا خبر كان كما تقول : كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه وتعبرون خبراً آخر أو حالاً ، ويقال عبرت الرؤيا أعبرها عبارة وعبرتها تعبيراً إذا فسرتها ، وحكى الأزهري أن هذا مأخوذ من العبر ، وهو جانب النهر . ومعنى عبرت النهر ، والطريق قطعه إلى الجانب الآخر فقليل لعارض الرؤيا عابر . لأنه يتأمل جانبي الرؤيا فيتفكر في أطرافها وينتقل من أحد الطرفين إلى الآخر ، والأضغاث جمع الضغث وهو الحزمة من أنواع التبن والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق واستطال قال تعالى (وخذ بيدك ضغثاً)

إذا عرفت هذا فنقول : الرؤيا إن كانت مخلوطة من أشياء غير متناسبة كانت شديدة بالضغث

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى جعل تلك الرؤيا سبباً لخلاص يوسف عليه السلام من السجن ، وذلك لأن الملك لما قلق واضطرب بسببه . لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوى فشهدت فطرته بأن هذا ليس بحجيد وأنه منذر بنوع من أنواع الشر ، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه والشئ إذا صار معلوماً من وجهه وبقي مجهولاً من وجه آخر عظم تشوف الناس إلى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة في اتسام الناقص لاسيما إذا كان الانسان عظيم الشأن واسع المملكة ، وكان ذلك الشئ دالاً على الشر من بعض الوجوه . فهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك في تحصيل العلم بتعير هذه الرؤيا ، ثم إنه تعالى أئجز المعبرين الذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسألة وعماه عليهم ليصير ذلك سبباً لخلاص يوسف من تلك المحنة .

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ أَنَا أَنْبِتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ «٤٥»  
يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عَجَافٍ وَسَبْعِ  
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ «٤٦»

واعلم أن القوم مانفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير ، بل قالوا : إن علم التعبير على قسمين منه ما تكون الرؤيا فيه منتسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الأمور المخيلة إلى الحقائق العقلية الروحية ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالاضغاث والقوم قالوا إن رؤيا الملك من قسم الاضغاث ثم أخبروا أنهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكانهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لانتهدي اليها ولا يحيط عقلنا بها وفيه إيهام أن الكامل في هذا العلم والمتبحر فيه قديتهدي اليها ، فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف فانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا في هذا العلم.

قوله تعالى «وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبتكم بتأويله فأرسلون يوسف أيما الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعل أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون»

اعلم أن الملك لما سأل الملاء عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشرابي إن في الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والحباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق في الكل . وما أخطأ في حرف فان أذنت مضيت اليه وجئتك بالجواب . فهذا هو قوله (وقال الذي نجا منهما)

وأما قوله «وادكر بعد أمة» فنقول : سيجيء اذكر في تفسير قوله تعالى (من مذكر) في سورة القمر قال صاحب الكشف (وادكر) بالدال هو الفصحى عن الحسن (وادكر) بالذال أى تذكر ، وأما الأمة ففيه وجوه : الأول (بعد أمة) أى بعد حين ، وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم فالحين كان أمة من الأيام والساعات والثاني : قرأ الأشهب العقيلي (بعد أمة) بكسر الهمزة والأمة النعمة قال عدى :

ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتم هناك القبور



قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبَلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا  
تَأْكُلُونَ «٤٧» ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا  
مِمَّا تُحْصِنُونَ «٤٨» ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ  
يَعْصِرُونَ «٤٩»

والمعنى : بعد ما أنعم عليه بالنجاة . الثالث : قرئ ( بعد أمة ) أى بعد نسيان يقال أمه يأمه أمها  
إذا نسى والصحيح أنها بفتح الميم وذكره أبو عبيدة بسكون الميم ، وحاصل الكلام أنه إما أن يكون  
المراد وادكر بعد مضي الأوقات الكثيرة من الوقت الذى أوصاه يوسف عليه السلام بذكره  
عند الملك ، والمراد وادكر بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك أو المراد وادكر بعد النسيان .  
فان قيل : قوله ( وادكر بعد أمة ) يدل على أن الناسى هو الشرايى وأتم تقولون الناسى هو  
يوسف عليه السلام .

قلنا : قال ابن الانباري : اذكر بمعنى ذكر وأخبر وهذا لا يدل على سبق النسيان فلعل الساقى  
انما لم يذكره للملك خوفاً من أن يكون ذلك اذكراً لذنبه الذى من أجله حبسه فيزداد الشروى يحتمل  
أيضاً أن يقال : حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل أيضاً لذلك الشرايى . وأما قوله  
( فأرسلون ) خطاب إما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم ، أما قوله ( يوسف أيها  
الصديق ) ففيه محذوف ، والتقدير : فارسل وأتاه وقال أيها الصديق ، والصديق هو البالغ في الصدق  
وصفه بهذه الصفة لأنه لم يجرب عليه كذباً وقيل : لأنه صدق في تعبير رؤياه وهذا يدل على أن  
من أراد أن يتعلم من رجل شيئاً فانه يجب عليه أن يعظمه ، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالاجلال  
ثم إنه أعاد السؤال بعين اللفظ الذى ذكره الملك ونعم ما فعل . فان تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب  
اختلاف اللفظ كما هو مذكور في ذلك العلم .

أما قوله تعالى ( لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ) فالمراد لعلى أرجع إلى الناس بقتوا لعلهم  
يعلمون فضلك وعلمك وانما قال لعلى أرجع إلى الناس بقتوا لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب  
هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها ، فلهذا السبب قال ( لعلى أرجع الى الناس )  
قوله عز وجل ( قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سبيله إلا قليلاً مما

تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴿

اعلم أنه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال (تزرعون) وهو خبر بمعنى الأمر . كقوله (والطلقات يتربصن . والوالدات يرضعن) وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر ، ويخرج الأمر في ضرورة الخبر للبالغة في الإيجاب ، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه . والدليل على كونه في معنى الأمر قوله (فدروه في سنبله) وقوله (دأباً) قال أهل اللغة : الدأب استمرار الشيء على حالة واحدة . وهو دأب بفعل كذا اذا استمر في فعله ، وقد دأب يدأب دأباً ودأباً أى زراعة متوالية في هذه السنين . قال أبو علي الفارسي : ألا كثرون في دأب الاسكان ولعل الفتحة لغة ، فيكون كشمع وشمع ، ونهر ونهر . قال الزجاج : وانتصب دأباً على معنى تدأبون دأباً . وقيل : إنه مصدر وضع في موضع الحال ، وتقديره تزرعون دأبين فما حصدم فدروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون كل ما أردتم أكله فدوسو ودعوا الباقي في سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه ، لأن إبقاء الحبة في سنبله يوجب بقاءها على الصلاح (ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد) أى سبع سنين مجديات . والشداد الصعاب التي تشتد على الناس ، وقوله (يأكلن ماقدمتم لهن) هذا مجاز ، فإن السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسنداً إلى السنين . وقوله (إلا قليلا مما تحصنون) الإحصان الاحراز . وهو إلقاء الشيء في الحصن يقال أحصنه إحصاناً إذا جعله في حرز ، والمراد إلا قليلا مما تحرزون أى تدخرون وكلها ألفاظ ابن عباس رضى الله عنهما ، وقوله (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) قال المفسرون السبعة المتقدمة سنو الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنو القحط والقلة وهي معلومة من الرؤيا ، وأما حال هذه السنة فما حصل في ذلك المنام شيء يدل عليه بل حصل ذلك من الوحي فكانه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة الخصب . والسبعة المجدية سنة مباركة كثيرة الخير والنعم . وعن قتادة زاده الله علم سنة .

فان قيل : لما كانت العجاف سبعة دل ذلك على أن السنين المجدية لا تزيد على هذا العدد ، ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب وكان هذا أيضاً من مدلولات المنام . فلم قلتم إنه حصل بالوحي والالهام ؟

قلنا : هب أن تبدل القحط بالخصب معلوم من المنام ، أما تفصيل الحال فيه ، وهو قوله (فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) لا يعلم إلا بالوحي . قال ابن السكيت يقال : غاث الله البلاد يغيثها غيثاً اذا أنزل فيها الغيث وقد غيثت الأرض تغاثت ، وقوله (يغاث الناس) معناه يمحرون ، ويجوز أن

وَقَالَ الْمَلِكُ اُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاَسْأَلْهُ مَا بَالُ  
النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ اَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ٥٠ قَالَ مَا خَطْبُكِ إِذْ رَأَوْتِنَّ  
يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ  
حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ٥١ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ  
أَخْنُهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ٥٢

يكون من قولهم : أغاثه الله اذا ألقاه من كرب أو غم ، ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجذب ،  
وقوله (وفيه يعصرون) أى يعصرون السمس دهنأ والغنب خمرأ والزيتون زيتأ ، وهذا يدل على  
ذهاب الجذب وحصول الخصب والخير ، وقيل : يحلبون الضروع ، وقرئ (يعصرون) من عصره  
اذا انجأه ، وقيل : معناه يمتطرون من أعصرت السحابة اذا اعصرت بالمطر ، ومنه قوله (وأنزّلنا من  
المعصرات ماء ثجاجا)

قوله تعالى ﴿وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال  
النسوة اللاتي قطعن ايديهن ان ربي بيدهن عليم قال ماخطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن  
حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه  
لن الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيّب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾

اعلم أنه لما رجع الشراى الى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام  
استحسنه الملك فقال : ائتوني به ، وهذا يدل على فضيلة العلم ، فانه سبحانه جعل علمه سببا لخلاصه من  
الحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الآخروية ، فعاد الشراى الى يوسف  
عليه السلام قال أجب الملك ، فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف  
أمره وتزول التهمة بالكلية عنه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال «عجبت من يوسف وكرمه  
وصبره والله يعفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى  
اشترطت أن يخرجولى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال (ارجع الى ربك) ولو كنت مكانه  
ولبثت فى السجن مالمبثت لأسرعت الاجابة وبأدبرتهم الى الباب : ولما ابتغيت العذر أنه كان  
حليما ذا أناة .

واعلم أن الذي فعله يوسف من الصبر والتوقف الى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل ، وبيانه من وجوه : الأول : أنه لو خرج في الحال فربما كان يبق في قلب الملك من تلك التهمة أثرها ، فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على برأته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يطنخه بتلك الرذيلة وأن يتوسل بها الى الطعن فيه . الثاني : أن الانسان الذي بق في السجن اثنتى عشرة سنة اذا طلبه الملك وأمر باخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج عرف منه كونه في نهاية العقل والصبر والثبات ، وذلك يصير سببا لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذبا وبهتاناً . الثالث : أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضا على شدة طهارته إذ لو كان ملوثا بوجه ما ، لكان خائفا أن يذكر ما سبق . الرابع : أنه حين قال للشرابي ( اذكرني عند ربك ) فبقى بسبب هذه الكلمة في السجن بضع سنين ، وههنا طلبه الملك فلم يلتفت اليه ولم يقيم لطلبه وزنا ، واشتغل باظهار برأته عن التهمة ، ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك أن لا يبق في قلبه التفات الى رد الملك وقبوله ، وكان هذا العمل جاريا مجرى التلافي لما صدر من التوسل اليه في قوله ( اذكرني عند ربك ) ليظهر أيضا هذا المعنى لذلك الشرابي ، فانه هو الذي كان واسطة في الحالتين معا .

أما قوله «فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن» ففيه مسألتان :

«المسألة الأولى» قرأ ابن كثير والكسائي (فسله) بغير همز والباقون (فأسأله) بالهمز ، وقرأ عاصم برواية أبي بكر عنه (النسوة) بضم النون والباقون بكسر النون ، وهما لغتان .

«المسألة الثانية» اعلم أن هذه الآية فيها أنواع من اللطائف : أولها : أن معنى الآية : فسأل الملك بأن يسأل ما شأن تلك النسوة وما حالهن . ليعلم برأته عن تلك التهمة ، إلا أنه اقتصر على أن يسأل الملك عن تلك الواقعة لئلا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى أمر الملك بعمل أو فعل وثانيها : أنه لم يذكر سيده مع أنها هي التي سعت في القائه في السجن الطويل ، بل اقتصر على ذكر سائر النسوة . وثالثها : أن الظاهر أن أولئك النسوة نسبتهن الى عمل قبيح وفعل شنيع عند الملك ، فاقصر يوسف عليه السلام على مجرد قوله (ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) وما شكاهن عن سبيل التعيين والتفصيل . ثم قال يوسف بعد ذلك (إن ربى بكيدهن عليم) وفي المراد من قوله (ان ربى) وجهان : الأول : أنه هو الله تعالى ، لأنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور . والثاني : أن المراد الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن . واعلم أن كيدهن في حقه يحتمل وجوها : أحدها : أن كل واحدة منهن ربما طمعت فيه ،



ولما لم يجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه إلى القبيح . وثانيها : لعل كل واحدة منهن بالغت في ترغيب يوسف في موافقة سيده على مرادها ، ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة في حق السيد المنعم لا تجوز ، فأشار بقوله (إن ربي يكيدهن عليهن) إلى مبالغتهن في الترغيب في تلك الخيانة .  
وثالثها : أنه استخرج منهن وجوها من المكر والحيل في تقييع صورة يوسف عليه السلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذاك ، ثم انه تعالى حكى عن يوسف عليه السلام أنه لما التمس ذلك ، أمر الملك باحضارهن وقال لمن (ماخطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه) وفيه وجهان : الأول : أن قوله (إذ راودتن يوسف عن نفسه) وإن كانت صيغة الجمع . فالمراد منها الواحدة كقوله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم) والثاني : أن المراد منه خطاب الجماعة . ثم ههنا وجهان : الأول : أن كل واحدة منهن راودت يوسف عن نفسها . والثاني : أن كل واحدة منهن راودت يوسف لأجل امرأة العزيز فاللفظ يحتمل لكل هذه الوجوه ، وعند هذا السؤال (قلن حاش الله . أعلننا عليه من سوء) وهذا كالتأكيدي لما ذكرنا في أول الأمر في حقه وهو قولن (ما هذا بشر) أن هذا الإهلاك كريم) واعلم أن امرأة العزيز كانت حاضرة ، وكانت تعلم أن هذه المناظرات والتفحصات إنما وقعت بسببها ولأجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرا عن كل الذنوب مطهرا عن جميع العيوب ، وههنا دقيقة ، وهى أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال (ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها وإخفاء للأمر عليها ، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزال الغطاء والوظاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف عليه السلام كان مبرا عن الكل . ورأيت في بعض الكتب أن امرأة جاءت بزوجهها إلى القاضي وادعت عليه المهر ، فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من إقامة الشهادة ، فقال الزوج : لأحاجة إلى ذلك ، فإني مقر بصدقها في دعواها . فقالت المرأة لما أكرمتني إلى هذا الحد فاشهدوا أني أبرأت ذمتك من كل حق لي عليك .

﴿المسألة الثانية﴾ قال أهل اللغة (حصحص الحق) معناه : وضح وانكشف وتمكن في القلوب والنفوس من قولهم : حصحص البعير في بروكه . إذا تمكن واستقر في الأرض . قال الزجاج : اشتقاقه في اللغة من الحصاة ، أى بانث حصاة الحق من حصاة الباطل .

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلفوا في أن قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) كلام من؟ وفيه أقوال :  
 ﴿القول الأول﴾ وهو قول الأكثرين انه قول يوسف عليه السلام . قال الفراء : ولا يبعد  
 وصل كلام انسان بكلام انسان آخر إذا دلت القرينة عليه ومثاله ، قوله تعالى (إن الملوك إذا دخلوا  
 قرية أقصدوا وجعلوا أعزة أهلها أذلة) وهذا كلام بلقيس . ثم إنه تعالى قال (وكذلك يفعلون)  
 وأيضاً قوله تعالى (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) كلام الداعي .  
 ثم قال ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ بقی على هذا القول سؤالات :  
 ﴿السؤال الأول﴾ قوله (ذلك) إشارة الى الغائب ، والمراد ههنا : الإشارة إلى تلك  
 الحادثة الحاضرة .

والجواب : أجبنا عنه في قوله (ذلك الكتاب) وقيل : ذلك إشارة الى ما فعله من رد الرسول كأنه  
 يقول ذلك الذي فعلت من ردی الرسول إنما كان ، ليعلم الملك أني لم أخنه بالغيب .  
 ﴿السؤال الثاني﴾ متى قال يوسف عليه السلام هذا القول ؟

الجواب : روى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما دخل على  
 الملك قال ذلك ليعلم وإنما ذكره على لفظ الغيبة تعظيماً للملك عن الخطاب والأولى أنه عليه السلام  
 إنما قال ذلك عند ود الرسول اليه لأن ذكر هذا الكلام في حضرة الملك سوء أدب .

﴿السؤال الثالث﴾ هذه الخيانة وقعت في حق العزيز فكيف يقول (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب)  
 والجواب : قيل المراد ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بالغيبة ، وقيل إنه إذا خان وزيره فقد  
 خان به من بعض الوجوه ، وقيل إن الشرايى لما رجع إلى يوسف عليه السلام وهو في السجن قال  
 ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب . ثم ختم الكلام بقوله (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . ولعل  
 المراد منه أني لو كنت خائناً لما خلصني الله تعالى من هذه الورطة ، وحيث خلصني منها ظهر أني  
 كنت مبرأ عما نسبوا لي .

﴿القول الثاني﴾ ان قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) كلام امرأة العزيز والمعنى : أني  
 وإن أحلت الذنب عليه عند حضوره لكنني ما أحلت الذنب عليه عند غيبته ، أي لم أقل فيه وهو  
 في السجن خلاف الحق . ثم إنها بالغت في تأكيد الحق بهذا القول ، وقالت (وأن الله لا يهدي كيد  
 الخائنين) يعني أني لما أقدمت على الكيد والمكر . لا جرم اقتضحت وأنه لما كان بريئاً عن الذنب  
 لا جرم طهره الله تعالى عنه . قال صاحب هذا القول : والذي يدل على صحته أن يوسف عليه السلام  
 ما كان حاضراً في ذلك المجلس حتى يقال لما ذكرت المرأة قولها (الآن حصحص الحق أنا راودته

عن نفسه وإنه لمن الصادقين) ففي تلك الحالة يقول يوسف (ذلك ليعلم أني لم أخنه) ليرجى أن يرجع الرسول من ذلك المجلس إلى السجن ويذكر له تلك الحكاية ثم إن يوسف يقول ابتداء (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) ومثل هذا الوصل بين الكلامين اللذين هما «وَأَن الله لا يهدي كيد الخائنين» ولا نظم فعلنا أن هذا من تمام كلام المرأة .

(المسألة الرابعة) هذه الآية دالة على ظهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجهه فكثيره الأول : أن الملك لما أرسل إلى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متعاضداً لفعل قبيح وقد صدر منه ذنب وخش لا يستحال بحسب العرف ، والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة ، لأنه لو كان قد أقدم على الذنب ثم إنه يطلبه من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعيًا منه في فضيحة نفسه وفي تجديد العيوب التي صارت مندرسة مخفية وإعاق لا يفعل ذلك ، وهب أنه وقع الشك لبعضهم في عصمته أو في نبوته إلا أنه لاشك أنه كان عاقلاً ، ولا يفعل بمنع أن يسعى في فضيحة نفسه وفي حل الأعداء على أن يبالغوا في اظهار عيوبه . وثاني : أن النسوة شهدن في المرة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قال (حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) وفي المرة الثانية حيث قال (حاش لله ما علمنا عليه من سوء) والثالث : أن امرأة العزيز أقرت في المرة الأولى بطهارته حيث قالت (ولقد راودته عن نفسي فاستعصم) وفي المرة الثانية في هذه الآية .

واعلم أن هذه الآية دالة على طهارته من وجوه : أولها : قول المرأة (أنا راودته عن نفسه) وثانيها : قولها (وإنه لمن الصادقين) وهو إشارة إلى أنه صادق في قوله (هي راودتني عن نفسي) وثالثها : قول يوسف عليه السلام (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) والخشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام . قال جبريل عليه السلام . ولا حين هممت ، وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب معتمد ، بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيًا منهم في تحريف ظاهر القرآن . ورابعها : قوله (وَأَن الله لا يهدي كيد الخائنين) يعني أن صاحب الخيانة لا بد وأن يفتضح ، فلو كنت خائناً لوجب أن اقتضح وحيث لم اقتضح وخاضني الله تعالى من هذه الورطة . فكل ذلك يدل على أني ما كنت من الخائنين ، وههنا وجه آخر وهو أقوى من الكل ، وهو أن في هذا الوقت تلك الواقعة صارت مندرسة ، وتلك الخيانة صارت منتمة ، فاقداه على قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة أقدام على وقاحة عظيمة ، وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما ، والأقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلاً لا يليق بأحد من العقلاء فكيف يليق اسناده إلى سيد العقلاء ، وقدوة الأصفياء ؟ فثبت أن هذه الآية تدل دلالة قاطعة على

وَمَا أBRئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَحِمُ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ  
رَحِيمٌ «٥٣»

برأته مما يقوله الجاهل والحشوية .

قوله تعالى «وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم»  
وفى الآية مسائل :

«المسألة الأولى» اعلم أن تفسير هذه الآية يختلف بحسب اختلاف ما قبلها لأننا إن قلنا إن  
قوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) كلام يوسف كان هذا أيضاً من كلام يوسف ، وإن قلنا إن ذلك  
من تمام كلام المرأة كان هذا أيضاً كذلك ونحن نفسر هذه الآية على كلا التقديرين ، أما إذا قلنا  
إن هذا كلام يوسف عليه السلام فالحشوية تمسكوا به وقالوا : إنه عليه السلام لما قال (ذلك ليعلم  
أنى لم أخنه بالغيب) قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت بفك سراويلك فعند ذلك قال يوسف  
(وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) أى بالزنا (إلا ما رحم ربى) أى عصم ربى (إن ربى  
غفور) اللهم الذى هممت به (رحيم) أى لو فعلته لتاب على .

واعلم أن هذا الكلام ضعيف فانا بينا أن الآية المتقدمة برهان قاطع على برأته عن الذنب  
بقى أن يقال : فما جوابكم عن هذه الآية فنقول فيه وجهان :

«الوجه الأول» أنه عليه السلام لما قال (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) كان ذلك جارياً  
مجرى مدح النفس وتركيتها ، وقال تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) فاستدرك ذلك على نفسه بقوله  
(وما أبرئ نفسي) والمعنى : وما أذكرى نفسي أن النفس لأمارة بالسوء ميالة إلى القبايح رغبة في المعصية  
«والوجه الثانى» فى الجواب أن الآية لا تدل البتة على شىء مما ذكره وذلك لأن يوسف  
عليه السلام لما قال (إنى لم أخنه بالغيب) بين أن ترك الحيانة ما كان لعدم الرغبة ولعدم ميل  
النفس والطبيعة . لأن النفس أمارة بالسوء والطبيعة توافقة إلى الذات فبين بهذا الكلام أن الترك  
ما كان لعدم الرغبة ، بل لقيام الخوف من الله تعالى . أما إذا قلنا : إن هذا الكلام من بقية كلام  
المرأة فيه وجهان : الأول : وما أبرئ نفسي عن مرادته ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام  
فى قوله (هى راودتنى عن نفسي) الثانى : أنها لما قالت (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) قالت وما أبرئ  
نفسى عن الحيانة مطلقاً فأنى قد خنته حين قد أحلت الذنب عليه وقلت (ماجزاء من أراد بأهلك



سوما إلا أن يسجن أو عذاب أليم) وأودعته السجن كأنها أرادت الاعتذار مما كان .

فان قيل : جعل هذا الكلام كلاماً ليوسف أولى أم جعله كلاماً للبرأة ؟

قلنا : جعله كلاماً ليوسف مشكل . لأن قوله (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) كلام موصول بضمه ببعض الى آخره ، فالقول بأن بضمه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجازين بعيد . وأيضا جعله كلاماً للبرأة مشكل أيضاً لأن قوله (وما أبرئ نفسي إن النفس لأماراة بالسوء الامارحم ربى) كلام لا يحسن صدوره الا من احتراز عن المعاصي ، ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس ، وذلك لا يليق بالمرأة التي استفرغت جهدها في المعصية .

﴿المسألة الثانية﴾ قالوا (ما) في قوله (الا مارحم ربى) بمعنى «من» والتقدير : الا من رحم ربى ، وما ومن كل واحد منهما يقوم مقام الآخر كقوله تعالى (فانكحوا اطاب لكم من النساء) وقال (ومنهم من يشئ على أربع) وقوله (الا مارحم ربى) استثناء متصل أو منقطع . فيه وجهان : الأول : أنه متصل ، وفي تقريره وجهان : الأول : أن يكون قوله (الا مارحم ربى) أى الا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة كاملاً ثمك . الثانى : الا مارحم ربى أى الا وقت رحمة ربى يعنى أنها أماراة بالسوء فى كل وقت الا فى وقت العصمة .

﴿والقول الثانى﴾ انه استثناء منقطع أى ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الاساءة كقوله (ولا يلام ينصرون الا رحمة منا)

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلف الحكماء فى أن النفس الأماراة بالسوء ماهى والمحققون ؟ قالوا إن النفس الانسانية شئ واحد ، ولها صفات كثيرة . فاذا مالت إلى العالم الالهى كانت نفساً مطمئنة . وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أماراة بالسوء ، وكونها أماراة بالسوء يفيد المبالغة والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألقت المحسوسات والتذت بها وعشقها ، فأما شعورها بعالم المجرذات وميلها اليه ، فذلك لا يحصل إلا نادراً فى حق الواحد ، فالواحد وذلك الواحد فأنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره فى الأوقات النادرة فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسدانى وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادراً لاجرم حكم عليها بكونها أماراة بالسوء ، ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة هى النفس العقلية النطقية ، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية ، والكلام فى تحقيق الحق فى هذا الباب مذكور فى المعقولات .

﴿المسألة الرابعة﴾ تمسك أصحابنا فى أن الطاعة والايمان لا يحصلان إلا من الله بقوله

وَقَالَ الْمَلِكُ اتُّونِي بِهِ أَتَخْلُصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

(الإمام رحم ربي) قالوا دلت الآية على أن انصراف النفس من الشر لا يكون إلا برحمته ؛ ولفظ الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف . فنقول : لا يمكن تفسير هذه الرحمة باعطاء العقل والقدرة والالطاف كما قاله القاضى لأن كل ذلك مشترك بين الكافر والمؤمن فوجب تفسيرها بشئ آخر ، وهو ترجيح داعية الطاعة على داعية المعصية وقد أثبتنا ذلك أيضاً بالبرهان اتقاطع وحينئذ يحصل منه المطلوب .

قوله تعالى ﴿وقال الملك اتئوني به أستخلصه لنفسي﴾ فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال : هو العزيز . ومنهم من قال : بل هو الريان الذي هو الملك الأكبر ، وهذا هو الأظهر لوجهين : الأول : أن قول يوسف (اجعلني على خزائن الأرض) يدل عليه . الثاني : أن قوله (أستخلصه لنفسي) يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصاً له ، وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصاً للعزيز ، فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الأكبر .

﴿المسألة الثانية﴾ ذكروا أن جبريل السلام دخل على يوسف عليه السلام وهو في الحبس وقال «قل اللهم اجعل لي من عندك فرجاً ومخرجاً وارزقني من حيث لا أحسب» فقبل الله دعاءه وأظهر هذا السبب في تخليصه من السجن ، وتقرير الكلام : أن الملك عظم اعتقاده في يوسف لوجوه : أحدها : أنه عظم اعتقاده في علمه . وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته مال الطبع اليه ، وثانيها : أنه عظم اعتقاده في صبره وثباته . وذلك لأنه بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج ما أسرع إلى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أولاً ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم . وثالثها : أنه عظم اعتقاده في حسن أدبه ، وذلك لأنه اقتصر على قوله (ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) وإن كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها ، وتعرض للأمراض النسوة مع أنه وصل اليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء

وهذا من الأدب العجيب . ورابعها : براءة حاله عن جميع أنواع التهم فإن الخضم أقر له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم . وخامسها : أن الشرائى وصف له جده فى الطاعات واجتهاده فى الاحسان إلى الذين كانوا فى السجن . وسادسها : انه بقى فى السجن بضع سنين ، وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد فى الانسان . فكيف مجموعها . فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله شيئاً جمع أسبابه وقواها .

إذا عرفت هذا فنقول : لما ظهر للملك هذه الأحوال من يوسف عليه السلام رغب أن يتخذة لنفسه فقال (ائتوني به أستخلصه لنفسى) روى أن الرسول قال ليوسف عليه السلام قم إلى الملك متظففا من درن السجن بالثياب النظيفة والهبة الحسنة فكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء . ولما دخل عليه قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بغيرتك وقدرتك من شره ثم دخل عليه وسلم ودعا له بالعبرانية والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شوائب الاشتراك وهذا الملك طلب أن يكون يوسف له وحده وأنه لا يشاركه فيه غيره لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة الرفيعة فلما علم الملك أنه وحيد زمانه وفريد أقرانه أراد أن ينفرد به .

روى أن الملك قال ليوسف عليه السلام ما من شيء إلا وأحب أن تشركنى فيه إلا فى أهلى وفى أن لا تأكل معى فقال يوسف عليه السلام . أما ترى أن آكل معك ، وأنا يوسف بن يعقوب ابن إسحق الذبيح بن إبراهيم الخليل عليه السلام . ثم قال (فلما كلمه) وفيه قولان : أحدهما : أن المراد فلما كلم الملك يوسف عليه السلام قالوا لأن فى مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبتدىء بالكلام وإنما الذى يبتدىء به هو الملك . والثانى : أن المراد : فلما كلم يوسف الملك قيل : لما صار يوسف إلى الملك وكان ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة . فلما رآه الملك حدثنا شابا قال للشرائى : هذا هو الذى علم تأويل رؤياى مع أن السحرة والكهنة ما علموها قال نعم . فأقبل على يوسف وقال : إني أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاها . فأجاب بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته . فعند ذلك قال له (إنك اليوم لدينا مكين أمين) يقال : فلان مكين عند فلان بين المكانة أى المنزلة ، وهى حالة يتمكن بها صاحبها ما يريد . وقوله (أمين) أى قد عرفنا أمانتك وبراءتك مما نسبت اليه .

واعلم أن قوله (مكين أمين) كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب ، وذلك لأنه لا بد فى كونه مكينا من القدرة والعلم . أما القدرة فلأن بها يحصل المسكنة . وأما العلم فلأن كونه متمكنا من أفعال الخير لا يحصل إلا به إذ لو لم يكن عالما بما ينبغى وبما لا ينبغى لا يمكنه تخصيص ما ينبغى

بالفعل ، وتخصيص ما لا ينبغي بالترك ، ثبت أن كونه مكنيا لا يحصل إلا بالقدرة والعلم . أما كونه أمينا فهو عبارة عن كونه حكما لا يفعل الفعل لداعى الشهوة بل إنما يفعله لداعى الحكمة ، ثبت أن كونه مكنيا أمينا يدل على كونه قادرا ، وعلى كونه عالما بمواقع الخير والشر والصالح والفساد ، وعلى كونه بحيث يفعل لداعى الحكمة لا لداعية الشهوة ، وكل من كان كذلك فإنه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه فلهذا المعنى لما حاولت المعتزلة اثبات أنه تعالى لا يفعل القبيح قالوا إنه تعالى لا يفعل القبيح لأنه تعالى عالم بقبيح القبيح عالم بكونه غنيا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح قالوا : وإنما يكون غنيا عن القبيح إذا كان قادرا . وإذا كان منزها عن داعية السفه ثبت أن وصفه بكونه مكنيا أمينا نهاية ما يمكن ذكره فى هذا الباب ثم حكى تعالى أن يوسف عليه السلام قال فى هذا المقام (اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) وفيه مسائل :

«المسألة الأولى» قال المفسرون : لما عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك بن يديه قال له الملك : فما ترى أيها الصديق قال : أرى أن تزرع فى هذه السنين المخصبة زرا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام فإذا جاءت السنين المجردة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لى بهذا الشغل فقال يوسف (اجعلنى على خزائن الأرض) أى على خزائن أرض مصر وأدخل الآلاف واللام على الأرض ، والمراد منه المعهود السابق . روى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية أنه قال «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره عنه سنة» وأقول هذا من العجائب لأنه لما تأنى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه ولما تسارع فى ذكر الالتئام أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى .

«المسألة الثانية» لقائل أن يقول : لم طلب يوسف الامارة والنبي عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سمره «لا تسأل الامارة» وأيضا فكيف طلب الامارة من سلطان كافر ، وأيضا لم لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة فى طلب الامارة فى الحال ، وأيضا لم طلب أمر الخزائن فى أول الأمر ، مع أن هذا يورث نوع تهمة . وأيضا كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله (إني حفيظ عليم) مع أنه تعالى يقول (فلا تزكوا أنفسكم) وأيضا فما الفائدة فى قوله (إني حفيظ عليم) وأيضا لم ترك الاستثناء فى هذا فإن الأحسن أن يقول : إني حفيظ عليم ان شاء الله بدليل قوله تعالى (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها . فنقول : الأصل فى جواب هذه



المسائل أن التصرف في أمر الخلق كان واجبا عليه ، فجاز له أن يتوصل اليه بأى طريق كان ، إنما قلنا : إن ذلك التصرف كان واجبا عليه لوجوه : الأول : أنه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق . والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الامكان . والثاني : وهو أنه عليه السلام علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذى ربما أفضى الى هلاك الخلق العظيم ، فلهذا تعالى أمره أن يدير فى ذلك ويأتى بطريق لا يجله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق ، والثالث : أن السعى فى إيصال النفع الى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول .

وإذا ثبت هذا فنقول : إنه عليه السلام كان مكلفا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه ، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق ، وما لا يتم الواجب إلا به . فهو واجب ، فكان هذا الطريق واجبا عليه ولما كان واجبا سقطت الأسئلة بالكلية ، وأما ترك الاستثناء فقال الواحدى : كان ذلك من خطيئة أوجبت عقوبة وهى أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة ، وأقول : لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلبه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلاجل هذا المعنى ترك الاستثناء ، وأما قوله لم مدح نفسه فجوابه من وجوه : الأول : لانسلم أنه مدح نفسه لسكنه بين كونه مصوفا بهاتين الصفتين النافعتين فى حصول هذا المطلوب ، وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف ، لأن الملك وإن علم كاله فى علوم الدين لكنه ما كان عالما بأنه يفتى بهذا الأمر ، ثم نقول هب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس إنما يكون مذموماً إذا قصد الرجل به التفاضل والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل ، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم فقوله تعالى ( فلا تزكوا أنفسكم ) المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية ، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية ( هو أعلم بن اتقى ) أما إذا كان الانسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه والله أعلم .

قوله ما الفائدة فى وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم ؟

قلنا : إنه جار مجرى أن يقول حفيظ بجميع الوجوه التى منها يمكن تحصيل الدخل والمال ، عليم بالجهات التى تصلح لأن يصرف المال اليها ، ويقال : حفيظ بجميع مصالح الناس ، عليم بجهات حاجاتهم أو يقال : حفيظ لوجوه أياديك وكرمك ، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع . وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أراد .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ «٥٦» وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ خَيْرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ «٥٧»

قوله تعالى ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبَّعوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولا جِزاء الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فيه مسائل :

«المسألة الأولى» اعلم أن يوسف عليه السلام لما التمس من الملك أن يجعله على خزان الأرض لم يحك الله عن الملك أنه قال : قد فعلت ، بل الله سبحانه قال (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) فهنا المفسرون قالوا في الكلام محذوف وتقديره : قال الملك قد فعلت ، إلا أن تمكين الله له في الأرض يدل على أن الملك قد أجابه الى ما سأل . وأقول : ما قالوه حسن ، إلا أن ههنا ما هو أحسن منه وهو أن إجابة الملك له سبب في عالم الظاهر . وأما المؤثر الحقيقي : فليس إلا أنه تعالى مكّنه في الأرض ، وذلك لأن ذلك الملك كان متمكناً من القبول ومن الرد ، فنسبة قدرته الى القبول وإلى الرد على التساوى ، وما دام يبقى هذا التساوى امتنع حصول القبول ، فلا بد وأن يترجح القبول على الرد في خاطر ذلك الملك ، وذلك الترجيح لا يكون إلا بمرجح يخلقه الله تعالى ، وإذا خلق الله تعالى ذلك المرجح حصل القبول لا محالة . فالتمكن ليوسف في الأرض ليس إلا من خلق الله تعالى في قلب ذلك الملك مجموع القدرة والداعية الجازمة اللتين عند حصولهما يجب الأثر ، فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر إجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الإلهي ، لأن المؤثر الحقيقي ليس إلا هو .

«المسألة الثانية» روى أن الملك توجه وأخرج خاتم الملك وجعله في أصبعه وقلد بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت ، فقال يوسف عليه السلام : أما السرير فأشده بملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك ، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي ، وجلس على السرير ودانت له القوم ، وعزل الملك قطيفير زوج المرأة المعلومه ومات بعد ذلك وزوجه الملك امرأته ، فلما دخل عليها قال أليس هذا خيراً مما طلبت ، فوجدها عذراء فولدت له ولدين أفرام وميشا . وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء ، وأسلم على يده الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سنى القحط الطعام بالدرهم والدنانير في السنة الأولى . ثم بالحنى والجواهر في السنة الثانية

ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار . ثم برقابهم حتى استرقهم سنين . فقالوا والله ما رأينا ملكاً نصحه شأناً من هذا الملك حتى صار كل الخلق عبيداً له فلما سمع ذلك قال إني أشهد الله أنني أعتقت أعز مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم . وكان لا يبيع لأحد ممن يطلب الطعام أكثر من خمس لثلا يضيق الطعام على الباقيين هكذا رواه صاحب الكشاف والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (وكذلك) الكف منصوبة بالتمكين . وذلك إشارة إلى ما تقدم يعنى به ومثل ذلك الانعام الذى أنعمنا عليه فى تزييننا إياه من قلب الملك وإنجائنا إياه من غم الحبس . وقوله (مكننا يوسف فى الأرض) أى أقدرناه على ما يريد برفع الموانع وقوله (يتبوأ منها حيث يشاء) يتبوأ فى موضع نصب على الحال تقديره مكنناه متبواً وقرأ ابن كثير (نشأ) بالنون مضافاً إلى الله تعالى والباقيون بالياء مضافاً إلى يوسف .

واعلم أن قوله ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ يدل على أنه صار فى الملك بحيث لا يدافعه أحد . ولا ينزاعه منازع بل صار مستقلاً بكل ما شاء وأراد . ثم بين تعالى ما يؤكد أن ذلك من قبله فقال (نصيب برحمتنا من نشاء)

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً أن ذلك التمكن كان من الله لا من أحد سواه وهو قوله (كذلك مكننا يوسف فى الأرض) ثم أكد ذلك ثانياً بقوله (نصيب برحمتنا من نشاء) وفيه فائدتان :  
﴿الفائدة الأولى﴾ أن هذا يدل على أن الكل من الله تعالى . قال القاضى : تلك المملكة لما لم تتم إلا بالأمور فعلمنا الله تعالى صارت كأنها حصلت من قبله تعالى .

وجوابه : أنا ندعى أن نفس تلك المملكة إنما حصلت من قبل الله تعالى . لأن لفظ القرآن يدل على قولنا ، والبرهان القاطع الذى ذكرناه يقوى قولنا ، فصرف هذا اللفظ إلى المجاز لا سبيل إليه .

﴿الفائدة الثانية﴾ أنه أتاه ذلك الملك بمحض المشيئة الإلهية والقدرة النافذة . قال القاضى : هذه الآية تدل على أنه تعالى يجرى أمر نعمه على ما يقتضيه الصلاح .

قلنا : الآية تدل على أن الأمور معلقة بالمشيئة الإلهية والقدرة المحضة . فأما رعاية قيد الصلاح . فأمر اعتبرته أنت من نفسك مع أن اللفظ لا يدل عليه .

ثم قال تعالى (ولا نضيع أجر المحسنين) وذلك لأن إضاعة الأجر إما أن يكون للمجرأ وللجمل أو للبخل والكل بمنع فى حق الله تعالى ، فكانت الإضاعة بمنتهى .

واعلم أن هذا شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان من المحسنين ولو صدق أقوال

بأنه جلس بين شعبها الأربع لامتتع أن يقال : انه كان من المحسنين ، فلهذا لم يكذب الله في حكمه على يوسف بأنه كان من المحسنين وهو عين الكفر أو لم يكذب الحشوى فيما رواه وهو عين الإيمان والحق .

ثم قال تعالى ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) في تفسير هذه الآية قولان :

(القول الأول) المراد منه أن يوسف عليه السلام وإن كان قد وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا . إلا أن الثواب الذي أعد الله له في الآخرة خير وأفضل وأكمل . وجهات الترجيح قد ذكرناها في هذا الكتاب مراراً وأطواراً . وحاصل تلك الوجوه أن الخير المطلق هو الذي يكون نفعاً خالصاً دائماً مقروناً بالتعظيم ، وكل هذه القيود الأربعة حاصلة في خيرات الآخرة ومفقودة في خيرات الدنيا .

(القول الثاني) أن لفظ الخير قد يستعمل لكون أحد الخبرين أفضل من الآخر كما يقال : الجلاب خير من المساء وقد يستعمل لبيان كونه في نفسه خيراً من غير أن يكون المراد منه بيان التفضيل كما يقال : الثريد خير من الله . يعني الثريد خير من الخيرات حصل باحسان من الله .

إذا ثبت هذا فقوله (ولأجر الآخرة خير) إن حملناه على الوجه الأول لمزم أن تكون ملاذ الدنيا موصوفة بالخيرية أيضاً . وأما إن حملناه على الوجه الثاني لمزم أن لا يقال ان منافع الدنيا أيضاً خيرات . بل لعله يفيد أن خير الآخرة هو الخير ، وأما ماسواه فعبث .

(المسألة الثانية) لاشك أن المراد من قوله (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) شرح حال يوسف عليه السلام فوجب أن يصدق في حقه أنه من الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهذا تنصيص من الله عز وجل . على أنه كان في الزمان السابق من المتقين ، وليس ههنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج إلى بيان أنه كان فيه من المتقين إلا ذلك الوقت الذي قال الله فيه (ولقد همت به وهم بها) فكان هذا شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين ، وأيضاً قوله (ولا نضع أجر المحسنين) شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان من المحسنين . وقوله (إنه من عبادنا المخلصين) شهادة من الله تعالى على أنه من المخلصين فثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين ، والجاهل الحشوى يقول : إنه كان من الأخسر المذنبين ، ولا شك أن من لم يقل بقول الله سبحانه وتعالى مع هذه التأكيدات كان من الأخسرين .



وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا  
 جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ أَمْ أَوْفَى السَّكِيلِ وَأَنَا  
 خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا  
 سَرَّأَوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾

(المسألة الثالثة) قال القاضي : قوله تعالى (ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا  
 يتقون) يدل على بطلان قول المرجسة : الذين يزعمون أن الثواب يحصل في الآخرة لمن لم  
 يتق الكبائر .

قلنا : هذا ضعيف ، لأننا ان حملنا لفظ خير على أفعال التفضيل لزم أن يكون الثواب الحاصل  
 للمتقين أفضل ولا يلزم أن لا يحصل لغيرهم أصلا ، وان حملناه على أصل معنى الخيرية ، فهذا يدل  
 على حصول هذا الخير للمتقين ولا يدل على أن غيرهم لا يحصل لهم هذا الخير .

قوله تعالى «وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ولما جهزهم بجهازهم  
 قال اتوني بأخ لكم من أياكم ألا ترون أني أوف السكيل وأنا خير المنزلين فان لم تأتوني به فلا كيل  
 لكم عندي ولا تقربون قالوا سرأود عنه أباه وإنا لفاعلون»

اعلم أنه لما عم القحط في البلاد ، ووصل أيضا إلى البلدة التي كان يسكنها يعقوب عليه  
 السلام وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه إن بمصر رجلا صالحا يبيع الناس فاذهبوا إليه بديارهمكم  
 وخذوا الطعام فخرجوا إليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف عليه السلام وصارت هذه الواقعة  
 كالسبب في اجتماع يوسف عليه السلام مع اخوته وظهور صدق ما أخبر الله تعالى عنه في قوله  
 ليوسف عليه السلام حال ما ألقوه في الحب (لتبينهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وأخبر تعالى أن  
 يوسف عرفهم وهم ما عرفوه البتة ، أما انه عرفهم فلانه تعالى كان قد أخبر في قوله (لتبينهم بأمرهم)  
 بأنهم يصلون إليه ويدخلون عليه ، وأيضا الرؤيا التي رآها كانت دليلا على أنهم يصلون إليه ، فلهذا  
 السبب كان يوسف عليه السلام مترصدا لذلك الأمر ، وكان كل من وصل إلى بابه من البلاد البعيدة  
 يتفحص عنهم ويتعرف أحوالهم ليعرف أن هؤلاء الواصلين هل هم اخوته أم لا فلما وصل إخوة

يوسف إلى باب داره تفحص عن أحوالهم تفحصا ظهر له أنهم اخوته ، وأما أنهم ما عرفوه فلوجه : الأول : أنه عليه السلام أمر حجابيه بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم إلا بالواسطة ومتى كان الأمر كذلك لاجرم أنهم لم يعرفوه لاسيما مهابة الملك وشدة الحاجة يوجبان كثرة الخوف ، وكل ذلك مما يمنع من التأمل التام الذي عنده يحصل العرفان . والثاني : هو أنهم حين ألقوه في الجب كان صغيرا ، ثم لمنهم رأوه بعد وفور اللحية ، وتغير الزي والهئية فانهم رأوه جالسا على سريره ، وعليه ثياب الحرير ، وفي عنقه طوق من ذهب ، وعلى رأسه تاج من ذهب ، والقوم أيضا نسوا واقعة يوسف عليه السلام لطول المدة . فيقال : إن من وقت ما ألقوه في الجب إلى هذا الوقت كان قد مضى أربعون سنة ، وكل واحد من هذه الأسباب يمنع عن حصول المعرفة . لاسيما عند اجتماعها ، والثالث : أن حصول العرفان والتذكير بخلق الله تعالى ، فلعلة تعالى ما خلق ذلك العرفان ، والتذكير في قلوبهم تحقيقا لما أخبره به بقوله ( لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ) وكان ذلك من معجزات يوسف عليه السلام ،

ثم قال تعالى ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ قال الليث : جهزت القوم تجهيزا إذا تكلفت لهم جهازهم للسفر ، وكذلك جهاز العروس والميت وهو ما يحتاج إليه في وجهه . قال : وسمعت أهل البصرة يقولون : الجهاز بالسكر . قال الأزهرى : القراء كلهم على فتح الجيم ، والسكسر لغة ليست بجيدة ، قال المفسرون : حمل لكل رجل منهم بيرا وأكرهم أيضا بالنزول وأعطاهم ما احتاجوا إليه في السفر ، فذلك قوله ( جهزهم بجهازهم ) ثم بين تعالى أنه لما جهزهم بجهازهم قال ( اتقوا بأخ لكم من أبيكم )

واعلم أنه لا بد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببا لسؤال يوسف عن حال أخيه . وذكروا فيه وجوها :

( الوجه الأول ) وهو أحسنها إذ عادة يوسف عليه السلام مع الكل أن يعطيه حمل بعير لا يزيد عليه ولا أنقص ، وإخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة ، فأعطاهم عشرة أحمال ، فقالوا : إن لنا أبا شيخا كبيرا وأخا آخر بقي معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر ، وأن أخاهم بقي في خدمة أبيه ولا بد لها أيضا من شيء من الطعام فجهز لها أيضا بعيرين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم . وهذا شيء عجيب لأنكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم دل هذا على أن ذلك أعجوبة في العقل . وفي الفضل والأدب فحيثوني به حتى أراه فهذا السبب محتمل مناسب

﴿والوجه الثانى﴾ أنهم لما دخلوا عليه ، عليه السلام وأعطاهم الطعام قال لهم : من أنتم ؟ قالوا نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فجتنا نمتار فقال : لعلمكم جئتم عيوننا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد شيخ صديق نبي اسمه يعقوب قال : كم أنتم قالوا : كنا اثني عشر فهلك منا واحد وبقي واحد مع الأب يتسلى به عن ذلك الذى هلك ، ونحن عشرة وقد جئتكم قال : فدعوا بعضكم عندى رهينة واتنوني بأخ لكم من أيبكم ليبلغ الى رسالة أيبكم فعند هذا أفرعوا بينهم فأصاب القرعة شمعون ، وكان أحسنهم رأيا في يوسف فخلفوه عنده .

﴿والوجه الثالث﴾ لعلمهم لما ذكروا أباهم قال يوسف : فلم تركتموه وحيدا فريدا ؟ قالوا : مات تركناه وحيدا ، بل بقى عنده واحد . فقال لهم : لم استخلصه لنفسه ولم خصه بهذا المعنى لأجل نقص في جسده ؟ فقالوا : لا . بل لأجل أنه يحبه أكثر من محبته لسائر الأولاد فعند هذا قال يوسف لما ذكرتم أن أباكم رجل عالم حكيم بعيد عن المجازفة ، ثم انه خصه بمزيد المحبة وجب أن يكون زائدا عليكم في الفضل ، وصفات الكمال مع اني أراكم فضلاء علماء حكماء فاشتاق نفسي إلى رؤية ذلك الأخ فأتوني به ، والسبب الثانى : ذكره المفسرون ، والاول والثالث محتمل والله أعلم .

ثم إنه تعالى حكى عنه أنه قال (ألا ترون أنى أوف الكيل) أى أتمه ولا أنقصه . وأريدكم حمل بعير آخر لأجل أخيك ، وأنا خير المنزلين ، أى خير المضيقين لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم . وأقول : هذا الكلام يضعف الوجه الثانى وهو الذى نقلناه عن المفسرين ، لأن مدار ذلك الوجه على أنه اتهمهم ونسبهم الى أنهم جواسيس ، ولو شافهم بذلك الكلام فلا يليق به أن يقوم لهم (ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين) وأيضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون ، مع أنه يعرف برأيتهم عن هذه التهمة . لأن البهتان لا يليق بحال الصديق .

ثم قال ﴿فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى ولا تقرّبون﴾

واعلم أنه عليه السلام لما طلب منهم إحضار ذلك الأخ جمع بين الترغيب والترهيب . أما الترغيب : فهو قوله (ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين) وأما الترهيب : فهو قوله (فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى ولا تقرّبون) وذلك لأنهم كانوا في نهاية الحاجة الى تحصيل الطعام . وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، فاذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف ، ثم إنهم لما سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا (سنراود عنه أباه وإننا لفاعلون) أى سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده ، وإننا لفاعلون هذه المارودة ، والغرض من التكرير

وَقَالَ لَفَتْيَانَاهُ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رَحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «٦٢» فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلْنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَخَافُضُونَ «٦٣» قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «٦٤»

التأكيد ، ويحتمل أن يكون (وإنما لفاعلون) أن نجيئك به ، ويحتمل (وإنما لفاعلون) كل ما في وسعنا من هذا الباب .

قوله تعالى ﴿وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمتكم على أخيه من قبل فإله خير حافظا وهو أرحم الراحمين﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم لفتياناه بالآلف والنون والباقون (لفتيتاه) بالتاء من غير ألف ، وهما لغتان كالصبيان والصبية ، والاخوان والاخوة قال أبو علي الفارسي الفتيه جمع فتي في العدد القليل والفتيان للكثير ، فوجه البناء الذي للعدد القليل أن الذين يحيطون بما يجعلون بضاعتهم فيه من رحالهم يكونون قليلا لأن هذا من باب الاسرار فوجب صونه إلا عن العدد القليل ووجه الجمع الكثير أنه قال (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) والرحال تفيد العدد الكثير فوجب أن يكون الذين يباشرون ذلك العمل كثيرين .

﴿المسألة الثانية﴾ اتفق الاكثرون على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم ومنهم من قال إنهم كانوا عارفين به . وهو ضعيف لأن قوله (لعلهم يعرفونها) يبطل ذلك ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم على وجود : الأول : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه . علموا أن ذلك كان كرماً من يوسف وسخاء فبيعهم ذلك على العود اليه والحرص على معاملته . الثاني : خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى



ثالث . أراد به التوسعة على نفسه لأن الزمان كان زمان قحط . الرابع : رأى أن أحد ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى طعامهم . الخامس : قال القراء : إنهم مى شاعروا بضاعتهم في رحالهم . وقع في طوره أنهم : ضموا تلك البضاعة في رحالهم على حبل الدبر وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه . أوردوا اليردوا المسال إلى مالكة . السادس : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا مشة . خالف : مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك إلا لخير لا لئلا يظلم ولا لطلب زيادة في الثمن . سابع : أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له لمزيد الأكرام فلا يتقل على أبيه إرسال أخيه . ثامن : أراد أن يكون ذلك المسال معونة لهم على شدة الزمان ، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق . فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى خفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم . "عاشر : أراد أن يقابل مبالغتهم في الاساءة بمبالغته في الاحسان إليهم .

ثم انه تعالى حكى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا السكيل ) وفيه قولان : الأول : أنهم لم يطلبوا الطعام لأبيهم وللأخ الباقي عند منعوا عنه . فقولهم (منع منا السكيل) إشارة إليه . والثاني : أنه منع السكيل في المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف (فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي) والدليل على أن المراد ذلك قولهم (فأرسل معنا أخانا نكتل) قرأ حمزة والكسائي : (يكتل) بالياء . والباقون بالنون ، والقراءة الأولى أقوى القول الأول ، والقراءة الثانية أقوى القول الثاني . ثم قالوا (وإننا له لحافظون) ضمنوا كونهم حافظين له . فلما قالوا ذلك قال يعقوب عليه السلام (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) والمعنى أنكم ذكرتم قبل هذا الكلام في يوسف وضمنتم له حفظه حيث قلتم (وإننا له لحافظون) ثم ههنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه فهل يكون ههنا أمان إلا ما كان هناك يعني لما لم يحصل الأمان هناك فكذلك لا يحصل ههنا .

ثم قال (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) قرأ حمزة . والكسائي (حافظاً) بالالف على التمييز والتفسير على تقدير هو خير لكم حافظا كقولهم : هو خير من رجاله لله دره فارسا ، وقيل : على الحال والباقون (حفظا) بغير ألف على المصدر يعني خيركم حفظا يعني حفظ الله لبنيامين خير من حفظكم . وقرأ الأعشى (فالله خير حافظ) وقرأ أبو هريرة رضى الله عنه خير الحافظين وهو أرحم الراحمين ، وقيل : معناه وثقت بكم في حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان فالآن أتوكل على الله في حفظ بنيامين .

فان قيل : لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ  
بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَمِمِّرُ أَهْلِنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ  
يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾

قلنا : لوجود : أحدها : أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح ، وثانيها : أنه كان يشاهد أنه ليس  
بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام ، وثالثها : أن ضرورة  
الفتح أحوجته إلى ذلك ، ورابعها : لعله تعالى أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه .  
فان قيل : هل يدل قوله (فالله خير حافظا) على أنه أذن في ذهاب ابنه بنيامين في ذلك الوقت .  
قلنا : لا كثرون قالوا : يدل عليه . وقال آخرون : لا يدل عليه ، وفيه وجهان : الأول : التقدير  
أنه لو أذن في خروجه معهم لكان في حفظ الله لافي حفظهم . الثاني : أنه لما ذكر يوسف قال :  
(فالله خير حافظا) أي ليوسف لأنه كان يعلم أنه حي .

قوله تعالى ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا  
ردت إلينا وممير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾  
اعلم أن المتاع ما يصلح لأن يستمتع به وهو عام في كل شيء ، ويجوز أن يراد به ههنا الطعام الذي  
حملوه ، ويجوز أن يراد به أوعية الطعام .

ثم قال ﴿وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ واختلف القراء في (ردت) فالأكثر بضم الراء ،  
وقرأ علقمة بكسر الراء . قال صاحب الكشف : كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء كما في قيل  
وبيع . وحكى قطرب أنهم قالوا في قولنا : ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد .  
وأما قوله (مانبغى) ففي كلمة (ما) قولان :

﴿القول الأول﴾ أنها للنفى ، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه : الأول : أنهم كانوا قد وصفوا  
يوسف بالكرم واللطف وقالوا : إنا قد منا على رجل في غاية الكرم أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان  
رجلا من آل يعقوب لما فعل ذلك ، فقولهم (مانبغى) أي بهذا الوصف الذي ذكرناه كذاب ولا  
ذكر شيء لم يكن . الثاني : أنه بلغ في الإكرام إلى غاية ما وراءها شيء آخر ، فانه بعد أن بالغ  
في إكرامنا أمر ببضاعتنا فردت إلينا . الثالث : المعنى أنه رد بضاعتنا إلينا ، فنحن لا نبغى منك عند  
رجوعنا إليه بضاعة أخرى ، فان هذه التي معنا كافية لنا .

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

(والقول الثاني) أن كلمة «ما» ههنا للاستفهام ، والمعنى : لما رأوا أنه رد إليهم بضاعتهم قالوا : ما نبقى بعد هذا ، أى أعطانا الطعام ، ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه ، فأى شيء نبغى وراء ذلك ؟

واعلم أنا إذا حملنا «ما» على الاستفهام صار التقدير أى شيء نبغى فوق هذا إلا كرام إن الرجل رد دراهمنا إلينا فإذا ذهبنا إليه نمر أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير بسبب حضور أخيها . قال الأصمعي : يقال ماره بعيره ميرا إذا أتاه بعيره أى بطعام ومنه يقال : ما عنده خير ولا مير وقوله (ونزداد كيل بعير) معناه : أن يوسف عليه السلام كان يكيل لكل رجل حمل بعير فإذا حضر أخوه فلا بد وأن يزداد ذلك الحمل ، وأما إذا حملنا كلمة «ما» على التثنية كان المعنى لا نبغى شيئا آخر هذه بضاعتنا ردت إلينا فهي كافية لثمن الطعام في الذهاب الثاني ، ثم فعل كذا وكذا .

وأما قوله ﴿ذلك كيل يسير﴾ ففيه وجوه : الأول : قال مقاتل : ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن لسخائه وحرصه على البذل وهو اختيار الزجاج . والثاني : ذلك كيل يسير ، أى قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير . والثالث : أن يكون المراد ذلك الذى يدفع إلينا دون أخيها شيء يسير قليل فابعث أخانا معنا حتى يتبدل تلك القلة بالكثرة .

قوله تعالى ﴿قال إن أرسله معكم حتى تؤتوني مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

اعلم أن الموثق مصدر بمعنى الثقة ، ومعناه : العهد الذى يوثق به فهو مصدر بمعنى المفعول يقول : إن أرسله معكم حتى تعطوني عهدا موثقًا به وقوله (من الله) أى عهدا موثقًا به بسبب تأكده بأشهاد الله وبسبب القسم بالله عليه . وقوله (لتأتُننِي به) دخلت اللام ههنا لأجل أنا بيننا أن المراد بالموثق من الله اليمين فتقديره : حتى تحلفوا بالله لتأتُننِي به . وقوله (إلا أن يحاط بكم) فيه بحثان :

(البحث الأول) قال صاحب الكشاف : هذا الاستثناء متصل . فقوله (إلا أن يحاط بكم) مفعول له . والكلام المثبت الذى هو قوله (لتأتُننِي به) فى تأويل المنفى . فكان المعنى : لا تتمتعون

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

من الآيات به لعله من العلل لإلهة واحدة .

﴿البحث الثاني﴾ قال الواحدى للمفسرين فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ ان قوله (إلا أن يحاط بكم) معناه اهلك قال مجاهد : إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندي ، والعرب تقول أحيط بفلان إذا قرب هلاكه قال تعالى (وأحيط بثمره) أى أصابه ما أهلكه . وقال تعالى (وظنوا أنهم أحيط بهم) وأصله أن من أحاط به العدو وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه ، فقيل : لكل من هلك قد أحيط به .

﴿والقول الثاني﴾ ما ذكره قتادة (إلا أن يحاط بكم) إلا أن تصيروا مغلوبين مهضومين ، فلا تقدرؤن على الرجوع .

ثم قال تعالى ﴿قل يا آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾ يريد شهيد . لأن الشهيد وكيل بمعنى أنه موكل اليه هذا العهد فان وفيتهم به جازاكم بأحسن الجزاء ، وإن غدرتم فيه كافاكم بأعظم العقوبات .

قوله تعالى ﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء﴾ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكول المتوكلون ﴿

اعلم أن أبناء يعقوب لما عزموا على الخروج إلى مصر . وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد قال لهم (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وفيه قولان : الأول : وهو قول جمهور المفسرين أنه خاف من العين عليهم ولنا ههنا مقامان :

﴿المقام الأول﴾ اثبات ان العين حق والذي يدل عليه وجوه : الأول : اطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك . والثاني : ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ويقول هكذا كان يعوذ إبراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله عليهم . والثالث : ما روى عبادة ابن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول النهار فرأيت شديداً الوجع ثم



عدت اليه آخر النهار فرأيتُه معافى فقال «إن جبريل عليه السلام أتاني ورقاني فقال : بسم الله أريك من كل شيء يؤذيكَ ومن كل عين وحاسد الله يشفيكَ» قال فأفقت والرابع : روى أن بي جعفر ابن أبي طالب كانوا غلبنا بيضا . فقالت أسماء : يا رسول الله إن العين لهم سريرة أفأسترقى لهم من العين فقال لها نعم . والخامس : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا : يا رسول الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين . والسادس : قوله عليه السلام «العين حق ولو كان شيء يسبق القدر لسبقت العين القدر» والسابع : قالت عائشة رضی الله عنها : كان يأمر العائن أن يتوضأ ثم يغسل منه المعين الذي أصيب بالعين .

(المقام الثاني) في الكشف عن ماهيته فنقول : إن أبا علي الجبائي أنكر هذا المعنى انكاراً بليغاً ولم يذكر في انكاره شبهة فضلا عن حجة ، وأما الذين اعترفوا به وأقروا بوجوده فقد ذكر وافيهِ وجوهاً : الأول : قال الخافض : إنه يمتد من العين أجزاء فتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه وتسرى فيه كتأثير السمع والشم والنار ، وإن كان مخالفاً في جهة التأثير لهذه الأشياء قال قاضي : وهذا ضعيف لأنه لو كان الأمر كما قال ، لوجب أن يؤثر في الشخص الذي لا يستحسن كتأثيره في المستحسن وأعلم أن هذا الاعتراض ضعيف . وذلك لأنه إذا استحسن شيئاً فقد يجب بقاءه كما إذا استحسن ولد نفسه وبستان نفسه ، وقد يكره بقاءه أيضاً كما إذا أحس الحاسد بشيء . حصل لعدوه ، فإن كان الأول فانه يحصل له عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح في داخل القلب فيختد يسخن القلب والروح جداً . ويحصل في الروح الباصرة كيفية قوية مسخنة وإن كان الثاني : فانه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد وحنن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه . والحنن أيضاً يوجب انحصار الروح في داخل القلب ويحصل فيه سخونة شديدة ، ثبت أن عند الاستحسان القوى تسخن الروح جداً فيسخن شعاع العين بخلاف ما إذا لم يستحسن فانه لا تحصل هذه السخونة فظهر الفرق بين الصورتين ، ولهذا السبب أمر الرسول صلى الله عليه وسلم العائن بالوضوء ومن أصابته العين بالاغتسال .

(الوجه الثاني) قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي إنه لا يمتنع أن تكون العين حقاً . ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقاً به . فهذا المعنى غير ممتنع ، ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الإعجاب وسأل ربه تقيّة ذلك ، فعنده تعين المصلحة ولما كانت هذه العادة مطردة لا جرم قيل العين حق .

﴿الوجه الثالث﴾ وهو قول الحكماء قالوا هذا الكلام مبنى على مقدمة . وهي أنه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أغنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً ، ولا يكون للقوى الجسدية بها تعلق . والذي يدل عليه أن اللوح الذي يكون قليل العرض إذا كان موضوعاً على الأرض . قدر الإنسان على المشي عليه . ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليتين لعجز الإنسان عن المشي عليه ، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة . وأيضاً أن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له حصل في قلبه غضب . ويسخن مزاجه جداً فبدأ تلك السخونة ليس الا ذلك التصور النفساني ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس الا التصورات النفسانية . فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها الى سائر الأبدان . فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان وأيضاً جواهر النفوس المختلفة بالمهابة فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه ، فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه والنفوس النبوية نطقت به فعنده لا يبقى في وقوعه شك .

وإذا ثبت هذا ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية باصالة العين كلام حق لا يمكن رده .

﴿القول الثاني﴾ وهو قول أبي علي الجبائي : أن أبناء يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وإحسانهم . فقال (لاتدخلوا) تلك المدينة (من باب واحد) على ما أتم عليه من العدد والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال : لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكة فيحبسهم . واعلم أن هذا الوجه محتمل لا إنكار فيه إلا أن القول الأول قد بينا أنه لا امتناع فيه بحسب العقل والمفسرون أطبقوا عليه فوجب المصير إليه . ونقل عن الحسن أنه قال : خاف عليهم العين ، فقال : (لاتدخلوا من باب واحد) ثم رجع إلى علمه وقال (وما أغنى عنكم من الله من شيء) وعرف أن العين ليست بشيء وكان قتادة يفسر الآية باصالة العين ويقول : ليس في قوله (وما أغنى عنكم من الله من شيء) إبطال له لأن العين وإن صح فأنه قادر على دفع أثره .

﴿القول الثالث﴾ أنه عليه السلام كان عالماً بأن ملك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى مآذنه في إظهار ذلك فلما بعث أبناءه اليه قال (لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف في وقت الخلوة ، وهذا قول إبراهيم النخعي ، فأما

قوله (وما أغنى عنكم من الله من شيء) فاعلم أن الانسان مأمور بأن يراعى الأسباب المعتمدة في هذا العالم ومأمور أيضا بأن يعتمد ويحزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى وأن الخلد لا ينجي من القدر، فإن الانسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة . والأغذية الضارة . ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان . ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون جازما بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله ولا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله فقوله عليه السلام (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) فهو إشارة الى رعاية الأسباب المعتمدة في هذا العالم ، وقوله (وما أغنى عنكم من الله من شيء) إشارة الى عدم الالتفات الى الأسباب والى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى وقول نقائل : كيف السبيل الى الجمع بين هذين القولين ، فهذا السؤال غير مختص به ، وذلك لأنه لا نزاع في أنه لا بد من إقامة الطاعات ، والاحتراز عن المعاصي والسيئات مع أننا نعتقد أن السعيد من سعد في بطن أمه ، وأن الشقي من شقي في بطن أمه . فكذا ههنا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول في النار مع أن الموت والحياة لا يحصلان الا بتقدير الله تعالى ، فكذا ههنا ، فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام ، بل هو بحث عن سر مسألة الجبر والقدر ، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة . وبعد ذلك "سعى البليغ والجد الجهد" فإنه يعلم أن كل ما يدخل في الوجود فلا بد وأن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى ، فقال (إن الحكم إلا لله)

واعلم أن هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا في القضاء والقدر . وذلك لأن الحكم عبارة عن الالتزام والمنع من التقيض وسميت حكمة الدابة بهذا الاسم . لأنها تمتنع الدابة عن الحركات الفاسدة والحكم إنما سمي حكما لأنه يقتضى ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر بحيث يصير الطرف الآخر ممتنع الحصول . فبين تعالى أن الحكم بهذا التفسير ليس إلا لله سبحانه وتعالى . وذلك يدل على أن جميع الممكنات مستندة إلى قضائه وقدره ومشيئته وحكمه ، إما بغير واسطة وإما بواسطة ثم قال (عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) ومنه أنه لما ثبت أن الكل من الله ثبت أنه لا توكل إلا على الله وأن الرغبة ليست إلا في رجحان وجود الممكنات على عدها وذلك الرجحان المانع عن التقيض هو الحكم . وثبت بالبرهان أنه لا حكم إلا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله ، ويوجب أنه لا توكل إلا على الله فهذا مقام شريف عال ونحن قد أشرنا إلى ما هو البرهان الحق فيه والشايخ أبو حامد الغزالي رحمه الله أطنب في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتاب إحياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَانَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

قوله تعالى ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَانَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال المفسرون : لما قال يعقوب : وما أغنى عنكم من الله من شيء ، صدقه الله في ذلك فقال : وما كان ذلك التفرق يغني من الله من شيء وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمرا قدره الله . وقال الزجاج : إن العين لو قدر أن تصيبيهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبيهم وهم مجتمعون . وقال ابن الأنباري : لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم عند الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم ، وهذه الكلمات متقاربة ، وحاصلها أن الحذر لا يدفع القدر .

﴿البحث الثاني﴾ قوله (من شيء) يحتمل النصب بالمفعولية والرفع بالفاعلية . ﴿أما الأول﴾ فهو كقوله ما رأيت من أحد ، والتقدير : ما رأيت أحدا ، فكذا ههنا تقدير الآية : أن تفرقهم ما كان يغني من قضاء الله شيئا ، أي ذلك التفرق ما كان يخرج شيئا من تحت قضاء الله تعالى .

﴿وأما الثاني﴾ فكقولك : ما جاءني من أحد ، وتقديره ما جاءني أحد . فكذا ههنا التقدير : ما كان يغني عنهم من الله شيء مع قضائه .

أما قوله ﴿إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ فقال الزجاج : إنه استثناء منقطع ، والمعنى : لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها ، يعني أن الدخول على صفة التفرق قضاء حاجة في نفس يعقوب قضاها ، ثم ذكروا في تفسير تلك الحاجة وجوها : أحدها : خوفه عليهم من إصابة العين ، وثانيها : خوفه عليهم من حسد أهل مصر ، وثالثها : خوفه عليهم من أن يقصدهم ملك مصر بشر ، ورابعها : خوفه عليهم من أن لا يرجعوا إليه ، وكل هذه الوجوه متقاربة .

وأما قوله ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَانَا﴾ فقال الواحدي : يحتمل أن تكون (ما) مصدرية والماء عائدة إلى يعقوب ، والتقدير : وإنه لذو علم من أجل تعليمنا إياه ، ويمكن أن تكون (ما) بمعنى الذي والماء



وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ  
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ  
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا ابْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا  
تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حُمْلٌ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ  
زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

عائدة إليها ، والتأويل وإنه لدو علم لاشئ الذى علمناه ، يعنى انما علمناه شيئا حصل له العلم بذلك الشئ ،  
وفى الآية قولان آخران : الأول : أن المراد بالعلم الحفظ ، أى أنه لدنو حفظ لما علمناه ومراقبة  
له والثانى : لدنو علم لقوائد ماعلمناه وحسن آثاره وهو اشارة الى كونه عاملا بما علمه ، ثم قال  
(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وفيه وجهان : الأول : ولكن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم  
يعقوب . والثانى : لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم ، والمراد بأكثر الناس . المشركون ، فانهم  
لا يعلمون بأن الله كيف أرشد أوليائه إلى العلوم التى تفهمهم فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا  
يعملون فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون  
قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم﴾

اعلم انهم لما اتوه بأخيه بنيامين اكرمهم و اضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى  
بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجسنى معه فقال يوسف بقى أخوكم وحيدا  
فاجلسه معه على مائدة ثم أمر أن ينزل منهم كل اثنين بيتا وقال : هذا لثاني له فاتركوه معى فأواه  
إليه . ولما رأى يوسف تأسفه على أخ له هلك قال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك  
قال : من يجد أخا مثلك ولستك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه  
وعانقه وقال : إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون .

إذا عرفت هذا فقول : قوله ( آوى إليه أخاه ) أى أنزله فى الموضع الذى كان يأوى إليه .  
وقوله ( إني أنا أخوك ) فيه قولان : قال وهب : لم يرد أنه أخوه من النسب ، ولكن أراد به إني

أقوم لك مقام أخيك في الأيناس لثلاث تستوحش بالتفرد . والصحيح ماعليه سائر المفسرين من أنه اراد تعريف النسب ، لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الأانس . ولأن الأصل في الكلام الحقيقة ، فلا وجه لصرفه عنها الى المجاز من غير ضرورة .

وأما قوله ﴿فلا تبتئس﴾ فقال أهل اللغة : تبتئس فتفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس . وقوله (بما كانوا يعملون) فيه وجوه : الأول : المراد بما كانوا يعملون من إقامتهم على حسدنا والحرص على انصراف وجه أيتنا عنا ، الثاني : أن يوسف عليه السلام مابق في قلبه شيء من العداوة وصار صافيا مع إخوته ، فأراد أن يجعل قلب أخيه صافيا معهم أيضا ، فقال ﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ أى لا تلتفت الى ما صنعوه فيما تقدم ، ولا تلتفت الى أعمالهم المنكرة التى أقدموا عليها . الثالث : أنهم إنما فعلوا يوسف ما فعلوه ، لأنهم حسدوه على إقبال الأب عليه وتخصيصه بمزيد الاكرام . يخاف بنيامين أن يحسدوه بسبب أن الملك خصه بمزيد الاكرام ، فأمنه منه وقال : لا تلتفت الى ذلك فإن الله قد جمع بينى وبينك . الرابع . روى الكلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا يعيرون يوسف وأخاه بسبب أن جدتهما أبا أمهما كان يعبد الأصنام ، وأن أم يوسف امرأت يوسف فسرق جونة كانت لأبيها فيها أصنام رجاء أن يترك عبادتها إذا فقدها . فقال له (فلا تبتئس بما كانوا يعملون) أى من التعبير لنا بما كان عليه جدنا . والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه﴾ وقد مضى الكلام في الجهاز والرحل ، أما السقاية فقال صاحب الكشف : مشربة يسقى بها وهو الصواع قيل : كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به ، وهو بعيد لأن الاناء الذى يشرب الملك الكبير منه لا يصلح أن يجعل صاعا ، وقيل : كانت الدواب تسقى بها ويكال بها أيضا وهذا أقرب ، ثم قال وقيل كانت من فضة مموهة بالذهب ، وقيل : كانت من ذهب ، وقيل : كانت مرصعة بالجواهر وهذا أيضا بعيد لأن الآية التى يسقى الدواب فيها لا تكون كذلك ، والأولى أن يقال : كان ذلك الاناء شيئا له قيمة ، أما إلى هذا الحد الذى ذكره فلا .

ثم قال تعالى ﴿ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ يقال : أذنه أى أعلمه وفى الفرق بين اذن وبين أذن وجهان : قال ابن الأنبارى : أذن معناه أعلم اعلاما بعد إعلام لأن فعل يوجب تكرير الفعل قال ويجوز أن يكون اعلاما واحدا من قبيل أن العرب تجعل فعل بمعنى أفعل فى كثير من المواضع . وقال سيويه : أذنت وأذنت معناه أعلمت لافرق بينهما ، والتأذين معناه : النداء والتصويت بالاعلام .

وأما قوله تعالى ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ قال أبو الهيثم: كل ماسير عليه من الابل والخير والبغال فهو عير وقول من قال العير الابل خاصة باطل ، وقيل : العير الابل التي عليها الاحمال لأنها تعير أى تذهب وتجيء ، وقيل : هى قافلة الخير ، ثم كثر ذلك حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وجمعها فعل كسقف وسقف .

إذا عرفت هذا فنقول (أيتها العير) المراد أصحاب العير كقوله يا خيل الله اركبي وقرأ ابن مسعود (وجعل السقاية) على حذف جواب لما كأنه قيل فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا (ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون) .

فان قيل : هل كان ذلك النداء بأمر يوسف أو ما كان بأمره ؟ فان كان بأمره فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله أن يتهم أقواماً وينسبهم إلى السرقة كذباً وبهتاناً ، وإن كان الثاني وهو أنه ما كان ذلك بأمره فهلا أنكره وهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة .

قلنا : العلماء ذكروا في الجواب عنه وجوها : الأول : أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال له : إني أريد أن أحبسك ههنا . ولا سبيل إليه إلا بهذه الحيلة فان رضيت بها فالأمر لك فرضي بأن يقال في حقه ذلك ، وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فخرج عن كونه ذنباً . والثاني : أن المراد إنكم لسارقون يوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهر واهذا الكلام . والمعارض لا تكون إلا كذلك . والثالث : أن ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام . وعلى هذا التقدير يخرج عن أن يكون كذباً . الرابع : ليس في القرآن أنهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم لأنهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها وما كان هناك أحد إلا هم غلب على ظنونهم أنهم هم الذين أخذوها ثم إن إخوة يوسف (قالوا أو أقبلوا عليهم ماذا تفقدون) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (تفقدون) من أفقده إذ وجدته فقيداً قالوا تفقد صواع المالك . قال صاحب الكشف : قرئ صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمتها ، والعين معجمة وغير معجمة . قال بعضهم جمع صواع صيعان ، كغراب وغربان ، وجمع صاع أصواع ، كباب وأبواب . وقال آخرون : لا فرق بين الصاع والصواع ، والدليل عليه قراءة أبي هريرة (قالوا نفقد صاع الملك) وقال بعضهم : الصواع اسم ، والسقاية وصف ، كقولهم : كوز وسقاء ، فالكوز اسم والسقاء وصف .

ثم قال ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ أى من الطعام وأنا به زعيم . قال مجاهد : الزعيم هو المؤذن الذى أذن . وتفسير زعيم كفيل . قال الكلبي : الزعيم الكفيل بلسان أهل اليمن . روى أبو عبيدة

قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا  
فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ  
كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾

عن الكسائي : زعمت به تزعم زعمها وزعمامة . أى كفلت به ، وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم . وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله «الزعيم غارم»  
فان قيل : هذه كفالته بشيء مجهول ؟

قلنا : حمل يعبر من الطعام كان معلوما عندهم . فصحت الكفالة به إلا أن هذه كفالة مال لرد سرقة ، وهو كفالة بما لم يجب لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئا على رد السرقة ، ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم .

قوله تعالى ﴿قَالُوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴿٧٥﴾  
قال البصريون : الواو في ( والله ) بدل من التاء والتاء بدل من الواو أضعفت عن التصرف في سائر الأسماء وجعلت فيما هو أحق بالقسم وهو اسم الله عز وجل . قال المفسرون : حلفوا على أمرين : أحدهما : على أنهم ما جاؤا لأجل الفساد في الأرض لأنه ظهر من أحوالهم امتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بالأكل ولا بارسال الدواب في مزارع الناس ، حتى روى أنهم كانوا قد سدوا أفواه دوابهم لكلا تعبث في زرع ، وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات ، ومن كانت هذه صفته فالفساد في الأرض لا يليق به . والثاني : أنهم ما كانوا سارقين ، وقد حصل لهم فيه شاهد أقاطع ، وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحلهم حملوها من بلادهم إلى مصر ولم يستحلوا أخذها . والسارق لا يفعل ذلك البتة ثم لما بينوا براءتهم عن تلك التهمة قال أصحاب يوسف عليه السلام ﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ فأجابوا و﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ قال ابن عباس كانوا في ذلك الزمان يستعدون كل سارق بسرقة وكان استعباد السارق في شرعهم يجرى مجرى وجوب القطع في شرعنا ، والمعنى جزاء هذا الجرم من وجد المسروق في رحله ، أى ذلك الشخص هو جزاء ذلك الجرم ، والمعنى : أن استعباده هو جزاء ذلك الجرم ، قال الزجاج : وفيه وجهان : أحدهما : أن يقال جزاؤه مبتدأ ومن وجد في رحله خبره . والمعنى : جزاء السرقة هو الإنسان الذي



فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا  
لْيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ  
نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

وجد في رحله السرقة ، ويكون قوله (فهو جزاؤه) زيادة في البيان كما تقول جزاء السارق القطع  
فهو جزاؤه . الثاني : أى يقال (جزاؤه) مبتدأ وقوله (من) وجد في رحله فهو جزاؤه) جملة وهي  
في موضع خبر المتدا . والتقدير : كأنه قيل : يزاؤه من وجد في رحله فهو هو ، إلا أنه أقام المضمّر  
للتأكيد والمبالغة في البيان وأنشد النحويون :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء    فنص الموت الغنى والفقريرا

وأما قوله ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أى مثل هذا الجزاء . جزاء الظالمين . يريد إذا سرق استرق  
ثم قيل : هذا من بقية كلام اخوة يوسف . وقيل : إنهم لما قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو  
جزاؤه ، فقال أصحاب يوسف (كذلك نجزي الظالمين)

قوله تعالى ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا  
ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل  
ذى علم عليم﴾

اعلم أن اخوة يوسف لما أقروا بأن من وجد المسروق في رحله فجزاؤه أن يسترق قال لهم  
المؤذن : انه لا بد من تفتيش أمتعتكم ، فانصرف بهم إلى يوسف (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) لازالة  
التهمة . والأوعية جمع الوعاء . وهو كل ما إذا وضع فيه شيء أحاط به استخرجها من وعاء أخيه ، وقرأ  
الحسن (وعاء أخيه) بضم الواو وهى لغة ، وقرأ سعيد بن جبير (عاء أخيه) فقلب الواو همزة .  
فان قيل : لم ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنه ؟

قلنا : قالوا رجع ضمير المؤنث إلى السقاية وضمير المذكر إلى الصواع أو يقال : الصواع يؤنث  
ويذكر . فكان كل واحد منهما جائزا أو يقال : لعل يوسف كان يسميه سقاية وعبده صواعا فقد  
وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل بهم صواعا ، عن قتادة أنه قال : كان لا ينظر في وعاء  
إلا استغفر الله تائبا عما قذفهم به . حتى انه لما يبق إلا أخوه قال ما أرى هذا قد أخذ شيئا ،

فقالوا : لانذهب حتى نتفحص عن حاله أيضا ، فلما نظروا في متاعه استخرجوا الصواع من وعائه والقوم كانوا قد حكموا بأن من سرق يسترق ، فأخذوا برقبته وجروا به الى دار يوسف .

ثم قال تعالى ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ وفيه بحثان : الأول : المعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف ، وذلك إشارة الى الحكم باسترقاق السارق ، أى مثل هذا الحكم الذى ذكره إخوة يوسف حكما ليوسف . الثانى : لفظ الكيد مشعر بالحيلة والخديعة . وذلك فى حق الله تعالى محال . إلا أنا ذكرنا قانونا معتبرا فى هذا الباب ، وهو أن أمثال هذه الألفاظ تحمل على نهايات الأغراض لاعلى بدايات الأغراض ، وقررنا هذا الأصل فى تفسير قوله تعالى (إن الله لا يستحي) فالكيد السعى فى الحيلة والخديعة ، ونهايته إلقاء الانسان من حيث لا يشعر فى أمر مكروه ولا سبيل له الى دفعه ، فالكيد فى حق الله تعالى محمول على هذا المعنى . ثم اختلفوا فى المراد بالكيد ههنا فقال بعضهم : المراد أن إخوة يوسف سعوا فى إبطال أمر يوسف ، والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره . وقال آخرون : المراد من هذا الكيد هو أنه تعالى ألقى فى قلوب إخوته أن حكموا بأن جزاء السارق هو أن يسترق ، لاجرم لمساظهر الصواع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق ، وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عند نفسه .

ثم قال تعالى ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ والمعنى : أنه كان حكم الملك فى السارق أن يضرب ويغرم ضغنى ماسرق ، فما كان يوسف قادرا على حبس أخيه عند نفسه بناء على دين الملك وحكمه ، إلا أنه تعالى كادله ما جرى على لسان اخوته أن جزاء السارق هو الاسترقاق فقد بينا أن هذا الكلام توسل به الى أخذ أخيه وحبسه عند نفسه وهو معنى قوله (إلا أن يشاء الله) ثم قال (نرفع درجات من نشاء) وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة وعاصم والكسائى (درجات) بالتثنية غير مضاف ، والباقون بالاضافة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد من قوله (نرفع درجات من نشاء) هو أنه تعالى يريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد . ويخصه بأنواع العلوم ، وأقسام الفضائل ، والمراد ههنا هو أنه تعالى رفع درجات يوسف على اخوته فى كل شيء .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات ، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك فقال (نرفع درجات من نشاء) وأيضا وصف ابراهيم عليه السلام بقوله (نرفع درجات من نشاء) عند إirاده ذكر دلائل التوحيد والبراهة عن

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا  
لَهُمْ قَالِ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

الهيئة الشمس والقمر والكواكب ووصف، وهنا يوسف أيضا بقوله (رفع درجات من شاء) لما  
هداه إلى هذه الحيلة وكما بين المرتبتين من التفاوت .

ثم قال تعالى ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ والمعنى أن أخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء  
فضلاء ، إلا أن يوسف كان زائدا عليهم في العلم .

واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى عالم بذاته لا بالعالم . فقالوا : لو كان عالما بالعالم  
لكان ذا علم . ولو كان كذلك ، لحصل فوقه عليم تسمك بعموم هذه الآية وهذا باطل .

واعلم أن أصحابنا قالوا دلت سائر الآيات على إثبات العلم لله تعالى وهي قوله (إن الله عنده علم  
الساعة . وأنزله بعلمه . ولا يحيطون بشيء من علمه . وما تحمل من شيء ولا تضع إلا بعلمه) وإذا  
وقع التعارض فحين نحمل الآية التي تملك الخصم بها على واقعة يوسف وإخوته خاصة غاية  
ما في الباب أنه يوجب تخصيص العموم ، إلا أنه لا بد من المصير إليه لأن العالم مشتق من العلم ،  
والمشتق مركب والمشتق منه مفرد . وحصول المركب بدون حصول المفرد محال في بديهية العقل  
فكان الترجيح من جانبنا ،

قوله تعالى ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالِ  
أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

اعلم أنه لما خرج الصواع من رحل أخى يوسف نكس إخوته رؤسهم وقالوا : هذه الواقعة  
عجبية أن راحيل ولدت ولدين لصين ، ثم قالوا : يا بنى راحيل ما أكثر البلاء علينا منك ، فقال بنيامين  
ما أكثر البلاء علينا منكم ذهبتم بأخى وضيعتموه في المفازة . ثم يقولون لى هذا الكلام . قالوا له :  
فكيف خرج الصواع من رحلك . فقال : وضعه في رحلى من وضع البضاعة في رحالك .

واعلم أن ظاهر الآية يقتضى أنهم قالوا للملك : إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذى  
هلك كان أيضا سارقا ، وكان غرضهم من هذا الكلام أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته ، وهو  
وأخوه محتصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى ، واختلفوا في السرقة التي نسبوها إلى يوسف  
عليه السلام على أقوال : الأول : قال سعيد بن جبير : كان جده أبوأمة كافرا يعبد الأوثان فأمر أنه

أما بأن يسرق تلك الأوثان ويكسرهما فاحله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك . فهذا هو السرقة ،  
والثاني : أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه الى الفقراء . وقيل سرق عناقاً من أبيه  
ودفعه الى المسكين وقيل دجاجة . والثالث : أن عمته كانت تحبه حباً شديداً فارادت أن تمسكه عند  
نفسها ، وكان قد بقي عندها منطقة لاسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدها على يوسف  
ثم قالت بأنه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق ، فبوسلت بهذه الحيلة إلى امساكه عند  
نفسها . والرابع : أنهم كذبوا عليه وهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك  
الوقائع ، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة ، وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر  
عن الغل البتة .

ثم قال تعالى « فأسرها يوسف في نفسه ولم يدها لهم » واختلفوا في أن الضمير في قوله  
( فأسرها يوسف ) إلى أى شيء يعود على قولين قال الزجاج : فأسرها اضمار على شريطة التفسير ،  
تفسيره أتم شر مكانا وإنما أنت لأن قوله ( أتم شر مكانا ) جملة أو كناية لأنهم يسمون الطائفة من  
الكلام كلمة كآنة قال : فاسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله ( أتم شر مكانا ) وفي قراءة ابن مسعود  
( فاسر ) بالتذكير يريد القول أو الكلام وطعن أبو على الفارسي في هذا الوجه فيما استدركه على  
الزجاج من وجهين :

« الوجه الأول » قال الاضمار على شريطة التفسير يكون على ضربين : أحدهما : أن يفسر  
بمفرد كقولنا : نعم رجلا زيد ففي نعم ضمير فاعلها ، ورجلا تفسير لذلك الفاعل المضمر والآخراً  
يفسر بجملة وأصل هذا يقع في الابتداء كقوله ( فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا . وقل هو الله أحد )  
والمعنى القصة شاخصة أبصار الذين كفروا والأمرا لله أحد . ثم إن العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر  
تدخل عليه أيضاً نحو أن كقوله ( إنه من يأت ربه مجرماً . فلها لا تعمى الأبصار )

إذا عرفت هذا فنقول : نفس المضمر على شريطة التفسير في كلا القسمين متصل بالجملة التي  
حصل منها الاضمار ، ولا يكون خارجاً عن تلك الجملة ولا مبايناً لها . وههنا التفسير منفصل عن  
الجملة التي حصل منها الاضمار فوجب أن لا يحسن . والثاني : أنه تعالى قال ( أتم شر مكانا ) وذلك  
يدل على أنه ذكر هذا الكلام ، ولوقلنا : إنه عليه السلام أضمر هذا الكلام لكن قوله انه قال ذلك  
كذباً . واعلم أن هذا الطعن ضعيف لوجوه :

« أما الأول » فلأنه لا يلزم من حسن القسمين الأولين قبح قسم ثالث .

« وأما الثاني » فلأننا نحمل ذلك على أنه عليه السلام قال ذلك على سبيل الحفية وهذا التفسير  
يسقط هذا السؤال .



قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ  
الْحُسْنَيْنِ «٧٨» قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا  
إِذَا لَظَالِمُونَ «٧٩»

(والوجه الثاني) وهو أن الضمير في قوله (فأسرها) عائد إلى الاجابة كأنهم قالوا (إن يسرق  
فقد سرق أخ له من قبل) فأسر يوسف إجابته في نفسه في ذلك الوقت ولم يبد لها لم في تلك الحالة  
إلى وقت ثان ويجوز أيضاً أن يكون إضماراً للمقالة . والمعنى : أسر يوسف مقاتلهم . والمراد من  
المقالة متعلق تلك المقالة كإيراد بالخلق المخلوق . وبالعلم المعلوم . يعنى أسر يوسف في نفسه كيفية تلك  
السرقه ، ولم يبين لهم انها كيف وقعت وأنه ليس فيها ما يوجب الذم والطعن . روى عن ابن عباس  
رضى الله عنهما أنه قال عوقب يوسف عليه السلام ثلاث مرات لأجل همه بها ، عوقب بالحبس وبقوله  
(اذكرني عند ربك) عوقب بالحبس الطويل وبقوله (إنكم لسارقون) عوقب بقوله (فقد سرق أخ له من  
قبل) ثم حكى تعالى عن يوسف أنه قال (أنتم شرمكانا) أى أنتم شرمزله عند الله تعالى إلى ما أقدمتم عليه  
من ظلم أخيك وعقوق أبيك فأخذتم أحاكم وطرحتموه في الحب ، ثم قلت لآبيكم إن الذنب أكله وأنتم  
كاذبون . ثم بعتموه بعشرين درهما ، ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد مازال الحقد والغضب عن  
قلوبكم فرميتموه بالسرقه .

ثم قال تعالى ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ يريد أن سرقه يوسف كانت رضا لله ، وبالجملة فهذه  
الوجوه المذكورة في سرقته لا يوجب شيء منها عود الذم واللوم اليه ، والمعنى : والله أعلم بأن هذا  
الذى وصفتموه به هل يوجب عود مذمة اليه أم لا .

قوله تعالى ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾  
قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴿

اعلم أنه تعالى بين أنهم بعد الذى ذكروه من قولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أحبوا  
موافقته والعدول إلى طريقة الشفاعة فانهم وإن كانوا قد اعترفوا أن حكم الله تعالى في السارق أن  
يستعبد ، إلا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضا جائزا . فقالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا أى  
في السن ، ويجوز أن يكون في القدر والدين . وإنما ذكروا ذلك لأن كونه ابنا لرجل كبير القدر

فَلَمَّا اسْتِيسَاوْا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ «٨٠»

يوجب العفو والصفح . ثم قالوا ( فنجد أحدا مكانه ) يحتمل أن يكون المراد على طريق الاستبعاد ويحتمل أن يكون المراد على طريق الرهن حتى نوصل الفداء اليك . ثم قالوا ( إنا نراك من المحسنين ) وفيه وجه : أحدها : إنا نراك من المحسنين لو فعلت ذلك . وثانيها : إنا نراك من المحسنين الينا حيث أكرمنا وأعطينا البذل الكثير وحصلت لنا مطاوبنا على أحسن الوجوه ورددت إلينا ثمن الطعام . وثالثها نقل أنه عليه السلام لما اشتد القحط على القوم ولم يجدوا شيئا يشترون به الطعام ، وكانوا يبيعون أنفسهم منه فصار ذلك سببا لصيرورة أكثر أهل مصر عبيدا له ثم إنه أعتق الكل ، فلعلهم قالوا : ( إنا نراك من المحسنين ) إلى عامة الناس بالاعتاق فكأن محسنا أيضا إلى هذا الانسان باعتاقه من هذه المحنة ، فقال يوسف ( معاذ الله ) أى أعوذ بالله معاذاً أن نأخذ لإمامنا وجدنا متاعنا عنده ، أى أعوذ بالله أن آخذ بريثاً بمذنب قال الزجاج : موضع «أن» نصب والمعنى : أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره فلما سقطت كلمة «من» انتصب الفعل عليه وقوله ( إنا إذا لظالمون ) أى لقد تعديت وظلمت إن أذيت إنساناً بجرم صدر عن غيره .

فان قيل : هذه الواقعة من أولها إلى آخرها تزوير وكذب ، فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته الاقدام على هذا التزوير والترويج وإيذاء الناس من غير سبب لاسيما ويعلم أنه إذا حبس أخاه عند نفسه بهذه التهمة فانه يعظم حزن أبيه ويشدد غمه ، فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في التزوير إلى هذا الحد .

والجواب : لعله تعالى أمره بذلك تشديداً للمحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البذل كما أمر تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقى لطغى وكفر .

قوله تعالى ﴿ فلما استياسوا منه خلصوا نجيا ﴾ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴿ في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ علم أنهم لما قالوا (فخذوا حذرنا مكانه) وهو نهاية ما يمكنهم بذله فقال يوسف في جوابه (معاذ الله أن تأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) فانتقطع طمعهم من يوسف عليه السلام في رده ، فنفذ هذا قال تعالى (فلما استأسأوا منه خلسوا نجيًا) وهو مبالغة في بأسهم من رده (وخلصوا نجيًا) أى تفردوا عن سائر الناس يتناجون ولا شبهة أن المراد يتشاورون ويتحولون الرأى فيما وقعوا فيه ، لانهم إنما أخذوا بنيامين من أيهم بعد المواقف المؤكدة وبعد أن كانوا متهمين في حق يوسف فلم يعيدوه الى أيهم لحصلت محن كثيرة : أحدها : أنه لو لم يعودوا الى أيهم وكان شيخا كبيرا فبقاؤه وحده من غير أحد من أولاده محنة عظيمة . وثانيها : أن أهل بيتهم كانوا محتاجين الى الطعام أشد الحاجة . وثالثها : أن يعقوب عليه السلام ربما كان يظن أن أولاده علكوا بالكلية وذلك غم شديد ولو عادوا الى أيهم بدون بنيامين لعظم حياؤهم فان ظاهر الأمر يومهم أنهم خانوه في هذا الابن كما أنهم خانوه في الابن الأول ، ولكن يومهم أيضا أنهم ما أقاموا تلك المواقف المؤكدة وزنا ولا شك أن هذا الموضوع موضع فكرة وحيرة ، وذلك يوجب التفاوض والتشاور طلبا للأصلح الأصوب فهذا هو المراد من قوله (فلما استأسأوا منه خلسوا نجيًا)

﴿المسألة الثانية﴾ قال الواحدى روى عن ابن كثير ، استأسأوا . وحتى اذا استأسأ الرسل بغير همز وفي يئس لغتان يئس ويأس مثل حسب ويحسب ومن قال استأسأ قلب العين الى موضع الفاء فصار استعفل وأصله استأسأ ثم خففت الهمزة . قال صاحب الكشف : استأسأوا يئسوا ، وزيادة السين والتاء للبالغة كما في قوله (استعصم) وقوله (خلصوا) قال الواحدى : يقال خلص الشيء يخلص خلوصا اذا ذهب عنه الشائب من غيره ، ثم فيه وجهان : الأول : قال الزجاج خلصوا أى انفردوا ، وليس معهم أخوهم ، والثاني : قال الباقون تميزوا عن الأجانب ، وهذا هو الأظهر . وأما قوله (نجيا) فقال صاحب الكشف : النجى على معنيين يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر . ومنه قوله تعالى (وقربناه نجيًا) وبمعنى المصدر الذى هو التناجى كما قيل : التجوى بمعنى المتناجين ، فعلى هذا معنى (خلصوا نجيًا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالسين لا يخالطهم سواهم (نجيا) أى مناجيا . روى (نجوى) أى فوجا (نجيا) أى مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا . وأحسن الوجوه أن يقال : إنهم تمحضوا تناجيا ، لأن من كل حصول أمر من الأدور فيه وصف بأنه صار غير ذلك الشيء . فلما أخذوا فى التناجى على غاية الجد صاروا كأنهم فى أنفسهم ، صاروا نفس التناجى حقيقة .

أما قوله تعالى ﴿ قال كبيرهم ﴾ فقليل المراد كبيرهم فى السن وهو روييل ، وقيل كبيرهم فى العقل

ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ قَدْ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا  
وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا  
فِيهَا وَإِنَّا لَصَادُقُونَ ﴿٨٢﴾

وهو يهودا ، وهو الذي نهبهم عن قتل يوسف ، ثم حكى تعالى عن هذا الكبير أنه قال (ألم تعلموا  
أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف) وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما قال يوسف عليه السلام (معاذ الله أن  
نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) غضب يهودا ، وكان اذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل  
الإلواضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فقال لبعض إخوته  
اكفوني أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك فقال يوسف عليه السلام لابن صغير له مسه فمسه  
فذهب غضبه وهم أن يصبح فر كض يوسف عليه السلام رجله على الأرض وأخذ بملايسه وجذبه  
فسقط فغنده قال يا أيها العزيز ، فلما أيسوا من قبول الشفاعة تذاكروا وقالوا : إن أبانا قد أخذ  
علينا موثقا عظيما من الله . وأيضا نحن متهمون بواقعة يوسف فكيف المخلص من هذه الورطة .

(المسألة الثانية) لفظ ما في قوله (ما فرطتم) فيها وجوه : الأول : أن يكون أصله من قبل هذا  
فرطتم في شأن يوسف عليه السلام ، ولم تحفظوا عهد أبيكم . الثاني : أن تكون مصدرية ومحله  
الرفع على الابتداء وخبره الظرف ، وهو من قبل . ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف ، الثالث :  
النصب عطفاً على مفعول (ألم تعلموا) والتقدير : ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقا وتفريطكم من قبل  
في يوسف . الرابع : أن تكون موصولة بمعنى ومن قبل هذا ما فرطتموه أى قدمتموه في حق  
يوسف من الحياة العظيمة ، ومحله الرفع والنصب على الوجهين المذكورين . ثم قال (فلن أبرح  
الأرض) أى فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى فى الانصراف إليه أو يحكم الله لى بالخروج  
منها . أو بالاتصاف بمن أخذ أخى أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب وهو خير الحاكمين ، لأنه  
لا يحكم إلا بالعدل والحق ، وبالجملة فالمراد ظهور عذر يزيل معه حياؤه وخجله من أبيه أو غيره قاله انقطاعا  
إلى الله تعالى فى إظهار عذره بوجه من الوجوه .

قوله تعالى «ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنتك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا  
للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون»



واعلم أنهم لما تفكروا في الأصوب ما هو ظاهر لهم أن الأصوب هو الرجوع ، وأن يذكروا  
لأنهم كيفية الواقعة على الوجه من غير تفاوت ، والظاهر أن هذا القول قاله ذلك الكبير  
الذي قال (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي) قيل إنه روييل ، وبقى هو في مصر وبعث سائر  
إخوته إلى الأب .

فان قيل : كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة ، لاسيما وهو قد أجاب بالجواب الشافي ،  
فقال الذي جعل الصواع في رحلي هو الذي جعل البضاعة في رحلكم .

والجواب عنه من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أنهم شاهدوا أن الصواع كان موضوعاً في موضع ما كان يدخله أحد الإلهم ،  
فلما شاهدوا أنهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم أنه هو الذي أخذ الصواع . وأما  
قوله : وضع الصواع في رحلي من وضع البضاعة في رحلكم . فالفرق ظاهر ، لأن هناك لما رجعوا  
البضاعة إليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها في رحالهم ، وأما هذا الصواع فان أحداً لم يعترف  
بأنه هو الذي وضع الصواع في رحله فظهر الفرق . فلهذا السبب غلب على ظنونهم أنه سرق ،  
فتشهدوا بناء على هذا الظن ، ثم بينهم غير قاطعين بهذا الأمر بقولهم (وما شهدنا إلا بما علمنا وما  
كننا للغيب حافظين)

﴿والوجه الثاني﴾ في الجواب ان تقدير الكلام (إن ابنك سرق) في قول الملك واصحابه ومثله  
كثير في القرآن . قال تعالى (إنك لانت الحليم الرشيد) أي عند نفسك . وقال تعالى (ذق إنك أنت  
العزیز الكريم) أي عند نفسك وأما عندنا فلا فكذلك ههنا .

﴿الوجه الثالث﴾ في الجواب أن ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة ومثل هذا الشيء يسمى سرقة  
فان اطلاق اسم أحد الشبهين على الشبه الآخر جائز في القرآن قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها)  
﴿الوجه الرابع﴾ أن القوم ما كانوا أنبياء في ذلك الوقت فلا يبعد أن يقال : إنهم ذكروا هذا  
الكلام على سبيل المجازفة لاسيما وقد شاهدوا شيئاً يوم ذلك .

﴿الوجه الخامس﴾ أن ابن عباس رضى الله عنهما كان يقرأ (ان ابنك سرق) بالتشديد ، أي  
نسب إلى السرقة فلهذا القراءة لا حاجة بها إلى التأويل لأن القوم نسبوه إلى السرقة . إلا أنا ذكرنا  
في هذا الكتاب أن امثال هذه القراءة لا تدفع السؤال ، لأن الاشكال انما يدفع إذا قلنا القراءة  
الأولى باطلة . والقراءة الحقة هي هذه . أما إذا سلمنا أن القراءة الأولى حقة كان الاشكال باقياً  
سواء صحت هذه القراءة الثانية أو لم تصح . فثبت أنه لا بد من الرجوع إلى أحد الوجوه المذكورة

أما قوله (وما شهدنا إلا بما علمنا) فمعناه ظاهر لأنه يدل على أن الشهادة غير العلم بدليل قوله تعالى (وما شهدنا إلا بما علمنا) وذلك يقتضى كون الشهادة مغيرة للعلم ولأنه عليه السلام قال : إذا علمت مثل الشمس فاشهد ، وذلك أيضا يقتضى ما ذكرناه وليست الشهادة أيضا عبارة عن قوله أشهد لأن قوله أشهد اخبار عن الشهادة والاخبار عن الشهادة غير الشهادة .

إذا ثبت هذا فنقول : الشهادة عبارة عن الحكم الذهني وهو الذي يسميه المتكلمون بكلام النفس . وأما قوله (وما كنا للغيب حافظين) ففقيه وجوه : الأول : أننا قدر أننا أنهم أخرجوا الصواع من رحله ، وأما حقيقة الحال فغير معلومة لنا فإن الغيب لا يعلمه الا الله . والثاني : قال عكرمة : معناه : لعل الصواع دس في متاعه بالليل فإن الغيب اسم لليل على بعض اللغات . والثالث : قال مجاهد والحسن وقتادة : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق . ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به الى الملك وما أعطيناك موثقا من الله في رده اليك . والرابع : نقل أن يعقوب عليه السلام قال لهم : فهب أنه سرق ولكن كيف عرف الملك أن شرع بنى اسرائيل أن من سرق يسترق ، بل أنتم ذكرتوه له لغرض لكم فقالوا عند هذا الكلام : انا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا في هذه الواقعة وما كنا نعلم أن هذه الواقعة تقع فيها فقوله (وما كنا للغيب حافظين) اشارة إلى هذا المعنى .

فان قيل : فهل يجوز من يعقوب عليه السلام أن يسعى في اخفاء حكم الله تعالى على هذا القول قلنا : لعله كان ذلك الحكم مخصوصا بما إذا كان المسروق منه مسلما فلماذا أنكر ذكر هذا الحكم عند الملك الذي ظنه كافرا .

ثم حكى تعالى عنهم أنهم قالوا (واسأل القرية التي كنا فيها والغير التي أقبلنا فيها)

واعلم أنهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام بالغوا في ازالة التهمة عن أنفسهم فقالوا (واسأل القرية التي كنا فيها) والاكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر وقال قوم ، بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش ، ثم فيه قولان : الأول : المراد واسأل أهل القرية إلا أنه حذف المضاف للايجاز والاختصار ، وهذا النوع من المجاز مشهور في لغة العرب قال أبو علي الفارسي ودافع جواز هذا في اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات . والثاني : قال أبو بكر الأنباري المعنى : اسأل القرية والغير والجدار والحيطان فإنها تحييك وتذكر لك صحة ما ذكرناه لأنك من أكابر أنبياء الله فلا يبعد أن ينطق الله هذه الجمادات معجزة لك حتى تخبر بصحة ما ذكرناه ، وفيه وجه ثالث ، وهو أن الشيء إذا ظهر ظهوراً تاماً كاملاً فقد يقال فيه . سل السماء والأرض وجميع الأشياء عنه ، والمراد أنه بلغ في الظهور إلى الغاية التي

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبِرْ جَمِيلٌ عِسىَ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ  
جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

ما بقى للشك فيه مجال .

أما قوله ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ فقال المفسرون كان قد صحبهم قوم من الكنعانيين فقالوا :  
سلمهم عن هذه الواقعة . ثم إنهم لما بالغوا في التأكيد والتقرير قالوا (ولنا صادقون) يعنى سواء  
نسبتنا إلى التهمة أو لم تنسبنا إليها فتحن صادقون ، وليس غرضهم أن يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم  
لأن هذا يجرى مجرى إثبات الشيء بنفسه ، بل الانسان إذا قدم ذكر الدليل القاطع على صحة الشيء  
فقد يقول بعده وأنا صادق في ذلك يعنى فتأمل فيها ذكرته من الدلائل والبيدات لتزول عنك الشبهة  
قوله تعالى ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا  
إنه هو العليم الحكيم﴾

اعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع من أبنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما في واقعة  
يوسف فقال (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) فذكر هذا الكلام بعينه في هذه الواقعة إلا أنه  
قال في واقعة يوسف عليه السلام (والله المستعان على ما تصفون) وقال ههنا (عسى الله أن يأتيني  
بهم جميعا) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال بعضهم إن قوله (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) ليس المراد منه ههنا  
الكذب والاحتيال كما في قوله في واقعة يوسف عليه السلام حين قال (بل سولت لكم أنفسكم  
أمرا) لكنه عنى سولت لكم أنفسكم إخراج بنيامين عنى والمصير به إلى مصر طلبا للنفقة فغاد من  
ذلك شر وضرر وألحتم على في إرساله معكم ولم تعلموا أن قضاء الله إنما جاء على خلاف تقديركم  
وقيل : بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمرا خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وما سرق .

﴿المسألة الثانية﴾ قيل إن روييل لما عزم على الإقامة بمصر أمره الملك أن يذهب مع اخوته  
فقال اتركوني وإلا صحت صيحة لاتبقى بمصر امرأة حامل إلا وتضع حملها فقال يوسف دعوه ولما  
رجع القوم الى يعقوب عليه السلام وأخبروه بالواقعة بكى وقال : يا بني لاتخرجوا من عندي  
مرة إلا ونقص بعضكم ، ذهبت مرة فنقص يوسف ، وفي الثانية نقص شمعون ، وفي هذه الثالثة نقص  
روييل وبنيامين . ثم بكى وقال : عسى الله أن يأتيني بهم جميعا . وإنما حكم بهذا الحكم لوجوه :  
الأول : أنه لما طال حزنه وبلاؤه ومحنه علم أنه تعالى سيجعل له فرجا ونجرا عن قريب فقال ذلك

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ  
 كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُو تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ  
 الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ  
 مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ  
 رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

على سبيل حسن الظن برحمة الله . والثاني : لعله تعالى قد أخبره من بعد محنة يوسف أنه حتى أو ظهرت  
 له علامات ذلك وإنما قال (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) لأنهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثني  
 عشر فضاع يوسف وبقي أحد عشر ، ولما أرسلهم الى مصر عادوا تسعة لأن بنيامين حبسه يوسف  
 واحتبس ذلك الكبير الذي قال (فلن أبحر الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي) فلما كان  
 الغائبون ثلاثة لاجرم (قال عسى الله أن يأتيني بهم جميعا)

ثم قال ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ يعنى هو العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق  
 للفضل والاحسان والرحمة والمصلحة .

قوله تعالى ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾  
 قالوا تالله تفتو تذكر يوسف حتى تكون حرصاً أو تكون من الهالكين قال إنما أشكو بثي  
 وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من  
 روح الله إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون

واعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جداً وأعرض عنهم وفارقهم ثم  
 بالآخرة طلبهم وعاد إليهم .

﴿أما المقام الاول﴾ وهو أنه أعرض عنهم ، وفر منهم فهو قوله (وتولى عنهم وقال  
 يا أسفى على يوسف)

واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذى سمعه من أبنائه فى حق بنيامين عظم أسفه على



يوسف عليه السلام (وقال يا أَسْفَى على يوسف) وإنما عظم حزنه على همارفه يوسف عند هذه الواقعة لوجوه :

(الوجه الأول) أن الحزن الجديد يقوى الحزن القديم الكامل . و مدح إذا وقع على مدح كان أوجع وقال مقيم بن توبة :

وقد لامني عند القبور على البكا رفيق لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيتك لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعنى فهذا كله قبر مالك

وذلك لأنه إذا رأى قبراً فتجدد حزنه على أخيه مالك فلأموه عليه . فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى . وقال آخر :

فلم تنسى أوفى المصيبات بعده ولكن نكاء القرع بالقرح أوجع

(والوجه الثاني) أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة . وكانت المشابهة بينهما في تصوره والصفة أكل . فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام . فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد .

(الوجه الثالث) أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا ، وكان الأسف عليه أسفاً على الكل . الرابع : أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها . وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكروه . وأما السبب الحقيقي فما كان معلوماً له ، وأيضاً أنه عليه السلام كان يعلم أن هؤلاء في الحياة . وأما يوسف فما كان يعلم أنه حي أو ميت . فلهذه الأسباب عظم وجدده على مفارقتها وقويت مصيبته على الجهل بحاله .

(المسألة الثانية) من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله (يا أَسْفَى على يوسف) قال لأن هذا إظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وأنه لا يجوز . والعلماء يبنوا أنه ليس الأمر كما ظنه هذا الجاهل ، وتقريره أنه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكأوه . وهو المراد من قوله (وايضض عيناه من الحزن) ثم أمسك لسانه عن النياحة . وذكر ما لا ينبغي . وهو المراد من قوله (فهو كظيم) ثم إنه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فانه صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم . روى أن يوسف عليه السلام سأل جبريل

هل لك علم يعقوب ؟ قال نعم ، قال وكيف حزنه ؟ قال حزن سبعين ثكلى وهى التى لها ولد واحد ثم يموت . قال فهل له فيه أجر ؟ قال نعم أجر مائة شهيد .

فان قيل : روى عن محمد بن على الباقر قال : مر يعقوب شيخ كبير فقال له أنت ابراهيم فقال أنا ابن ابنة والهموم غيرتى وذهبت بحسنى وقوتى ، فأوحى الله تعالى اليه «حتى متى تشكونى إلى عبادى وعزتى وجلالى لولم تشكنى لأبدلنك لحما خيرا من لحمك ودما خيرا من دمك» فكان من بعد يقول إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «كان ليعقوب أخ مواخ» فقال له : ما الذى أذهب بصرك وقوس ظهرك فقال الذى أذهب بصرى البكاء على يوسف وقوس ظهرى الحزن على بنيامين ، فأوحى الله تعالى اليه «أما تستحي تشكونى إلى غيرى» فقال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، فقال يارب أمارحم الشيخ الكبير قوس ظهري ، وأذهبت بصرى ، فاردد على ريحائتى يوسف وبنيامين فأتاه جبريل عليه السلام بالبشرى وقال : لو كانا ميتين لنشرتهما لك فاصنع طعاما للمساكين ، فان أحب عبادى إلى الأنبياء والمساكين ، وكان يعقوب عليه السلام إذا أراد الغداء نادى مناديه من أراد الغداء فليتغد مع يعقوب ، وإذا كان صائما نادى مثله عند الإفطار . وروى أنه كان يرفع حاجبيه بخرقه من الكبر . فقال له رجل : ما هذا الذى أراه بك ، قال طول الزمان وكثرة الأحزان ، فأوحى الله اليه «أشكونى يا يعقوب» فقال : يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى . قلنا : انا قد دللنا على أنه لم يأت إلا بالصبر والثبات وترك النياحة . وروى أن ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له : جئت لتقبضنى قبل أن أرى حبيبى فقال لا ، ولكن جئت لأحزن لحزنك وأشجو لشجوك ، وأما البكاء فليس من المعاصى . وروى أن النبي عليه الصلاة والسلام : بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال «إن القلب ليحزن والعين تدمع ، ولا نقول : ما يخطئ الرب وإنما عليك يا إبراهيم لحزون» وأيضا فاستيلاء الحزن على الانسان ليس باختياره ، فلا يكون ذلك داخلا تحت التكليف . وأما التأوه وإرسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه ، وأما ماورد فى الروايات التى ذكرتم فالمعاتبه فيها إنما كانت لأجل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأيضا ففيه دققة أخرى وهى أن الانسان إذا كان فى موضع التحير والتردد لابد وأن يرجع إلى الله تعالى ، فيعقوب عليه السلام ماكان يعلم أن يوسف بقى حيا أم صار ميتا ، فكان متوقفا فيه وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع إلى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ما سوى الله تعالى إلا فى هذه الواقعة ، وكانت أحواله فى هذه الواقعة مختلفة ، فربما صار فى بعض الأوقات مستغرق الهم بذكر الله تعالى ، فان عن تذكر هذه الواقعة ، فكان ذكرها كلا سواها ،

فلهذا السبب صارت هذه الواقعة بالنسبة اليه ، جارية بجرى الالتقاء في النار للجليل عليه السلام وجرى الذبح لابنه الذبيح .

فان قيل : أليس أن الأولى عند نزول المصيبة الشديدة أن يقول (إنا لله وإنا اليه راجعون) حتى يستوجب الثواب العظيم المذكور في قوله (وأولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)

قلنا : قال بعض المفسرين إنه لم يعط الاسترجاع أمة إلا هذه الأمة فأكرمهم الله تعالى إذا أصابهم مصيبة وهذا عدى ضعيف لأن قوله (إنا لله) إشارة إلى أنا ملوكون لله وهو الذي خلقنا وأوجدنا ، وقوله (وإنا اليه راجعون) إشارة إلى أنه لا بد من الحشر والقيامة ، ومن الحال أن أمة من الأمم لا يعرفون ذلك فمن عرف عند نزول بعض المصائب به أنه لا بد في العاقبة من رجوعه إلى الله تعالى ، فهناك تحصل السلوة التامة عند تلك المصيبة . ومن الحال أن يكون المؤمن بالله غير عارف بذلك .

(المسألة الثالثة) قوله (يا أسفى على يوسف نداء الأسف وهو كقوله (يا عجباً) والتقدير كأنه ينادى الأسف ويقول : هذا وقت حصولك وأوان مجيئك وقد قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة منها في تفسير قوله (حاش لله) والأسف الحزن على ما فات . قال الليث : اذا جأك أمر فخرنت له ولم تطفقه فأنت أسيف أى حزين ومتأسف أيضا . قال الزجاج : الأصل (يا أسفى) الا أن ياء الاضافة يجوز ابدالها بالالف لحقة الف والفتحة .

ثم قال تعالى ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ وفيه وجهان :

(الوجه الأول) أنه لما قال يا أسفى على يوسف غلبه البكاء . وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقوله (وابيضت عيناه من الحزن) كناية عن غلبة البكاء ، والدليل على صحة هذا القول أن تأخير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمی فلو حملنا الايضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسناً . ولو حملناه على العمی لم يحسن هذا التعليل . فكان ما ذكرناه أولى . وهذا للتفسير مع الدليل رواه الواحدى فى البسيط عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(والوجه الثانى) أن المراد هو العمی قال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام وهو قوله (فالقوه على وجه أبى يأت بصيرا) قيل إن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام حينئذ كان فى السجن فقال إن بصر أبىك ذهب من

الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال : ليت أمي لم تلدني ولم أك حزنا على أبي . والقاتلون بهذا التأويل قالوا : الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى ، فالحزن كان سببا للعمى بهذه الواسطة ، وانما كان البكاء الدائم يوجب العمى ، لأنه يورث كدورة في سوداء العين ، ومنهم من قال : ما عمى ولكنه صار بحيث يدرك ادراكا ضعيفا . قيل : ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام إلى حين لقائه ، وتلك المدة ثمانون عاما . وما كان على وجه الأرض عبدا أكرم على الله تعالى من يعقوب عليه السلام .

أما قوله تعالى « (من الحزن) » فاعلم أنه قرئ (من الحزن) برفع الحاء وسكون الزاي ، وقرأ الحسن بفتح الحاء والزاي . قال الواحدي : واختلفوا في الحزن ، والحزن فقال قوم : الحزن البكاء والحزن ضد الفرح ، وقال قوم : هما لغتان يقال أصابه حزن شديد ، وحزن شديد ، وهو مذاهب أكثر أهل اللغة ، وروى يونس عن أبي عمرو قال : إذا كان في موضع النصب فتحوا الحاء والزاي كقوله ( ترى أعينهم تفيض من الدمع حزنا ) وإذا كان في موضع الخفض أو الرفع ضموا الحاء كقوله ( من الحزن ) وقوله ( أشكو بثي وحزني إلى الله ) قال هو في موضع رفع بالابتداء .

وأما قوله تعالى « (فهو كظيم) » فيجوز أن يكون بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره قال ابن قتيبة : ويجوز أن يكون بمعنى المسكوظوم . ومعناه المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه المصدور من كظم السقاء إذا اشتد على ملئه . ويجوز أيضا أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده واعلم أن أشرف أعضاء الإنسان هذه الثلاثة . فبين تعالى أنها كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله ( يا أسفي ) والعين بالبكاء والياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شد ولا يمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم ،

أما قوله تعالى « (قالوا تالله تقتلوا تذكروا يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) » ففيه مسائل :

« المسألة الأولى » قال ابن السكيت يقال : مازلت أفعله وما فتئت أفعله وما برحت أفعله ولا يتكلم بهن إلا مع الجحد ، قال ابن قتيبة يقال : ما فتيت وما فتئت لغتان فتيا وفتوا إذا نسيت وانقطعت عنه قال النحويون وحرف النفي ههنا مضممر على معنى قالوا : ما تفتوا ولا تفتوا وجاز حذفه لأنه لو أريد الإثبات لكان باللام والنون نحو . والله لتفعلن فلما كان بغير اللام والنون عرف أن كلمة لا . مضمرة وأنشدوا قول امرئ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا



والمعنى : لأبرح قاعداً ومثله كثير . وأما المفسرون فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقادة لاتزال تذكره ، وعن مجاهد لا تنفتر من حبه كأنه جعل الفتور والفتوة أخوين .  
 ( المسألة الثانية ) حكى الواحدى عن أهل المعانى أن أصل الحرص فساد الجسم والعقل للحرص والحب . وقوله حرصت فلاناً على فلان تأويله أفسدته وأحميته عليه . وقال تعالى ( حرص المؤمنون على القتال )

إذا عرفت هذا فنقول : وصف الرجل بأنه حرص إما أن يكون لارادة أنه ذو حرص مخذف المضاف أو لارادة أنه لما تنهى فى الفساد والضعف فكانه صار عين الحرص ونفس الفساد . وأما الحرص بكسر الراء فهو الصفة وجاءت القراءة بهما معاً .

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه عبارات : أحدها : الحرص والحارص هو الفاسد فى جسمه وعقله . وثانيهما : سأل نافع بن الأزرق بن عباس عن الحرص فقال : الفاسد الدنف . وثالثها : أنه الذى يكون لا كالأحياء ولا كالأموات ، وذكر أبو روق أن أنس بن مالك قرأ ( حتى تكون حرصاً ) بضم الحاء وتسكين الراء قال يعنى مثل عود الأشنان . وقوله ( أو تكون من الهالكين ) أى من الأموات ، ومعنى الآية أنهم قالوا لا يهيم إنك لاتزال تذكر يوسف بالحرص والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تدفع بنفسك معه أو تموت من الغم كأنهم قالوا : أنت الآن فى بلا شديد ونخاف أن يحصل ما هو أزيد منه وأقوى وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والأسف .

فان قيل : لم حلفوا على ذلك مع أنهم لم يعلموا ذلك قطعاً ؟

قلنا : إنهم بنوا هذا الأمر على الظاهر .

فان قيل : القائلون بهذا الكلام وهو قوله ( تالله تفتؤ ) من هم ؟

قلنا : الأظهر أن هؤلاء ليسوا هم الأخوة الذين قد تولى عنهم . بل الجماعة الذين كانوا فى الدار من أولاد أولاده وخدمه :

ثم حكى تعالى عن يعقوب عليه السلام أنه قال ( إنما أشكوا بنى وحزنى إلى الله ) يعنى أن هذا الذى أذكره لأذكره معكم وإنما أذكره فى حضرة الله تعالى ، والإنسان إذا بث شكواه إلى الله تعالى كان فى زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام « أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك وأعوذ بك منك » والله هو الموفق ، والبث هو التفريق قال الله تعالى ( وبث فيها من كل دابة ) فالحرص إذا ستره الإنسان كان هما وإذا ذكره لغيره كان بثاً وقالوا : البث أشد الحزن

والحزن أشدّ لهم ، وذلك لأنه متى أمكنه أن يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستويا عليه وأما إذا عظم وعجز الانسان عن ضبطه وانطلق اللسان بذكره شاء أم أبى كان ذلك بشا وذلك يدل على أن الانسان صار عاجزا عنه وهو قد استولى على الانسان ، فقوله (بئى وحرزنى إلى الله) أى لا أذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل إلا مع الله ، وقرأ الحسن : وحرزنى . بفتح الحين وحرزنى بضمّتين ، قيل : دخل على يعقوب رجل وقال : يا يعقوب ضعف جسمك ونحف بدنك وما بلغت سنا عاليا فقال الذى فى كثرة غموى . فأوحى الله اليه يا يعقوب أتشكرون الى خلقى ، فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى فغفرها له ، وكان بعد ذلك اذا سئل قال (إنما أشكو بئى وحرزنى الى الله) وروى أنه أوحى الله اليه إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام بيا بكم مسكين فلم تطعموه ، وإن أحب خلقى الى الأنبياء والمساكين فاصنع طعاما وادع اليه المساكين ، وقيل . اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت .

ثم قال يعقوب عليه السلام ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أى أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون ، وهو أنه تعالى يأتى بالفرج من حيث لا أحسب ، فهو إشارة الى أنه كان يتوقع وصول يوسف اليه . وذكروا السبب هذا التوقع أمورا : أحدها : أن ملك الموت أتاه فقال له : ياملك الموت هل قبضت روح ابنى يوسف ؟ قال لا يابنى الله ثم أشار الى جانب مصر وقال : اطلبه ههنا ، وثانيها : أنه علم أن رؤيا يوسف صادقة . لأن أمارات الرشد والكمال كانت ظاهرة فى حق يوسف ورؤيا مثله عليه السلام لا تخطئ ، وثالثها : لعله تعالى أوحى اليه أنه سيوصله اليه . ولكنه تعالى ما عين الوقت . فلماذا بقى فى القلق ، ورابعها : قال السدى : لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله فى أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو يوسف وقال : يبعد أن يظهر فى الكفار مثله ، وخامسها : علم قطعاً أن بنيامين لا يسرق وسمع أن الملك ما آذاه وماضر به فغلب على ظنه أن ذلك الملك هو يوسف فهذا جملة السلام فى المقام الأول .

﴿والمقام الثانى﴾ أنه رجع إلى أولاده وتكلم معهم على سبيل اللطف . وهو قوله (يابنى اذهبوا فتحنسوا من يوسف وأخيه)

واعلم أنه عليه السلام لما طمع فى وجدان يوسف بناء على الأمارات المذكورة قال لبنيه : تحنسوا من يوسف ، والتحنس طلب الشئ بالحاسة وهو شبيه بالسمع والبصر . قال أبو بكر الانبارى يقال : تحسنت عن فلان ولا يقال من فلان ، وقيل : ههنا من يوسف لأنه أقام من مقام عن . قال : ويجوز أن يقال : من التبعيض . والمعنى تحنسوا خبرا من أخبار يوسف ، واستعملوا بعض أخبار يوسف

فذكرت كلمة (من) لما فيها من الدلالة على التبعية، وقرىء (تجسسوا) بالفتح كما قرىء بهم، في الحجرات .

ثم قال «ولا يأسوا من روح الله» قال الأصمعي: الروح بالجملة الإنسان من سائر الدواب، ذكر الله وتركيب الرأ والواو والحاء يفيد الحركة والاهتزاز ، فكلمها بهتز الإنسان له ويلتذ بوجوده فهو روح . وقال ابن عباس : لا تيسوا من روح الله يريد من رحمة الله . وعن قتادة : من نفس الله . وقال ابن زيد : من فرج الله . وهذه الألفاظ متقاربة . وقرأ الحسن و قتادة : من روح الله بالضم أى من رحمته .

ثم قال «انه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون» قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء .

واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الاله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكرمه بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر . فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة . وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا والله أعلم . وقد بقي من مباحث هذه الآية سؤالات :

(السؤال الأول) أن بلوغ يعقوب في حب يوسف الى هذا الحد العظيم لا يليق إلا بمن كان غافلا عن الله . فإن من عرف الله أحبه ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شيء سوى الله تعالى . وأيضا القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشئين ، فلما كان قلبه مستغرقا في حب ولده امتنع أن يقال : إنه كان مستغرقا في حب الله تعالى .

(والسؤال الثاني) أن عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب أن يشتغل بذكر الله تعالى ، وبالتفويض اليه والتسليم لقضائه .

وأما قوله (ياأسف على يوسف) فذلك لا يليق بأهل الدين والعلم فضلا عن أكابر الأنبياء . (والسؤال الثالث) لاشك أن يعقوب كان من أكابر الأنبياء ، وكان أبوه وجده وعمه كلهم من أكابر الأنبياء المشهورين في جميع الدنيا ، ومن كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة صعبة في أعز أولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية . بل لا بد وأن يبلغ في الشهرة الى حيث يعرفها كل أحد لاسيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وبقي يعقوب على حزنه الشديد وأسفه العظيم ، وكان يوسف في مصر وكان يعقوب في بعض بلاد الشام قريبا من مصر . فع قرب المسافة يتمتع بقاء مثل هذه الواقعة مخفية .

(السؤال الرابع) لم لم يبعث يوسف عليه السلام أحدا إلى يعقوب ويعلمه أنه في الحياة وفي

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بَبْصَاعَةً  
 مَزْجَاةً فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ «٨٨» قَالَ هَلْ  
 عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ «٨٩» قَالُوا أَأَنْتَ الَّذِي كُنَّا نَقُولُ  
 لِيُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ  
 لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ «٩٠»

السلامة ولا يقال: إنه كان يخاف إخوته لأنه بعد أن صار ملكاً قاهراً كان يمكنه إرسال الرسول  
 إليه وإخوته ما كانوا يقدرون على دفع الرسول.

«والسؤال الخامس» كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يضع الصاع في وعاء أخيه ثم يستخرجه  
 منه ويلصق به تهمة السرقة مع أنه كان بريئاً عنها.

«السؤال السادس» كيف رغب في الصاق هذه التهمة به وفي حبسه عند نفسه مع أنه  
 كان يعلم أنه يزداد حزن أبيه ويقوى.

والجواب عن الأول: أن مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ماسواه من الخواطر.  
 ثم إن صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع إلى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع  
 فيصير ذلك سبباً لسبب الاستغراق.

والجواب عن الثاني: أن الداعي الإنسانية لا تزول في الحياة العاجلة فتارة كان يقول (يا أسفى على  
 يوسف) وتارة كان يقول (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) وأما بقية الأسئلة فالقاضي  
 أجاب عنها بجواب كلي حسن، فقال هذه الوقائع التي نقلت البينا إما يمكن تخريجها على الأحوال  
 المعتادة أولاً لا يمكن فإن كان الأول فلا اشكال، وأن الثاني فنقول: كان ذلك الزمان زمان الأنبياء  
 عليهم السلام وخرق العادة في هذا الزمان غير مستبعد، فلم يمتنع أن يقال: إن بلدة يعقوب عليه  
 السلام مع أنها كانت قريبة من بلدة يوسف عليه السلام، ولكن لم يصل خبر أحدهما إلى الآخر  
 على سبيل تقضى العادة.

قوله تعالى «فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببصاعة مزجاة فأوف  
 لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم



جاهلون قالوا أنذك لأنك يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا أنه من يثق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿١﴾  
اعلم أن المفسرين اتفقوا على أن ههنا محذوفاً والتقدير : أن يعقوب لما قال لابنيه (اذمبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) قبلوا من أبيهم هذه الوصية فعادوا إلى مصر ودخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له (يا أيها العزيز)  
فان قيل : إذا كان يعقوب أمرهم أن يتحسسوا أمر يوسف وأخيه فلماذا عدلوا إلى الشكوى وطلبوا إيفاء الكيل ؟

قلنا : لأن المتحسسين يتوسلون إلى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا : نجربه في ذكر هذه الأمور فان رقق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا . فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة . وقالوا يا أيها العزيز ، والعزيز هو الملك القادر المنيع (مسنا وأهلنا الضر) وهو الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام وعنوا بأهلهم من خلفهم (وجئنا ببضاعة مزجاة) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ معنى الازجاء في اللغة ، الدفع قليلا قليلا . ومثله التزجية يقال الريح تزجى السحاب . قال الله تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا) وزجيت فلانا بالقول دافعت . وفلان يزجى العيش أى يدفع الزمان بالحيلة .

﴿والبحث الثانى﴾ إنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة إما لتقصانها أو لرداءتها أو لهما جميعاً والمفسرون ذكروا كل هذه الأقسام قال الحسن : البضاعة المزجاة القليلة . وقال آخرون إنها كانت رديئة واختلفوا فى تلك الرداءة ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما كانت دراهم رديئة لا تقبل فى ثمن الطعام ، وقيل : خلق الغرارة والحبل وأمتعة رثة ، وقيل : متاع الأعراب الصوف والسمن . وقيل الحبة الخضراء . وقيل الأقط ، وقيل النعال والأدم ، وقيل سويق المقل ، وقيل صوف المعز ، وقيل إن دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم التى جاؤا بها ما كان فيها صورة يوسف فما كانت مقبولة عند الناس :

﴿البحث الثالث﴾ فى بيان أنه لم سميت البضاعة القليلة الرديئة مزجاة ؟ وفيه وجوه : الأول : قال الزجاج : هى من قولهم فلان يزجى العيش أى يدفع الزمان بالقليل ، والمعنى أنا جئنا ببضاعة مزجاة ندافع بها الزمان ، وليست مما ينتفع به وعلى هذا الوجه فالتقدير ببضاعة مزجاة بها الأيام الثانى : قال أبو عبيد : إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة ، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها

قال وهي من الأجزاء ، والأجزاء عند العرب السوق والدفع . الثالث : ببضاعة مزجاة أى مؤخرة مدفوعة عن الاتفاق لا يتفق مثلها إلا من اضطر واحتاج إليها لفقد غيرها مما هو أجود منها . الرابع : قال الكلبي : مزجاة لغة العجم . وقيل هى من لغة القبط قال أبو بكر الأنباري : لا ينبغي أن يحمل لفظ عربي معروف الاشتقاق والتصرف منسوباً إلى القبط .

«البحث الرابع» قرأ حمزة والكسائي مزجاة بالامالة ، لأن أصله الياء . والباقون بالنصب والتفخيم .

واعلم أن حاصل الكلام في كون البضاعة مزجاة إما لقلتها أو لنقصانها أو لمجموعهما ولما وصفوا شدة حالمهم ووصفوا ببضاعتهم بأنها مزجاة قالوا له (فأوف لنا الكيل) والمراد أن يساهلهم إما بأن يقيم الناقص مقام الزائد أو يقيم الرديء مقام الجيد ، ثم قالوا (وتصدق علينا) والمراد المساحمة بما بين الثمين وأن يسعر لهم بالرديء كما يسعر بالجيد ، واختلف الناس في أنه هل كان ذلك طلباً منهم للصدقة فقال سفيان بن عيينة : إن الصدقة كانت حلالاً للأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية وعلى هذا التقدير ، كأنهم طلبوا القدر الزائد على سبيل الصدقة ، وأنكر الباقر ذلك . وقالوا حال الأنبياء وحال أولاد الأنبياء في طلب الصدقة . لأنهم يأفون من الخضوع للخلقين ويغلب عليهم الانقطاع إلى الله تعالى والاستغاثه به عن سواه ، وروى عن الحسن ومجاهد : أنهما كرهما أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق على ، قالوا : لأن الله لا يتصدق إنما يتصدق الذي يتبغى الثواب ، وإنما يقول : اللهم اعطني أو تفضل ، فعلى هذا التصديق هو إعطاء الصدقة والمتصدق المعطى . وأجاز الليث أن يقال للسائل : متصدق . وأباه الأكثر . وروى أنهم لما قالوا (مسنا وأهلنا الضر) وتضرعوا إليه أغرورقت عيناه فعند ذلك (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) وقيل : دفعوا إليه كتاب يعقوب . فيه من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر . أما بعد : فأنا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدى فشدت يداه ورجلاه ورمى في النار ليحرق فنجاه الله وجعلنا برداً وسلاماً عليه ، وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله ، وأما أنا فكان لى ابن . وكان أحب أولادى إلى فذهب به اخوته إلى البرية . ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من البكاء عليه ، ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه . وكنت أتسلى به فذهبوا به إليك ثم رجعوا وقالوا . إنه قد سرق وإنك حبسته عندك وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلذذ سارقاً ، فان رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تترك السابع من ولدك . فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتألك وعيل صبره وعرفهم أنه يوسف .

ثم حكى تعالى عن يوسف عليه السلام في هذا المقام أنه قال (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) قيل إنه لما قرأ كتاب أبيه يعقوب ارتعدت مفاصله وأشعر جلدته ولان قلبه وكثر بكأؤه وصرح بأنه يوسف . وقيل : إنه لما رأى أخوته تضرعوا إليه ووصفوا ما هم عليه من شدة الزمان وقلة الحيلة أدر كته الرقة فصرح حينئذ بأنه يوسف ، وقوله (هل علمتم ما فعلتم بيوسف) استفهام يفيد تعظيم الواقعة ، ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه ، وهو كما يقال للبذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت ؟

واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى (وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وأما قوله (وأخيه) فالمراد ما فعلوا به من تعريضه للغم بسبب إفراذه عن أخيه لأبيه وأمه ، وأيضاً كانوا يؤذونه ومن جملة أقسام ذلك الإيذاء قالوا في حقه (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وأما قوله (إذ أنتم جاهلون) فهو يجري مجرى العذر كأنه قال : أنتم إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور ، يعنى والآن لستم كذلك ، ونظيره ما يقال في تفسير قوله تعالى (ما عرك ربك الكريم) قيل إنما ذكر تعالى هذا الوصف المعين ليكون ذلك جارياً مجرى الجواب وهو أن يقول العبد يارب غرني كرمك فكذا ههنا إنما ذكر ذلك الكلام إزالة للجهالة عنهم وتخفيفاً للأمر عليهم . ثم إن أخوته قالوا (أنتك لانت يوسف قال أنا يوسف) قرأ ابن كثير (انك) على لفظ الخبر ، وقرأ نافع (أينك لانت يوسف) بفتح الألف غير ممدودة وبالياء وأبو عمرو (آينك) بمد الألف وهو رواية قالون عن نافع ، والباقون (أنتك) بهمزتين وكل ذلك على الاستفهام ، وقرأ أبى (أو أنت يوسف) فحصل من هذه القراءات أن من القراء من قرأ بالاستفهام ومنهم من قرأ بالخبر . أما الأولون فقالوا : إن يوسف لما قال لهم (هل علمتم) وتبسم فأبصروا ثنياه ، وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف ، فقالوا له استفهاماً (أنتك لانت يوسف) ويدل على صحة الاستفهام أنه (قال أنا يوسف) وإنما أجابهم عما استفهموا عنه . وأما من قرأ على الخبر فحجته ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه ، وكان في فرقة علامة وكان ليعقوب وإحقيق مثلها شبه الشامة ، فلما رفع التاج عرفوه بتلك العلامة . فقالوا (إنك لانت يوسف) ويجوز أن يكون ابن كثير أراد الاستفهام . ثم حذف حرف الاستفهام وقوله (قال أنا يوسف) فيه بحثان :

(البحث الأول) اللام لام الابتداء . وأنت مبتدأ . ويوسف خبره ، والجملة خبر إن .

(البحث الثاني) أنه إنما صرح بالاسم تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته وما عوضه الله من

قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ «٩١» قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «٩٢» أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ «٩٣»

الظفر والنصر : فكانه قال : أنا الذي ظلمتموني على أعظم الوجوه والله تعالى أوصلي إلى أعظم المناصب . أنا ذلك العاجز الذي قصدتم قتله وإلقائه في البر ثم صرتم كأترون ، ولهذا قال ( وهذا أخى ) مع أنهم كانوا يعرفونه لأن مقصوده أن يقول : وهذا أبضاً كان مظلوماً كما كنت ثم إنه صار منعماً عليه من قبل الله تعالى كأترون وقوله ( قد من الله علينا ) قال ابن عباس رضى الله عنهما بكل عزي الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة وقوله ( إنه من يتق ويصبر ) معناه : من يتق معاصي الله ويصبر على أذى الناس ( فان الله لا يضيع أجر المحسنين ) والمعنى : إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتغال على المتقين . وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن يوسف عليه السلام وصف نفسه في هذا المقام الشريف بكونه متقياً ولو أنه قدم على ما يقوله الحشوية في حق زليخا لكان هذا القول كذباً منه وذكر الكذب في مثل هذا المقام الذى يؤمن فيه الكافر ويتوب فيه العاصى لا يليق بالعلاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدى روى عن ابن كثير في طريق قبل ( إنه من يتق ) بأثبات الياء في الحالين ووجهه أن يجعل « من » بمنزلة الذى فلا يوجب الجزم ويجوز على هذا الوجه أن يكون قوله ( ويصبر ) في موضع الرفع إلا أنه حذف الرفع طلباً للتخفيف كما يخفف في عضدوشمع . والباقون بحذف الياء في المالين .

قوله تعالى « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين »

اعلم أن يوسف عليه السلام لما ذكر لآخوته أن الله تعالى من عليه وإن من يتق المعاصى ويصبر على أذى الناس فانه لا يضيعه الله صدقوه فيه ، واعترفوا له بالفضل والمزية ( قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ) قال الأصمى : يقال : آثرك إثارة ، أى فضلك الله ، وفلان آثر عبد فلان ، إذا كان يؤثره بفضله وصلته ، والمعنى : لقد فضلك الله علينا بالعلم



والحلم والعقل والفضل والحسن والملك ، واحتج بعضهم بهذه الآية على أن أخوته ما كانوا أنبياء ، لأن جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة إليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا ( والله لقد أشرك الله علينا ) وهذا القدي يذهب سؤال من يقول لعل المراد كونه زائدا عليهم في الملك وأحوال الدنيا وإن شاركوه في نبوة لأننا أن أحوال الدنيا لا يعبأ بها في منصب النبوة .

وأما قوله « وإن كنا خاطئين » قيل الخاطيء هو الذي أتى بالخطيئة عمدا . و فرق بين الخاطيء والمخطيء ، فاللهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الأحكام فلا يصيب إنه مخطيء . ولا يقال إنه خاطيء . وأكثر المفسرين على أن الذي اعتذروا منه هو أقدامهم على القائه في الحب وبيعته وتبعيده عن البيت والأب . وقال أبو علي الجبائي : إنهم لم يعتذروا إليه من ذلك ، لأن ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنباً فلا يعتذر منه . وإنما اعتذروا من حيث أنهم أخطوا بعد ذلك بأن لم يظهروا لآبائهم ما فعلوه . ليعلم أنه حتى وأن الذنب لم يأكله وهذا الكلام ضعيف من وجود :

( الوجه الأول ) أنا بينا أنه لا يجوز أن يقال لهم أقدموا على تلك الأعمال في زمن الصبا لأنه من البعيد في مثل يعقوب أن يبعث جمعا من الصبيان غير البالغين من غير أن يبعث معهم رجلا عاقلا يمنهم عما لا ينبغي ويحملهم على ما ينبغي .

( الوجه الثاني ) هب أن الأمر على ما ذكره الجبائي إلا أنا نقول غاية ما في الباب أنه لا يجب الاعتذار عن ذلك إلا أنه يمكن أن يقال أنه يحسن الاعتذار عنه ، والدليل عليه أن المذنب إذا تاب زال عقابه . ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة أخرى ، فعلينا أن الإنسان أيضاً قد يتوب عند ما لا تكون التوبة واجبة عليه .

واعلم أنهم لما اعترفوا بفضلهم عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف ( لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ) وفيه بحثان :

( البحث الأول ) التثريب التوبيخ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « إذا زنت أمة أحدكم فليضربها الحد ولا يثرها » أي ولا يعيرها بالزنا ، فقوله ( لا تثريب ) أي لا توبيخ ولا عيب وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش . ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد قال عطاء الخراساني طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها إلى الشيوخ ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام لا أخوته ( لا تثريب عليكم ) وقول يعقوب ( سوف أستغفر لكم ربى )

( البحث الثاني ) أن قوله ( اليوم ) متعلق بماذا وفيه قولان :

﴿القول الأول﴾ انه متعلق بقوله (لا تثريب) أى لا أثر بكم اليوم وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب فما ظنكم بسائر الأيام ، وفيه احتمال آخر وهو أنى حكمت فى هذا اليوم بأن لا تثريب مطلقاً لأن قوله (لا تثريب) نفي للمساهية ونفي للمساهية يقتضى انتفاء جميع أفراد المساهية ، فكان ذلك مفيداً للنفي المتناول لكل الأوقات والأحوال . فتقدير الكلام اليوم حكمت بهذا الحكم العام المتناول لكل الأوقات والأحوال . ثم إنه لما بين لهم أنه أزال عنهم ملامة الدنيا طلب من الله أن يزيل عنهم عقاب الآخرة فقال (يعفو الله لكم) والمراد منه الدعاء .

﴿والقول الثانى﴾ أن قوله (اليوم) متعلق بقوله (يعفو الله لكم) كأنه لما نفي التثريب مطلقاً بشرهم بأن الله غفر ذنبهم فى هذا اليوم ، وذلك لأنهم لما انكسروا وخجلوا واعترفوا وتابوا فالتهم قبل توبتهم وغفر ذنبهم . فلذلك قال (اليوم يعفو الله لكم) روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بعصا دق باب السكبة يوم الفتح . وقال لقريش «ما ترونى فاعلا بكم» فقالوا لظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت . فقال «أقول ما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم» وروى أن أباسفيان لما جاء ليسلم قال له العباس : اذا أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتل عليه (قال لا تثريب عليكم اليوم) ففعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «غفر الله لك ولمن علمك» وروى أن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا اليه إنك تحضرنا فى مائدتك بكرة وعشيا ونحن نستحي منك لما صدر منا من الاساءة اليك ، فقال يوسف عليه السلام ان أهل مصر وإن ملكت فيهم فاتهم نظرونى بالعين الأولى ويقولون : سبجان سن ببلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ، ولقد شرفت الآن باتيانكم وعظمت فى العيون لما جئتم وعلم الناس أنكم إخوتى وإنى من حفدة إبراهيم عليه السلام .

ثم قال يوسف عليه السلام ﴿اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا﴾ قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألمهم عن أبيه فقالوا ذهب عينا ، فأعاطهم قميصه ، قال المحققون : إنما عرف أن القاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحى من الله تعالى ولولا الوحى لما عرف ذلك . لأن العقل لا يدل عليه ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ماضى أعمى إلا أنه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فاذا ألقى عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل فى قلبه الفرح الشديد ، وذلك يقوى الروح ويزيل الضعف عن القوى ، فحينئذ يقوى بصره . ويروى عنه ذلك التقصان ، فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب فان القوانين الطيبة تدل على صحة هذا المعنى . وقوله (يأت بصيرا) أى يصير بصيرا ويشهد له (فارتد بصيرا) ويقال : المراد يأت الى وهو بصير ، وإنما أفرد بالذكر تعظيما له ، وقال فى الباقيين (وأتونى بأهلكم أجمعين) قال

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ٩٤  
 قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ٩٥ ﴿قَلْبًا أَنْ جَاءَهُ الْبَشِيرُ الْفَقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ  
 فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٩٦ قَالُوا  
 يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ٩٧ ﴿قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ  
 رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ٩٨

الكلبي: كان أهله نحو من سبعين إنسانا وقال مسروق دخل قوم يوسف عليه السلام مصر . وهم ثلاثة وتسعون من بين رجل وامرأة ، وروى أن يهودا حمل الكتاب وقال أنا أحزنه بحمل القميص المططح بالدم اليه فأفرجه كما أحزنه . وقيل حمله وهو حاف وحاسر من مصر إلى كنعان . وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا .

قوله تعالى ﴿ولما فصلت العير قال أبوهم﴾ (إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم فلما جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقول لكم إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قال سوف أستغفر لكم ربِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

يقال : فصل فلان من عند فلان فصولا إذا خرج من عنده . وفصل مني اليه كتابا إذا أنفذ به اليه . وفصل يكون لازما ومتعديا وإذا كان لازما فصدده الفصول وإذا كان متعديا فصدره الفصل قال لما خرجت العير من مصر متوجهة الى كنعان قال : يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرباته وولد ولده (إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) ولم يكن هذا القول مع أولاده لأهم كانوا غائبين بدليل أنه عليه السلام قال لهم (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) واختلفوا في قدر المسافة فقيل : مسيرة ثمانية أيام ، وقيل عشرة أيام . وقيل ثمانون فرسخا . واختلفوا في كيفية وصول تلك الراحة اليه ، فقال مجاهد : هبت ريح فصفقت القميص فقاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فلم عليه السلام أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص . فمن ثم قال (إني لأجد ريح يوسف) وروى الواحدى بإسناده عن أنس بن مالك

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أما قوله (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) فإن نمرود الجبار لما ألقى إبراهيم في النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطفنسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه ، فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص اسحاق وكساه اسحق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله في قسبة من فضة وعلقها في عنقه فألقى في الجب والقميص في عنقه . فذلك قوله (اذهبوا بقميصي هذا) والتحقق أن يقال : إنه تعالى أوصل تلك الراحة إليه على سبيل اظهار المعجزات لا وصول الراحة اليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة فيكون معجزة ولا بد من كونها معجزة لأحدهما والأقرب أنه ليعقوب عليه السلام حين أخبر عنه ونسبوه في هذا الكلام الى ما لا ينبغي ، فظهر أن الامر كما ذكر فكان معجزة له . قال أهل المعاني : إن الله تعالى أوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عندا نقضاء مدة المحنة وبجي وقت الروح والفرح من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب إحدى البلدين من الأخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب فهو في زمان الاقبال سهل ومعنى : لأجد ريح يوسف أشم وعبرته بالوجود لأنه وجدان له بحاسة الشم ، وقوله (لولا أن تغفدون) قال أبو بكر بن الأنباري : أفند الرجل إذا حزن وتغير عقله وفند اذا جهل ونسب ذلك اليه ، وعن الأصمعي إذا كثرت كلام الرجل من خرف فهو المغند قال صاحب الكشف : يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم يكن في شبيبته ذات رأى حتى تغند في كبرها فقوله (لولا أن تغفدون) أى لولا أن تنسبونى الى الخرف ، ولما ذكر يعقوب ذلك قال الحاضرون عنده (تالله إنك لاني ضلالك القديم) وفي الضلال ههنا وجوه : الأول : قال مقاتل : يعنى بالضلال ههنا الشقاء . يعنى شقاء الدنيا والمعنى : انك لاني شقائك القديم بما تكابد من الأحزان على يوسف ، واحتج مقاتل بقوله (إنا اذن لني ضلال وسعر) يعنون لني شقاء دنيا ، وقال قتادة : لني ضلالك القديم ، أى لني حيك القديم لا تنساه ولا تنهل عنه وهو كقولهم (إن أبانا لني ضلال مبين) ثم قال قتادة : قد قالوا كلمة غليظة ولم يكن يجوز أن يقولوها لني الله ، وقال الحسن إنما خاطبوه بذلك لا اعتقادهم أن يوسف قدمات وقد كان يعقوب في ولوعه بذكره . ذاهباً عن الرشد والصواب وقوله (فلما أن جاء البشير) في «أن» قولان : الأول : أنه لا موضع لها من الاعراب وقد تذكرتارة كما ههنا ، وقد تحذف كقوله (فلما ذهب عن إبراهيم الروح) والمذهبان جميعاً موجودان في أشعار العرب . والثاني : قال البصريون هي مع «ما» في موضع رفع بالفعل المضمر تقديره : فلما ظهر أن جاء البشير ، أى ظهر بجىء البشير فأضمر الرفع قال جمهور المفسرين البشير هو يهودا قال أنا ذهبت بالقميص الملتصق بالدم وقلت إن يوسف أكله



الذنب فأذهب اليوم بالقميص فأفرجه كما أحزنته قوله (ألقاه على وجهه) أى طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو يقال ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد بصيرا) أى رجع بصيراً ومعنى الارتداد انقلاب الشيء إلى حالة قد كان عليها وقوله (فارتد بصيرا) أى صبره الله بصراً كما يقال طالت ليله والله تعالى أطالها واختلّفوا فيه فقال بعضهم : إنه كان قد عمى بالكلية فأنه تعالى جعله بصيراً في هذا الوقت . وقال آخرون : بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان . فلما ألقوا القميص على وجهه ، وبشر بحياة يوسف عليه 'سلام' عظم فرحه . وانشرح صدره وزالت أحزانه ، فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه ، فعند هذا قال (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون) والمراد عليه بحياة يوسف من جهة الرؤيا . لأن هذا المعنى هو الذى له تعلق بما تقدم . وهو إشارة إلى ما تقدم من قوله (إنما أشكوا بشى وحزنا إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) روى أنه سأل البشير وقال : كيف يوسف قال هو ملك مصر ، قال ما صنع بالملك على أى دين تركته قال : على دين الإسلام قال الآن تمت الرسالة . ثم إن أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون إليه (وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وظاهر الكلام أنه لم يستغفر لهم في الحال ، بل وعدهم بأنه يستغفر لهم بعد ذلك . واختلّفوا في سبب هذا المعنى على وجوده : الأول : قال ابن عباس رضى الله عنهما : والأكثر أن أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر . لأن هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الإجابة . الثاني : قال ابن عباس رضى الله عنهما : في رواية أخرى أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة . لأنها أوفق الأوقات للإجابة . ثالث : أراد أن يعرف أنهم هل تابوا في الحقيقة أم لا . وهل حصلت توبتهم مقرونة بالاخلاص التام أم لا . الرابع : استغفر لهم في الحال . وقوله (سأستغفر لكم) معناه أنى أداوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل . فقد روى أنه كان يستغفر لهم في كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة . وقيل : قام إلى الصلاة في وقت فلما فرغ رفع يده إلى السماء وقال «اللهم اغفرلى جزعى على يوسف وقلة صبرى عليه ، واغفر لأولادى ما فعلوه في حق يوسف عليه السلام» فأوحى الله تعالى إليه : قد غفرت لك ولهم أجمعين . وروى أن أبناء يعقوب عليه السلام قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف والبكاء : ما يغنى عنا إن لم يغفر لنا ، فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو ، وقام يوسف خلفه يؤمن . وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى قل صبرهم فظنوا أنها الملكة فنزل جبريل عليه السلام وقال «إن الله تعالى أجاب دعوتك في ولدك وعقد مواعيدهم بعدك على النبوة» وقد اختلف الناس في خبرهم وخوشتهم .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ  
آمِينَ «٩٩» وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ  
رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ  
وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ  
لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ «١٠٠»

قوله تعالى ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين ورفع  
أبويه على العرش وخرروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد  
أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي  
إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم

اعلم أنه روى أن يوسف عليه السلام وجه إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه  
وخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعطاء وأهل مصر بأجمعهم تلقوا  
يعقوب عليه السلام وهو يمشي بتوكأ على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال يا يهودا هذا فرعون  
مصر. قال لا. هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام ففتح من ذلك فقال يعقوب عليه السلام:  
السلام عليك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون مابين رجل وامرأة وخرجوا  
منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً سوى الصبيان والشيوخ  
أما قوله ﴿آوى إليه أبويه﴾ فقيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ في المراد بقوله أبويه قولان : الأول : المراد أبوه وأمه ، وعلى هذا القول فقليل إن  
أمه كانت باقية حية الى ذلك الوقت ، وقيل إنها كانت قد ماتت ، إلا ان الله تعالى أحيأها وأنشأها  
من قبرها حتى سمحت له تحقيقاً لرؤية يوسف عليه السلام ،

﴿والقول الثاني﴾ ان المراد أبوه وخالته ، لأن أمه ماتت في النفاس بأخيه بنيامين ، وقيل :  
بنيامين بالعبرانية ابن الوجد ، ولما ماتت أمه تزوج أبوه بنخاته فسمأها الله تعالى بأحد الأبوين ، لأن

الرابية تدعى، إما لقيامها مقام الأم أو لأن الحالة أم كما أن الع أب، ومنه قوله تعالى (وإله أناتك إبراهيم وإسماعيل وإسحق)

(البحث الثاني) آوى إليه أبويه ضمهما إليه واعتنقهما.

فان قيل: مامعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟

قلنا: كأنه حين استقبلهم نزل بهم في بيت هناك أو خيمة فدخلوا عليه وضم إليه أبويه وقال

لهم (ادخلوا مصر)

أما قوله «ادخلوا مصر إن شاء الله آمين» ففيه أبحاث:

(البحث الأول) قال السدى إنه قال: هذا القول قبل دخولهم مصر: لأنه كان قد استقبلهم

وهذا هو الذى قررناه، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: المراد بقوله (ادخلوا مصر) أى أقيموا بها آمين، سعى الإقامة دخولاً لاقتران أحدهما بالآخر.

(البحث الثاني) الاستثناء وهو قول (إن شاء الله) فيه قولان: الأول: أنه عائد الى الأمن

لا الى الدخول، والمعنى: ادخلوا مصر آمين إن شاء الله، ونظيره قوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين) وقيل إنه عائد الى الدخول على القول الذى ذكرناه أنه قال لهم هذا الكلام قبل أن دخلوا مصر.

(البحث الثالث) معنى قوله (آمين) يعنى على أنفسكم وأمواكم وأهلكم لاتخافون أحدا.

وكانوا فيما سلف يخافون ملوك مصر وقيل آمين من القحط والشدة والفاقة، وقيل آمين من أن يضرمهم يوسف بالجرم السالف.

أما قوله «ورفع أبويه على العرش» قال أهل اللغة: العرش السرير الرفيع قال تعالى (ولها

عرش عظيم) والمراد بالعرش ههنا السرير الذى كان يجلس عليه يوسف. وأما قوله (وخرؤا له سجدا) ففيه إشكال. وذلك لأن يعقوب عليه السلام كان أباً يوسف وحق الأبوة عظيم قال تعالى (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) فقرن حق الوالدين بحق نفسه، وأيضاً أنه كان شيخاً، والشاب يجب عليه تعظيم الشيخ.

(والقول الثالث): أنه كان من أكابر الأنبياء ويوسف وان كان نبياً إلا أن يعقوب كان

أعلى حالاً منه.

(والقول الرابع) أن جد يعقوب واجتهاده في تكثير الطاعات أكثر من جد يوسف ولما

اجتمعت هذه الجهات الكثيرة فهذا يوجب أن يبالغ يوسف في خدمة يعقوب فكيف استجاز يوسف أن يسجد له يعقوب هذا تقرير السؤال.

والجواب عنه من وجوه :

(الوجه الأول) وهو قول ابن عباس في رواية عطاء أن المراد بهذه الآية أنهم خروا له أى لأجل وجدانه سجدا لله تعالى ، وحاصل الكلام : أن ذلك السجود كان سجودا للشكر فالمسجود له هو الله ، إلا أن ذلك السجود إنما كان لأجله والدليل على صحة هذا التأويل أن قوله (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) مشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير ، ثم سجدوا له ، ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل في التواضع .

فان قالوا : فهذا التأويل لا يطابق قوله (ياأبى هذا تأويل رؤى من قبل) والمراد منه قوله (إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)

قلنا : بل هذا مطابق ويكون المراد من قوله (والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) لاجل أى أى أنها سجدت لله لطلب مصلحتي وللسعى في اعلاء مناصبي ، وإذا كان هذا محتملا سقط السؤال . وعندي أن هذا التأويل متعين ، لأنه لا يستبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته في حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكال النبوة .

(والوجه الثاني) في الجواب أن يقال : إنهم جعلوا يوسف كالقبة وسجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه . وهذا التأويل حسن فانه يقال : صليت للسكبة كما يقال : صليت الى السكبة . قال حسان شعرا .

ما كنت أعرف أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

ليس أول من صلى لقبلكم وأعرف الناس بالقرآن والسنن

وهذا يدل على أنه يجوز أن يقال فلان صلى للقبة ، وكذلك يجوز أن يقال سجد للقبة وقوله (وخروا له سجدا) أى جعلوه كالقبة ثم سجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه .

(الوجه الثالث) في الجواب قد يسمى التواضع سجودا كقوله :

ترى الأمم فيها سجدا للحوافر

وكان المراد ههنا التواضع إلا أن هذا مشكل . لأنه تعالى قال (وخروا له سجدا) والخروا الى السجدة مشعر بالالتيان بالسجدة على أكل الوجوه وأجيب عنه بأن الخروا قد يعنى به المرور فقط قال تعالى (لم يخروا عليها صما وعميانا) يعنى لم يروا .

(الوجه الرابع) في الجواب أن نقول : الضمير في قوله (وخروا له) غير عائد إلى الأبوين لا محالة ، وإلا لقال : وخروا له ساجدين ، بل الضمير عا . إلى إخوته . وإلى سائر من كان يدخل



عليه لأجل التهنئة . والتقدير : ورفع أبويه على العرش مبالغة في تعظيمهما ، وأما الأخوة وسائر الداخلين فخرؤا له ساجدين .

فان قالوا : فهذا لا يلائم قوله « ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل »

قلنا : إن تعبير الرؤيا لا يجب أن يكون مطابقا للرؤيا بحسب الصورة والنسبة من كل الوجوه فسجود الكواكب والشمس والقمر ، تعبير عن تعظيم الأكابر من الناس له . ولا شك أن ذهاب يعقوب مع أولاده من كنعان إلى مصر لأجله في نهاية التعظيم له ، فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا فاما أن يكون التعبير مساويا لأصل الرؤيا في الصفة والصورة فلم يوجه أحد من العقلاء .

﴿ الوجه الخامس ﴾ في الجواب لعل الفعل الدال على لثية والاكرام في ذلك الوقت هو السجود . وكان مقصودهم من السجود تعظيمه ، وهذا في غاية البعد لأن المبالغة في التعظيم كانت أليق بيوسف منها بيعقوب ، فلو كان الأمر كما قلتم ، لكان من الواجب أن يسجد يوسف ليعقوب عليه السلام .

﴿ والوجه السادس ﴾ فيه أن يقال : لعل أخوته حملتهم الأنفة والاستعلاء على أن لا يسجدوا له على سبيل التواضع ، وعلم يعقوب عليه السلام أنهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببا لثوران الفتن ولظهور الأحقاد القديمة بدكونها فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الأبوة والشيخوخة والتقدم في الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود ، حتى تصوير مشاهدتهم لذلك سببا لزوال الأنفة والنفرة عن قلوبهم ألا ترى أن السلطان الكبير إذا نصب محتسبا فإذا أراد ترتيبه مكنه في إقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سببا في أن لا يبق في قلب أحد منازعة ذلك المحتسب في إقامة الحسبة فكذا ههنا .

﴿ الوجه السابع ﴾ لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا هو كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلا هو . ويوسف ما كان راضيا بذلك في قلبه إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت .

ثم حكى تعالى أن يوسف لما رأى هذه الحالة ﴿ قال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ﴾ وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه لما رأى يسجد أبويه وإخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه ، وقال ليعقوب هذا تأويل رؤياي من قبل ، وأقول : هذيقوى الجواب السابع كانه يقول : ياأبت لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا

أمر أمّرت به وتكليف كلفت به ، فإن رؤيا الأنبياء حق كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده صار سببا لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف وحكاها ليعقوب سببا لوجوب ذلك السجود ، فلهذا السبب حكى ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما رأى ذلك حاله واقشعر جلده ولكنه لم يقل شيئا ، وأقول : لا يبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب كانه قيل له : إنك كنت دائم الرغبة في وصاله ودائم الحزن بسبب فراقه ، فاذا وجدته فاسجد له ، فكان الأمر بذلك السجود من تمام الشدید ، والله أعلم بحقائق الأمور .

﴿البحث الثاني﴾ اختلفوا في مقدار المدة بين هذا الوقت وبين الرؤيا فقول ثمانون سنة ، وقيل : سبعون ، وقيل : أربعون . وهو قول الأكثرين . ولذلك يقولون إن تأويل الرؤيا إنما صحت بعد أربعين سنة ، وقيل ثمانين سنة وعن الحسن أنه أتى في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وبقى في العبودية والسجون ثمانين سنة ، ثم وصل إلى أبيه وأقاربه . وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة والله أعلم بحقائق الأمور .

ثم قال ﴿وقد أحسن بي﴾ أى إلى يقال : أحسن بي واليه . قال كثير .

أسئى بنا أو أحسنى لاملومة لدينا ولا مقلية إن ثقلت

إذ أخرجني من السجن ولم يذكر إخراجي من البئر لوجوه : الأول أنه قال لاختوته (لا تريب عليكم اليوم) ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تريبا لهم فكان إهماله جاريا مجرى السكرم ، الثاني : أنه لما خرج من البئر لم يصير مملكا بل صيره عبدا ، أما لما خرج من السجن صيره مملكا فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاما كاملا ، الثالث : أنه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته وزالت التهمة فكان هذا أقرب إلى المنفعة . الرابع : قال الواحدى : النعمة في إخراجي من السجن أعظم لأن دخوله في السجن كان بسبب ذنب هم به . وهذا ينبغي أن يحمل على ميل الطبع ورغبة النفس ، وهذا وإن كان في محل العفو في حق غيره إلا أنه ربما كان سببا للبؤاخذة في حقه لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين

ثم قال ﴿وجاء بكم من البدو﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ في الآية قولان :

﴿القول الأول﴾ جاء بكم من البدو أى من البادية ، وقال الواحدى : البدو بسيط من الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدى بدوا ، ثم سمي المسكان باسم المصدر فيقال : بدو

وحضر وكان يعقوب وولده بأرض كنعان أهل مواش وبريه .

(والقول الثاني) قال ابن عباس رضي الله عنهما كان يعقوب قد تحول إلى بدا وسكنها . ومهما قدم على يوسف وله بها مسجد تحت جبلها قال ابن الأباري : بدا اسم موضع معروف بقل هو بين شعب وبدا وعما موضعان ذكرهما جميعاً كثير فقال :

وأنت التي حبيت شعباً إلى بدا إلى وأوطاني بلاد سواهما

فالبدا على هذا القول معناه قصد هذا الموضع الذي يقال له بدا يقال بدا القوم يسدون بدوا إذا أتوا بدا كما يقال : غار قوم غورا إذا أتوا الغور فكان معنى الآية وجاء بكم من قصد بدا . وعلى هذا القول كان يعقوب وولده حضريين لأن البدو لم يرد به "بادية" لكن غنى به قصد بدا إلى ههنا كلام قاله الواحدى فى البيط .

(المسألة الثانية) تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن فعل "العبد خلق الله تعالى ، لأن خروج العبد من السجن أضافه إلى نفسه بقوله (إذ أخرجنى من السجن) ومجيئهم من البدو وأضافه إلى نفسه سبحانه بقوله (وجاء بكم من البدو) وهذا صريح فى أن فعل "عبد بعينه فعل الله تعالى وحمل هذا على أن المراد أن ذلك إنما حصل باقدار الله تعالى وتيسيره عدول عن الظاهر .

ثم قال (من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين أخوتي) قال صاحب "الكشاف" : (نزع) أفسد بيننا وأغوى وأصله من نزع الراكض الدابة وحملها على الجرى : يقال : نزعته ونسخه إذا نخسه . واعلم أن الجبائى والكعبي والقاضى : احتجوا بهذه الآية على بطلان الجبر قالوا : لأنه تعالى أخبر عن يوسف عليه "السلام" أنه أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزع إلى الشيطان . ولو كان ذلك أيضاً من الرحمن لوجب أن لا ينسب إلا إليه كما فى النعم .

والجواب : أن أضافته هذا الفعل إلى الشيطان مجاز . لأن عندكم الشيطان لا يمكن من الكلام الخفى وقد أخبر الله عنه فقال (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) فثبت أن ظاهر القرآن يقتضى إضافة هذا الفعل إلى الشيطان مع أنه ليس كذلك . وأيضاً فإن كان اقدام المرء على المعصية بسبب الشيطان فأقدام الشيطان على المعصية ان كان بسبب شيطان آخر لزم التسلسل وهو محال وان لم يكن بسبب شيطان آخر فليقل مثله فى حق الانسان . فثبت أن اقدام المرء على الجهل والفسق ليس بسبب الشيطان وليس أيضاً بسبب نفسه لأن أحدا لا يميل طبعه إلى اختيار الجهل والفسق الذى يوجب وقوعه فى ذم الدنيا وعقاب الآخرة ، ولما كان وقوعه فى الكفر والفسق لا بد له من موقع . وقد بطل القسمان لم يبق إلا أن يقال ذلك من الله تعالى ، ثم الذى

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ «١٠١»

يؤكد ذلك أن الآية المتقدمة على هذه الآية وهي قوله (اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو صريح في أن الكل من الله تعالى .

ثم قال «إن ربي لطيف لما يشاء» والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وأخوته مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف فإذا أراد حصول شيء سهل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول .

ثم قال «إنه هو العليم الحكيم» أعني أن كونه لطيفاً في أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها فيكون عالماً بالوجه الذي يسهل تحصيل ذلك الصعب . وحكيم أي محكم في فعله . حاكم في قضائه . حكيم في أفعاله مبرأ عن العبث والباطل والله أعلم .

قوله تعالى «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين»

في الآية مسائل :

١- (المسألة الأولى) روى أن يوسف عليه السلام أخذ يدي يعقوب وطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح ، فلما أدخله مخازن القراطيس قال يا بني ما أغفلك ، عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى علي ثمان مراحل قال نهاني جبريل عليه السلام عنه قال سلّه عن السبب قال أنت أبسط إليه فسأله فقال جبريل عليه السلام ، أمرني الله بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب . فهلاخفتني وروى أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ولما قربت وفاته أوصى إليه أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق فغضى بنفسه ودفنه ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت . وقيل : ماتناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيباً طاهراً ، فتخاصم أهل مصر في دفنه كل أحد يحب أن يدفن في محله حتى هموا بالقتال فأروا أن الأصلح أن يعملوا له صندوقاً من مرمر ويجعلوه فيه ويدفونه في النيل بمكان يمر الماء عليه ثم يصل إلى مصر لتصل بركة إلى كل أحد ، وولده أفرائيم وميشا ، وولد لأفرائيم نون . ولنون يوشع قتي موسى ، ثم دفن يوسف هناك إلى أن بعث الله موسى



فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه .

(المسألة الثانية) من في قوله (من الملك . ومن تأويل الأحاديث) للتبعيض ، لأنهم يؤت إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل . قال الأصم : إنما قال من الملك ، لأنه كان ذو ملك فوقه .

واعلم أن مراتب الموجودات ثلاثة : المؤثر الذي لا يتأثر وهو الاله تعالى وتقدس ، والمتأثر الذي لا يؤثر وهو عالم الأجسام ، فإما قابلة للتشكيل والتصوير والصفات المختلفة والأعراض المتضادة فلا يكون لها تأثير في شيء أصلا . وهذان القسمان متباعدان جدا ويتوسطهما قسم ثالث ، وهو الذي يؤثر ويتأثر ، وهو عالم الأرواح . فخاصية جوهر الأرواح أنها تقبل الأثر والتصرف عن عالم نور جلال الله ، ثم إنها إذا أقبلت على عالم الأجسام تصرفت فيه وأثرت فيه ، فتعلق الروح بعالم الأجسام بالتصرف والتدبير فيه ، وتعلقه بالم الالهيات بالعلم والمعرفة . وقوله تعالى (قد أتيتني من الملك) إشارة الى تعلق النفس بعالم الأجسام وقوله (وعلمتني من تأويل الأحاديث) إشارة إلى تعلقها بحضرة جلال الله ، ولما كان لانهائية لدرجات هذين النوعين في الكمال والقصور والقوة والضعف والجلالة والخفاء ، امتنع أن يحصل منهما للانسان إلا مقدار متناه ، فكان الحاصل في الحقيقة بعضا من أبعاد الملك ، وبعضا من أبعاد العلم ، فلهذا السبب ذكر فيه كلمة «من» لأنها دالة على التبعيض . ثم قال (فاطر السموات والأرض) وفيه أبحاث :

(البحث الأول) في تفسير لفظ (الفاطر) بحسب اللغة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما كنت أدرى معنى الفاطر حتى احتكم إلى أعرابي في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها . قال أهل اللغة : أصل الفطر في اللغة الشق يقال : فطر ناب البعير إذا بدا وفطرت الشيء فانفطر ، أى شققته فانشق ، وتفطر الأرض بالنبات والشجر بالورق إذا تصدعت . هذا أصله في اللغة ، ثم صار عبارة عن الإيجاد ، لأن ذلك الشيء حال عدمه كأنه في ظلمة وخفاء فلما دخل في الوجود صار كأنه انشق عن عدم وخرج ذلك الشيء منه .

(البحث الثاني) أن لفظ (الفاطر) قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشيء عن عدم المحض بدليل الاشتقاق الذي ذكرناه ، إلا أن الحق أنه لا يدل عليه ويدل عليه وجوه : أحدها : أنه قال (الحمد لله فاطر السموات والأرض) ثم بين تعالى أنه إنما خلقها من الدخان حيث قال (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشيء من عدم المحض . وثانيها : أنه تعالى قال (فطرة الله التي فطر الناس عليها) مع أنه تعالى إنما خالق الناس من التراب . قال تعالى

(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وثالثها : أن الشيء إنما يكون حاصلًا عند حصول مادته وصورته مثل الكوز ، فانه إنما يكون موجودًا اذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة ، فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجودًا ، وبإيجاد تلك الصورة صار موجودًا لذلك الكوز . فعلمنا أن كونه موجودًا للكون لا يقتضى كونه موجودًا لمادة الكوز ، فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجودًا للأجزاء التي منها تركبت السموات والأرض ، وإنما صار الينا كونه تعالى موجودًا لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن .

واعلم أن قوله (فاطر السموات والأرض) يؤهم أن تخليق السموات مقدم على تخليق الأرض عند من يقول : الواو تفيد الترتيب ، ثم العقل يؤكد أيضا ، وذلك لأن تعين المحيط يوجب تعين المركز وتعيينه فانه لا يوجب تعين المحيط ، لانه يمكن أن يحيط بالمركز الواحد محيطات لانهاية لها ، امالا يمكن أن يحصل للمحيط الواحد إلا مركز واحد بعينه . وأيضا اللفظ يفيد أن السماء كثيرة والأرض واحدة ، ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه في قوله (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض)

﴿البحث الثالث﴾ قال الزجاج : نصبه من وجهين : أحدهما : على الصفة لقوله (رب) وهو نداء مضاف في موضع نصب ، والثاني : يجوز أن ينصب على نداء ثان .

ثم قال ﴿أنت ولي في الدنيا والآخرة﴾ والمعنى : أنت الذى تتولى اصلاح جميع مهماتى فى الدنيا والآخرة فوصل الملك الثانى بالملك الباقى ، وهذا يدل على أن الايمان والطاعة كلمة من الله تعالى إذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولى لمصلحته هو هو ، وحينئذ يبطل عموم قوله (أنت ولي في الدنيا والآخرة)

ثم قال ﴿توفى مسلما وألحقني بالصالحين﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال «من شغلته ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلا بد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فههنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض) ثم ذكر عقيبه الدعاء وهو قوله (توفى مسلما وألحقني بالصالحين) ونظيره ما فعله الخليل صلوات الله عليه في قوله (الذى خلقني فهو يهدين) فن هنا الى قوله (رب هب لي حكما) ثناء على الله ثم قوله (رب هب لي) إلى آخر الكلام دعاء فكذا ههنا .

﴿المسألة الثانية﴾ اختلفوا في أن قوله (توفى مسلما) هل هو طلب منه اللوفاه أم لا ؛ فقال قتادة : سأل ربه للحقوق به ولم يتمن نبى قط الموت قبله ، وكثير من المفسرين على هذا القول ، وقال ابن رضى الله عنهما : في رواية عطاء يريد إذا توفيتى فتوفى على دين الاسلام . فهذا طلب لأن يجعل الله وفاته على الاسلام وليس فيه مايدل على أنه طلب الوفاة .

واعلم أن اللفظ صالح للأميرين ولايبعد في الرجل العاقل إذاكمل عقله أن يتمنى الموت ويعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها : أن كمال النفس الانسانية على ماينها في أن يكون عالما بالالهيات ، وفي أن يكون ملكا ومالكا متصرفا في الجسمانيات ، وذكرنا أن مراتب التفارت في هذين النوعين غير متناهية والكمال المطلق فيهما ليس إلا الله وكل مادون ذلك فهو ناقص والناقص اذاحصل له شعور بنقصانه وذاق لذة الكمال المطلق بقى في القلق وألم الطاب ، وإذاكان الكمال المطلق ليس الا الله ، وماكان حصوله للانسان متمعا لزم أن يبقى الانسان أبدا في قلق الطاب وألم التعب فاذا عرف الانسان هذه الحالة عرف أنه لا سبيل له إلى دفع هذا التعب عن النفس الا بالموت ، حينئذ يتمنى الموت .

﴿والسبب الثاني﴾ لتنى الموت أن الخطباء والبلغاء وإن أطنبوا في مذمة الدنيا إلا أن حاصل كلامهم يرجع إلى أمور ثلاثة : أحدها : أن هذه السعادات سريعة الزوال مشرقة على الفناء والألم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها ، وثانيها : أنها غير خالصة بل هى ممزوجة بالمنغصات والمكدرات . وثالثها : أن الأراذل من الخلق يشاركون الأفاضل فيها بل ربما كان حصة الأراذل أعظم بكثير من حصة الأفاضل ، فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ، ولما عرف العاقل أنه لا سبيل الى تحصيل هذه اللذات الامع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لاجرم يتمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات .

﴿والسبب الثالث﴾ وهو الأقوى عند لمحقيقين رحمهم الله أجمعين أن هذه اللذات الجسمانية لاحقيقة لها ، وإنما حاصلها دفع الآلام ، فلذة الأكل عبارة عن دفع ألم الجوع ، ولذة الوقاع عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المنى في أوعية المنى . ولذة الامارة والرياسة عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب شهوة الانتقام وطلب الرياسة وإذاكان حاصل هذه اللذات ليس إلا دفع الألم لاجرم صارت عند العقلاء حقيرة خسيسة نازلة ناقصة وحينئذ يتمنى الانسان الموت ليتخلص عن الاحتياج إلى هذه الأحوال الخسيسة .

﴿والسبب الرابع﴾ أن مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهى ثلاثة أنواع . لذة الأكل ولذة الوقاع

ولذة الرياضة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة . أما لذة الأكل ففيها عيوب : أحدها : أن هذه اللذات ليست قوية فإن الشعور بألم القولنج الشديد والعياذ بالله منه أشد من الشعور باللذة الحاصلة عند أكل الطعام . وثانيها : أن هذه اللذة لا يمكن بقاؤها فإن الإنسان إذا أكل شبع وإذا شبع لم يبق شوقه للالتذاز بالأكل فهذه اللذة ضعيفة ، ومع ضعفها غير باقية . وثالثها : أنها في نفسها خسيصة فإن الأكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالزئاق المجتمع في الفم ولا شك أنه شيء منفر مستقذر ثم لما يصل إلى المعدة تظهر فيه الاستحالة إلى الفساد والتفنن والعفونة . وذلك أيضاً منفر . ورابعها : أن جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة ، فيها فإن الروث في مذاق الجمل كاللوزنج في مذاق الإنسان وكما أن الإنسان يكره تناول غذاء الجمل ، فكذلك الجمل يكره تناول غذاء الإنسان ، وأما اللذة فمستتركة فيما بين الناس . وخامسها : أن الأكل إنما يطيب عند اشتداد الجوع وتلك حاجة شديدة ، والحاجة نقص وافر . وسادسها : أن الأكل يستحق عند العقلاء . قيل : من كانت همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه ، فهذا هو الإشارة المختصرة في معاني الأكل ، وأما لذة النكاح ، فكل ماذكرناه في الأكل حاصل ههنا مع أشياء أخرى ، وهي أن النكاح سبب لحصول الولد ، وحينئذ تكثر الأشخاص فتكثر الحاجة إلى المال فيحتاج الإنسان بسببها إلى الإحتيال في طلب المال بطرق لانهاية لها ، وربما صار هالكا بسبب طلب المال ، وأما لذة الرياضة فعيوبها كثيرة والذي نذكره ههنا سبب واحد وهو أن كل أحد يكره بالطبع أن يكون خادماً مأموراً ويحب أن يكون مخدوماً آمراً ، فإذا سعى الإنسان في أن يصير رئيساً آمراً . كان ذلك دالاً على مخالفة كل ماسواه ، فكأنه ينازع كل الخلق في ذلك ، وهو يحاول تحصيل تلك الرياضة . وجميع أهل الشرق والغرب يحاولون إبطاله ودفعه ، ولا شك أن كثرة الأسباب توجب قوة حصول الأثر وإذا كان كذلك كان حصول هذه الرياضة كالمعتذر ولو حصل فإنه يكون على شرف الزوال في كل حين وأوان بكل سبب من الأسباب وكان صاحبها عند حصولها في الخوف الشديد من الزوال وعند زوالها في الأسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال .

واعلم أن العاقل إذا تأمل هذه المعاني علم قطعاً أنه لاصلاح له في طلب هذه اللذات والسعى في هذه الخيرات البتة . ثم إن النفس خلفت مجبولة على طلبها ، والعشق الشديد عليها ، والرغبة التامة في الوصول إليها وحينئذ ينعقد ههنا قياف ، وهون أن الإنسان مادام يكون في هذه الحياة الجسمانية فإنه يكون طالباً لهذه اللذات وما دام يطلبها كان في عين الآفات وفي لجة الحسرات ، وهذا اللازم مكروه فالملزوم أيضاً مكروه . فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة الجسمانية والسبب في الأمور



المرغبة فى الموت أن موجبات هذه اللذة الجسمانية متكررة ولا يمكن الزيادة عليها . شكر ربى وحسب الملاحة . أما سعادات الآخرة فهى أنواع كثيرة غير متناهية .

قال الامام نضر الدين الرازى رحمة الله عليه : وهو مصنف هذا الكتاب أنار الله به هاهنا . أما صاحب هذه الحالة والمتوغل فيها ، ولو فتحت البات وبالغت فى عيوب هذه لذات الجسمانية فربما كتبت المجلدات وما وصلت إلى قليل منها فهذا السبب صرت مواظباً فى أكثر الأوقات على ذكر هذا الذى ذكره يوسف عليه السلام . وهو قوله (رب قد آتيتنى من الملك وعلتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفى مسلماً والحقنى بالصالحين)

(المسألة الثالثة) تمسك أصحابنا فى بيان أن الايمان من الله تعالى بقوله توفى مسلماً وتقريره أن تحصيل الاسلام وإبقائه إذا كان من العبد كان طلبه من الله فاسداً . وتقريره كأنه يقول افعل يا من لا تفعل والمتمثلة أبداً يشنعون علينا ويقولون إذا كان الفعل من الله فكيف يجوز أن يقال للعبد افعل مع أنك لست فاعلاً . فنحن نقول ههنا أيضاً إذا كان تحصيل الايمان وإبقاؤه من العبد لا من الله تعالى ، فكيف يطلب ذلك من الله قال الجبائى والكعبي معناه : اطلب اللطف لى فى الاقامة على الاسلام إلى أن أموت عليه . فهذا الجواب ضعيف لأن السؤال وقع على الاسلام فحمله على اللطف عدول عن الظاهر . وأيضاً كل ما فى المقذور من اللطاف فقد فعله فكان طلبه من الله محالاً .

(المسألة الرابعة) لقائل أن يقول : الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم يموتون لاحالة على الاسلام . فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وأنه لا يجوز .

والجواب : أحسن ما قيل فيه إن كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاسلام ويرضى بقضاء الله وقدره . ويكون مطمئن النفس منشراح الصدر منفسح القلب فى هذا الباب ، وهذه الحالة زائدة على الاسلام الذى هو ضد الكفر . فالمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى .

(المسألة الخامسة) أن يوسف عليه السلام كان من أكابر الأنبياء عليهم السلام . والصالح أول درجات المؤمنين . فالواصل إلى الغاية كيف يليق به أن يطالب البداية . قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من المفسرين : يعنى بابائهم إبراهيم وإسماعيل ويحسب ويعقوب ، والمعنى : الحقنى بهم فى ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم . وههنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان أصحاب المكاشفات ، وهو أن النفوس المغارقة اذا أشرقت بالأنوار الألهية واللوامع القدسية . فاذا كانت متناسبة متشاكلة

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ اتَّجَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَانَ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

انعكس النور الذي في كل واحدة منها الى الأخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة . فتعظم تلك الأنوار وتقوى تلك الأضواء ، ومثال تلك الأحوال المرأة الصقيمة الصافية اذا وضعت وضعا متى أشرقت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحدة منها الى الأخرى ، فهناك يقوى الضوء ويكمل النور ، وينتهي في الاشراق والبريق اللعان الى حد لا تطيقه العيون والابصار الضعيفة ، فكذا ههنا .  
قوله تعالى ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾  
اعلم أن قوله (ذلك) رفع بالابتداء وخبره (من أنباء الغيب - ونوحيه اليك) خبر ثان (وما كنت لديهم) أى ما كنت عند اخوة يوسف (اذ أجمعوا أمرهم) أى عزموا على أمرهم وذكرنا الكلام في هذا اللفظ عند قوله (فأجمعوا أمركم) وقوله (وهم يمكرون) أى يوسف ، واعلم أن المقصد من هذا الإخبار عن الغيب فيكون معجزا . بيان أنه إخبار عن الغيب أن محمدا صلى الله عليه وسلم ماطالع الكتب ولم يتلذذ لأحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فأتيا به هذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ، ومن غير أن يقال : إنه كان حاضر امعهم لابد وأن يكون معجزا وكيف يكون معجزا وقد سبق تقرير هذه المقدمة في هذا الكتاب مرارا ، وقوله (وما كنت لديهم) أى وما كنت هناك ذكر على سبيل اتهمكم بهم ، لأن كل أحد يعلم أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان معهم .  
قوله تعالى ﴿وما أكره الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من أجر إن هو الا ذكر للعالمين وكان من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾

اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعتن . واعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا ذكرها فربما آمنوا ، فلما ذكرها أصرروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأين إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) قال أبو بكر بن الأنباري : جواب (لو) بخذوف . لأن جواب (لو) لا يكون مقدما عليها . فلا يجوز أن يقال : قلت لو قلت . وقال القراء في المصادر يقال : حرص يحرص حرصا . واحة أخرى شاذة : حرص يحرص حرصا . ومعنى الحرص : طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد . وقوله (وما تسألهم عليه من أجر) معناه ظاهر وقوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) أى هو تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات . ومعناه : أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة ، ثم لا تطلب منهم مالا ولا جملا ، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا . وقوله تعالى (وكأين من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون) يعنى : أنه لا يجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة . ثم إنهم يمدون عليها ولا يلتفتون إليها .

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لا بد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهى إما الاجرام الفلكية وإما الاجرام العنصرية . أما الاجرام الفلكية : فهى قسمان : إما الأفلاك وإما الكواكب . أما الأفلاك : فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع ، وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته . وقد يستدل بأحوال حركاتها . إما بسبب أن حركاتها مسبقة بالعدم فلا بد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات . وأما الاجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال والظلمات والظلمات والنور ، وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية ، فاما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهى عجائب البر والبحر . وإما من الموالييد وهى أقسام : أحدها : الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح . وثانيها : المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها . وثالثها : النبات وخاصة الخشب والورق والثرى واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصة مخصوصة . ورابعها : اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقها . وخامسها : تشریح أبدان الناس وتشریح القوى الإنسانية وبيان المنفعة

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبْحَانَ اللَّهِ وَمَا  
أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٠٨»

الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل . ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين وحكايات الأقدمين وأن  
الملوك الذين استولوا على الأرض وحرَبوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر  
ولا أثر ، ثم بقي الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المختوى على شرح  
هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل والعقل البشري لا يفي بالاحاطة به فلهذا  
السبب ذكره الله تعالى على سبيل الإبهام قال صاحب الكشف قرئ (والأرض) بالرفع على أنه  
مبتدأ و(يمرون) عليها خبره وقرأ السدى (و الأرض) بالنصب على تقدير أن يفسر قوله (يمرون عليها)  
بقولنا يطوفونها ، وفي مصحف عبدالله (والأرض يمشون عليها) برفع الأرض .

أما قوله «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» فالمعنى : أنهم كانوا مقرين بوجود الاله  
بدليل قوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكا  
في العبودية ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الذين يشبهون الله بخلقه وعنه أيضاً أنه قال :  
نزلت هذه الآية في تلبية مشركي العرب لأنهم كانوا يقولون : ليس لك لا شريك لك إلا شريك  
هو لك تملكه وما ملك ، وعنه أيضاً أن أهل مكة قالوا : الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته  
فلم يوحدوا ، بل أشركوا ، وقال عبدة الأصنام : ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده ، وقالت  
اليهود : ربنا الله وحده وعزيز ابن الله ، وقالت النصارى : ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح  
ابن الله . وقال عبدة الشمس والقمر : ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا . وقال المهجرون والانصار  
ربنا الله وحده ولا شريك معه ، واحتججت الكرامية بهذه الآية دلياً أن الايمان عبارة عن الاقرار  
باللسان فقط ، لأنه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع أنهم مشركون . وذلك يدل على أن الايمان عبارة  
عن مجرد الاقرار باللسان ، وجوابه معلوم ، أما قوله (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) أى  
عقوبة تغشاهم وتبسط عليهم وتغمرهم (أو تأتيهم الساعة بقتة) أى فجأة . وبقتة نصب على الحال  
يقال : بغتهم الأمر بقتا وبقتة إذا فاجأهم من حيث لم يتوقعوا وقوله (وهم لا يشعرون) كالتأكيد  
لقوله (بقتة)

قوله تعالى «قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا  
من المشركين»



وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا  
 فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ  
 اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

قال المفسرون: قل يا محمد لهم هذه الدعوة التي أَدْعُو إليها، الطريفة التي أنا عليها سبيلي  
 وسنتي ومنهاجي، وسمي الدين سبيلا لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب، ومثله قوله تعالى  
 (ادع إلى سبيل ربك)

واعلم أن السبيل في أصل اللغة الطريق. وشبهوا المعتقدات بها لما أن الإنسان يمر عليها إلى  
 الجنة ادعوا الله على بصيرة وحجة وبرهان أنا ومن اتبعني إلى سبيري وطريقتي وسيرة اتباعي الدعوة  
 إلى الله، لأن كل من ذكر الحجة وأجاب عن أشبهة فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله وهذا يدل على أن  
 الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى  
 هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض لغو وقول عبث. وعرو وقال عليه الصلاة والسلام «علماء أممنا الرسل  
 على عباد الله من حيث يحفظون لما تدعونهم إليه» وقيل أيضا يجوز أن ينقطع الكلام عند قوله  
 (ادعوا إلى الله) ثم ابتدأ وقال (على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقراء (وسبحان الله) عطف على قوله  
 (هذه سبيلي) أي قل هذه سبيلي. وقل سبحان الله. تنزيها لله عما يشركون. وما أنا من المشركين  
 الذين اتخذوا مع الله ندا وكفؤا وولدا، وهذه الآية تدل على أن حرفة الكلام وعلم الأصبر  
 حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله مابعثهم إلى الخلق إلا لأجلها.

قوله تعالى «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا» نوحى إليهم من أهل القرى فلم يسيروا في الأرض  
 فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون

اعلم أنه قرأ حفص عن عاصم (نوحى) بالنون. والباقون بالياء (أفلا يعقلون) قرأ نافع وأب  
 كثير وأبو عمرو. ورواية حفص عن عاصم: (تعقلون) بالياء على الخطاب، والباقون:  
 بالياء على الغائب.

واعلم أن من جملة شبه منكرو نبوته عليه الصلاة والسلام أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث  
 ملكا، ففقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) نوحى إليهم من أهل القرى فلما كان الكل

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مِنْ  
نَشَأٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ «١١٠»

هكذا فكيف تعجبوا في حقك يا محمد والآية تدل على أن الله مابعث رسولا الى الخلق من النساء  
وأبضا لم يبعث رسولا من أهل البادية . قال عليه الصلاة والسلام «من بدا جفا ومن اتبع  
الصيد غفل»

ثم قال ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ الى مصارع الأمم المكذبة وقوله (ولدار الآخرة  
خير) والمعنى دار الحالة الآخرة ، لأن للناس حالتين حال الدنيا وحال الآخرة ، ومثله قوله صلاة  
الأولى أى صلاة الفريضة الأولى . وأما بيان أن الآخرة خير من الأولى فقد ذكرنا دلائله مرارا .  
قوله تعالى ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء  
ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾

اعلم أنه قرأ عاصم وحزة والكسائي (كذبوا) بالتخفيف ، و كسر المذال والباقون بالتشديد ،  
ومعنى التخفيف من وجهين : أحدهما : أن الظن واقع بالقوم ، أى حتى إذا استيأس الرسل من إيمان  
القوم فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر .

فان قيل : لم يجر فيما سبق ذكر المرسل اليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير اليهم .  
قلنا : ذكر الرسل يدل على المرسل اليهم وإن شئت قلت ان ذكرهم جرى في قوله (أفلم يسيروا  
الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) فيكون الضمير عائدا إلى الذين من قبلهم من  
مكذبي الرسل والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان .

﴿والوجه الثانى﴾ أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا وهذا التأويل  
منقول عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما قالوا : وانما كان الأمر كذلك لأجل  
ضعف البشرية إلا أنه بعيد ، لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب ، بل يخرج بذلك عن الإيمان  
فكيف يجوز مثله على الرسل ، وأما قراءة التشديد فحقها وجهان : الأول : أن الظن بمعنى اليقين ،  
أى وأيقنوا أن الأمم كذبهم تكذيبا لا يصدر منهم الايمان بعد ذلك ، حينئذ دعوا عليهم فهناك  
أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال ، وورود الظن بمعنى العلم كثير فى القرآن قال تعالى  
(الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) أى يتيقنون ذلك . واثانى : أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير

أَهْدَ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومه فظن الرسل ان الذين آمنوا بهم كذبوهم وهذا التأويل منقول عن عائشة رضى الله عنها وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية . روى أن ابن أبي مليكة نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : وظن الرسل أنهم كذبوا ، لأنهم كانوا بشرا ألا ترى إلى قوله (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) قال فذكرت ذلك لعائشة رضى الله عنها فأذكرته وقالت : ما وعد الله بمحمد صلى الله عليه وسلم شيئا إلا وقد علم أنه سيوفيه ولكن البلاء لم يزل بالأنبياء حتى خافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم وهذا الرد والتأويل في غاية الحسن من عائشة .

وأما قوله «(جاءهم نصرنا)» أى لما بلغ الحال إلى الحد المذكور (جاءهم نصرنا فنجى من نشاء) قرأ عاصم وابن عامر (فنجى من نشاء) بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على الميسم فاعله ، واختاره أبو عبيدة لأنه في المصحف بنون واحدة . وروى عن الكسائي : إدغام إحدى النونين في الأخرى وقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم وسكون الياء ، قال بعضهم : هذا خطأ لأن النون متحركة فلا تدغم في الساكن ، ولا يجوز إدغام النون في الجيم ، والباقون بنونين . وتخفيف الجيم وسكون الياء على معنى : ونحن فعل بهم ذلك .

واعلم أن هذا حكاية حال ، ألا ترى أن القصة فيها مضى ، وإنما حكى فعل الحال كما أن قوله (هذا من شيعته وهذا من عدوه) إشارة إلى الحاضر والقصة ماضية .

قوله تعالى «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء . وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»

اعلم أن الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول ، والمراد منه التأمل والتفكير ، ووجه الاعتبار بقصصهم أمور : الأول : أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقاءه في الحب ، وإعلائه بعد حبسه في السجن . وتمليك مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبد لهم . وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة ، لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته . الثاني : أن الأخبار عنه جار مجرى الأخبار عن الغيب ، فيكون معجزة دالة على صدق محمد

محمد صلى الله عليه وسلم . الثالث : أنه ذكر في أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) ثم ذكر في آخرها (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) تنبيها على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة . والمراد من قصصهم قصة يوسف عليه السلام وإخوته وأبيه ، ومن الناس من قال : المراد قصص الرسل لأنه تقدم في القرآن ذكر قصص سائر الرسل إلا أن الأولى أن يكون المراد قصة يوسف عليه السلام .

فان قيل : لم قال (عبرة لأولي الألباب) مع أن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ذوى عقول وأحلام . وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك .

قلنا : إن جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار ، والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة كونها بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل ، أو نقول : المراد من أولى الألباب الذين اعتبروا وتفكروا وتأملوا فيها واتفَعوا بمعرفة . لأن (أولى الألباب) لفظ يدل على المدح والثناء فلا يليق إلا بما ذكرناه . واعلم أنه تعالى وصف هذه القصة بصفات .

((الصفة الأولى)) كونها (عبرة لأولي الألباب) وقد سبق تقريره .

((الصفة الثانية)) قوله (ما كان حديثا يفترى) وفيه قولان : الأول : أن المراد الذي جاء به وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفترى لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة من غير تفاوت ، والثاني : أن المراد أنه ليس يكذب في نفسه ، لأنه لا يصح الكذب منه . ثم إنه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال (ولكن وتصديق الذي بين يديه) وهو إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة وسائر الكتب الإلهية . ونصب تصديقا على تقدير ولكن كان تصديق الذي بين يديه كقوله تعالى (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله) قاله الفراء والزجاج . ثم قال : ويجوز رفعه في قياس النحو على معنى : ولكن هو تصديق الذي بين يديه :

((والصفة الثالثة)) قوله (وتفصيل كل شيء) وفيه قولان : الأول : المراد وتفصيل كل شيء من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته ، والثاني : أنه عائد إلى القرآن ، كقوله (ما فرطنا في الكتاب من شيء) فان جعل هذا الوصف وصفا لكل القرآن أليق من جعله وصفا لقصة يوسف وحدها ، ويكون المراد : ما يتضمن من الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين . قال الواحدي على التفسيرين جميعا : فهو من العام الذي أريد به الخاص كقوله (ورحمتي وسعت كل شيء) يريد : كل شيء يجوز أن يدخل فيها وقوله (وأوتيت من كل شيء)



الصفة الرابعة والخامسة) كونها هدى في الدنيا وسببا لحصول الرحمة في القيامة لقوم يؤمنون حصهم بالذكر لأنهم هم الذين اتفقوا به كما قررناه في قوله (هدى للمتقين) والله أعلم بالصواب ،  
واليه المرجع والمآب قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم  
الاربعاء السابع من شعبان ، ختم بالخير والرضوان . سنة احدى وستائة ، وقد كنت ضيق الصدر  
جدا بسبب وفاة الولد الصالح محمد نغمته الله بالرحمة والغفران وخصه بدرجات الفضل والاحسان  
وذكرت هذه الايات في مرثيته على سبيل الإيجاز :

فلو كانت الأقدار منقاداً لنا	فدينك من حماك بالروح والجسم
ولو كانت الأملاك تأخذ رشوة	خضعنا لها بالرق في الحكم والاسم
ولكنه حكم إذا حان حينه	سرى من مقر العرش في لجة اليم
سأبكي عليك العمر بالدم دائماً	ولم أنحرف عن ذاك في الكيف والكم
سلام على قبر دفنت بتربه	واتحفك الرحمن بالكرم والجسم
وما صدني عن جعل جفني مدفناً	لجسمك إلا أنه أبداً يهيم
وأقسم إن مسوا رفاقي ورمي	أحسوا بنار الحزن في مكن العظم
حياتي وموتي واحد بعد بعدكم	بل الموت أولى من مداومة الغم
رضيت بما أهضى الاله بحكمه	لعلى بأني لا يجاوزني حكمي

وأنا أوصي من طالع كتابي واستفاد مافيه من الفوائد النفيسة العالية أن يحص ولدى ويخصني  
بقراءة الفاتحة . ويدعو لمن قدم مات في غربة بعيدا عن الاخوان والاب والام بالرحمة والمغفرة  
فاني كنت أيضاً كثير الدعاء لمن فعل ذلك في حقى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً  
كثيراً آمين والحمد لله رب العالمين .

## سورة الرعد

مدنية . وآياتها : ٤٣ ، نزلت بعد سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر  
الناس لا يؤمنون «١»

## سورة الرعد

أربعون وثلاث آيات مكية

سوى قوله تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) وقوله (ومن عنده علم  
الكتاب) قال الأصم هي مدنية بالاجماع سوى قوله تعالى (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون»  
اعلم أنا قد تكلمنا في هذه الألفاظ قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه : أنا الله أعلم . وقال  
في رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن ، وقد أمأها أبو عمرو والكسائي وغيرهما وفخمها جماعة منهم  
عاصم وقوله (تلك) إشارة إلى آيات السورة المسماة بالرعد . ثم قال : إنها آيات الكتاب . وهذا  
الكتاب الذي أعطاه محمداً بأن ينزله عليه ويجعله باقياً على وجه الدهر وقوله (والذي أنزل إليك  
من ربك) مبتدأ وقوله (الحق) خبره ومن الناس من تمسك بهذه الآية في نفى القياس فقال : الحكم  
المستنبط بالقياس غير نازل من عند الله وإلا لكان من لم يحكم به كافراً لقوله تعالى (ومن لم يحكم

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهُنَّ آمَنَ سُبْحَانَكَ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ  
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ  
 بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وبالإجماع لا يكفر فثبت أن الحكم المثبت بالقياس غير نازل من عنده. وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون حقاً لأجل أن قوله (والذي أنزل إليك من ربك الحق) يقتضي أنه لاحق إلا ما أنزله الله فكل ما ينزله الله وجب أن لا يكون حقاً، وإذا لم يكن حقاً وجب أن يكون باطلا لقوله تعالى (فماذا بعد الحق إلا الضلال) ومثبت القياس يجبون عنه بأن الحكم المثبت بالقياس نازل أيضاً من عنده، لأنه لما أمر بالعمل بالقياس كان الحكم الذي دل عليه القياس نازلاً من عنده. ولما ذكر تعالى أن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق بين أن أكثر الناس لا يؤمنون به على سبيل الزجر والتهديد.

قوله تعالى «الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها» أم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون» اعلم أنه تعالى لما ذكر أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقبيه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد وهو هذه الآية وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال صاحب الكشاف : الله مبتدأ والذي رفع السموات خبره بدليل قوله (وهو الذي مد الأرض) ويجوز أن يكون الذي رفع السموات صفة وقوله (يدبر الأمر يفصل الآيات) خبرا بعد خبر، وقال الواحدي : العمد الأساطين وهو جمع عماد يقال عماد وعمد مثل اهاب وأهب، وقال الفراء : العمد والعمد جمع العمود مثل أديم وأدم، وقضم وقضم وقضم، والعماد العمود ما يعمد به الشيء. ومنه يقال : فلان عمد قومه إذا كانوا يعتمدون به فيما بينهم (المسألة الثانية) اعلم أنه تعالى استدل بأحوال السموات وبأحوال الشمس والقمر وبأحوال الأرض وبأحوال النبات، أما الاستدلال بأحوال السموات بغير عمد ترونها فالمعنى : أن هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل أن يكون بقاءها هناك لأعيانها ولذواتها لوجهين. الأول : أن الاجسام متساوية في تمام الماهية ولو وجب حصول جسم في حين معين لوجب حصول كل جسم في ذلك الحين. والثاني : أن الخلائق لا نهاية له والاحياز المعترضة في ذلك

الحلاء الصرف غير متناهية وهى بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم فى حيز معين لوجب حصوله فى جميع الأحياز ضرورة أن الأحياز بأسرها متشابهة فثبت أن حصول الأجرام الفلكية فى أحيازها وجهاتها ليس أمراً واجباً لذاته بل لابد من مخصص ومرجح ، ولا يجوز أن يقال إنها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها ، وإلا لعاد الكلام فى ذلك الحافظ ولزم المرور إلى مالا نهاية له وهو محال فثبت أن يقال الأجرام الفلكية فى أحيازها العالية لأجل أن مدبر العالم تعالى وتقدس أوقفها هناك . فهذا برهان قاهر على وجود الاله القاهر القادر . ويدل أيضاً على أن الاله ليس بجسم ولا مختص بحيز ، لأنه لو كان حاصلًا فى حيز معين لامتنع أن يكون حصوله فى ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا أن الأحياز بأسرها متساوية فيمتنع أن يكون حصوله فى حيز معين لذاته فلا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وكل ما حصل بالفاعل المختار فهو محدث فاخصاصه بالحيز المعين محدث وذاته لا تنفك عن ذلك الاختصاص . ومالا يخلو عن الحادث فهو حادث ، فثبت أنه لو كان حاصلًا فى الحيز المعين لكان حادثاً . وذلك محال . فثبت أنه تعالى متعال عن الحيز والجهة ، وأيضاً كل ماساك فهو سماء ، فلو كان تعالى موجوداً فى جهة فوق جهة لكان من جملة السموات فدخل تحت قوله (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) فكل ما كان مختصاً بجهة فوق جهة فهو محتاج إلى حفظ الاله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الاله منزهاً عن جهة فوق . أما قوله (ترونها) ففيه أقوال : الأول : أنه كلام مستأنف والمعنى : رفع السموات بغير عمد . ثم قال (ترونها) أى وأتم ترونها أى مرفوعة بلا عمد . الثانى : قال الحسن فى تقرير الآية تقديم وتأخير تقديره : رفع السموات ترونها بغير عمد .

واعلم أنه إذا أمكن حمل الكلام على ظاهره كان المصير إلى التقديم والتأخير غير جائز . والثالث : أن قوله (ترونها) صفة للعمد . والمعنى : بغير عمد مرئية ، أى للسموات عمد . ولكننا لانراها قالوا : ولها عمد على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا ولكنكم لاترونها . وهذا التأويل فى غاية السقوط ، لأنه تعالى ذكر هذا الكلام ليكون حجة على وجود الاله القادر . ولو كان المراد ما ذكره لما ثبتت الحجة : لأنه يقال إن السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأى دلالة لثبوتها على وجود الاله ، وعندى فيه وجه آخر أحسن من الكل . وهو أن العماد ما يعتمد عليه وقد دللنا على أن هذه الاجسام انما بقيت واقفة فى الجو العالى بقدرة الله تعالى وحيث أن يكون عمدها هو قدرة الله تعالى . فنتج أن يقال إنه رفع السماء بغير عمد ترونها أى لها عمد فى الحقيقة إلا أن تلك العمدهى قدرة الله تعالى وحفظه وتديره وابقاؤه إياها فى الجو العالى وأنهم لا يرون ذلك التدبير



ولا يعرفون كيفية ذلك الامساك .

وأما قوله «ثم استوى على العرش» فاعلم أنه ليس المراد منه كونه مستقراً على العرش ، لأن المقصود من هذه الآية ذكر ما يدل على وجود الصانع ويجب أن يكون ذلك الشيء مشاهداً معلوماً وأن أحداً ما رأى أنه تعالى استقر على العرش إلا أن ذلك لا يشعر بكمال حابه وغاية جلاله . بل يدل على احتياجه إلى المكان والحيز . وأيضاً فهذا يدل على أنه ما كان بهذه الحالة ثم صار بهذه الحالة . وذلك يوجب التغير وأيضاً الاستواء ضد الارتفاع فظاهر الآية يدل على أنه كان معوجاً مضطرباً ثم صار مستوياً وكل ذلك على الله تعالى . فثبت أن المراد استوائه على عالم الأجسام بالقهر ومقدرة والتدبير والحفظ يعنى أن من فرق العرش إلى ماتحت الثرى في حفظه وفي تدبيره وفي الاحتياج إليه . وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر : فهو قوله سبحانه وتعالى (وسحر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) واعلم أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة :

«النوع الأول» قوله (وسحر الشمس والقمر) وحاصله يرجع إلى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام . وذلك لأن الأجسام متماثلة بهذه الأجرام قابلة للحركة والسكون فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لا بد له من مخصص . وأيضاً أن كل واحدة من تلك الحركات محتصة بكيفية معينة من البطء والسرعة فلا بد أيضاً من مخصص لاسيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الأحيان وتسكن في البعض فخصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر لا بد فيه أيضاً من مرجح .

«الوجه الثالث» وهو أن تقدير تلك الحركات والسكنات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها وأدوارها متساوية بحسب المدة حالة عجبية فلا بد من مقدر .

«والوجه الرابع» أن بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة إلى الشمال وبعضها مائلة إلى الجنوب وهذا أيضاً لا يتم إلا بتدبير كامل وحكمة بالغة .

«النوع الثاني» من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله (كل يجري لأجل مسمى) وفيه قولان : الأول : قال ابن عباس : للشمس مائة وثمانون منزلاً كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة أشهر ، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد منها في ستة أشهر أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلاً . فالمراد بقوله (كل يجري لأجل مسمى) هذا . وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه

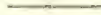
الكواكب سيرا خاصا إلى جهة خاصة بمقدار خاص من للسرعة والبطء. ومتى كان الأمر كذلك لزوم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولحظة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك .

«والقول الثاني» أن المراد كونهما متحركين إلى يوم القيامة ، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت . وإذا السماء انشقت . وإذا السماء انفطرت . وجمع الشمس والقمر) وهو كقوله سبحانه وتعالى (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال (يدبر الأمر) وكل واحد من المفسرين حمل هذا على تدبير نوع آخر من أحوال العالم والأولى حمله على الكل فهو يدبرهم بالإنجاد والاعدام وبالأحياء والاماتة والافتناء والافقار ، ويدخل فيه إنزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد . وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لأن هذا العالم المعلوم من أعلى العرش إلى ماتحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها إلا الله تعالى ، والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ، ليس إلا من الله تعالى ومن المعلوم أن كل من اشتغل بتدبير شيء فإنه لا يمكنه تدبير شيء آخر إلا الباري سبحانه وتعالى فإنه لا يشغله شأن عن شأن أما العاقل فإنه إذا تأمل في هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الأجسام وعالم الأرواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه للمحدثات والممكنات .

ثم قال « يفصل الآيات » وفيه قولان : الأول : أنه تعالى بين الآيات الدالة على إلهيته وعلمه وحكمته . والثاني : أن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان : أحدهما : الموجودات الباقية الدائمة كالآفلاك والشمس والقمر والكواكب ، وهذا النوع من الدلائل هو الذي تقدم ذكره . والثاني : الموجودات الحادثة المتغيرة ، وهي الموت بعد الحياة ، والفقر بعد الغنى ، والهرم بعد الصحة ، وكون الأحق في أنها العيش ، والعاقل الذكي في أشد الأحوال ، فهذا النوع من الموجودات والأحوال دلالاتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة باهرة . وقوله (يفصل الآيات) إشارة إلى أنه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التمين والتفصيل .

ثم قال « اعلمكم بقاء ربكم توقنون » واعلم أن الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم فهي أيضاً تدل على صحة القول بالحشر والنشر لأن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها فلا ينقدر على الحشر والنشر كان أولى بربوبي أن رجلا قال لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه أنه تعالى كيف

يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويحيي دعاءهم الآن دفعة واحدة . وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية ولشيرات السكوكية في الجو العالي وان كان الخلق عاجزين عنه ، وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش إلى ما تحت تروى بحيث لا يشغله شأن عن شأن فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن ومن الاصحاب من تمسك بلفظ اللقاء على رؤية الله تعالى وقد مر تقريره في هذا الكتاب مرارا وأطوارا .



تم الجزء الثامن عشر ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع عشر ، وأوله قوله تعالى  
 ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ من سورة الرعد . أعان الله على إكمال

# فهرست

## الجزء الثامن عشر

من التفسير الكبير للامام الفخر الرازي

صفحة	صفحة
٢	قوله تعالى «ونادى نوح ربه» الآية
٥	» قال رب اني أعوذ بك أن
٦	أسألك ما ليس لي به دلم» الآية
٨	» قال يانوح اهبط بسلام منا»
٩	» تلك من أنباء الغيب نوحيها
١١	إليك» الآية
١٢	» وإلى عاد أخاهم هودا» الآية
١٤	» «ه يا قوم استغفروا ربكم» الآية
١٥	» قالوا يا هود ما جئتنا بآية» الآية
١٦	» «فان تولوا فقد أبلغنكم» أرسلت
١٨	به اليكم» الآية
١٩	» «وتلك عاد جحدوا بآيات
٢٠	رهم وعصوا رسله» الآية
٢١	» «وإلى ثمود أخاهم صالحا» الآية
٢٢	» قال يا قوم أرأيتم إن كنت
٢٣	على بينة من ربي» الآية
٢٤	» «ويا قوم هدد ناقة الله» الآية
٢٥	» «فلما جاء أمرنا نجينا صالحا»
٢٦	» «وأخذ الذين ظلموا الصبح»
٢٧	» «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم
٢٨	بالبرى» الآية
٢٩	» «فلما رأى أيديهم لا تصل إليه»
٣٠	» «قالت يا بلى أألدؤ أنا نبوز»
٣١	» «فلما ذهب عن إبراهيم الروع»
٣٢	» «إن إبراهيم لحليم أواه ميب»
٣٣	» «يا إبراهيم أعرض عن هذا»
٣٤	» «وجاءه قومه يهرعون إليه»
٣٥	» «قالوا القد علمت مانا في بناتك
٣٦	من حق» الآية
٣٧	» «قالوا يا لوط إننا ربك بلنا»
٣٨	» «فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها
٣٩	» «وإلى مدين أخاهم شعيبا» الآية





صفحة		صفحة
١٣٢	قوله تعالى «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات» الآية	١٦٥
١٣٣	» «ودخل معه السجن فتيان» الآية	» «عليه» الآية
١٣٥	» «قال لا يأتيك طعام ترزقانه»	١٦٦
١٣٩	» «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون» الآية	١٦٧
١٤١	» «ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها» الآية	» «فان لم تأتوني به فلا كبيل لكم عندى» الآية
١٤٢	» «يا صاحبي السجن أما أحدكم فيسقى ربه خمرًا» الآية	١٦٨
١٤٣	» «وقال للذي ظن أنه ناج منهما»	» «وقالوا لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم» الآية
١٤٦	» «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان» الآية	١٧٠
١٤٨	» «وقال الذى نجا منهما» الآية	» «ولما فتحوا متاعهم»
١٤٩	» «قال زرعون سبع ستين دأبا»	١٧١
١٥١	» «وقال الملك اتنوني به» الآية	» «قال ان أرسله معكم»
١٥٤	» «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب»	١٧٢
١٥٦	» «وما أبرئ نفسي» الآية	» «وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد» الآية
١٥٨	» «وقال الملك اتنوني به أستخلصه نفسي» الآية	١٧٦
١٦٠	» «قال اجعلنى على خزائن الأرض» الآية	» «ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم» الآية
١٦٢	» «وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض» الآية	١٧٧
١٦٤	» «ولا جبر الآخرة خير» الآية	» «قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض»
		١٨١
		» «فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه»
		١٨٣
		» «قالوا فان يسرق فقد سرق أخ له من قبل»
		١٨٥
		» «قالوا يا أيها العزيز»
		١٨٦
		» «فلما استبأ سوا منه خلصوا نجيا»
		١٨٨
		» «ارجعوا إلى أبيكم» الآية
		١٩٠
		» «واسأل القرية التى كنا فيها»
		١٩١
		» «قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا»

صفحة	ص	صفحة
١٩٢	»	٢١٦ «رب قد آتيتني من الملك»
	»	١٢٢ «ذلك من أنباء الغيب» الآية
١٩٤	»	٢٢٣ «يكأين من آية في السموات والأرض» الآية
١٩٦	»	٢٢٤ «قل هذه سبيلي أدعو الى الله»
٢٠٠	»	٢٢٥ «وما أرسلنا من قبلك الا رجالا» الآية
٢٠٢	»	٢٢٦ «حتى اذا استيأس الرسل»
٢٠٤	»	٢٢٧ «لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الالباب» الآية
٢٠٦	»	٢٣٠ سورة الرعد
٢٠٧	»	٢٣٠ «الم تملك آيات الكتاب والذي أنزل اليك» الآية
٢٠٨	»	٢٣١ «الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها» الآية
٢٠٩	»	٢٣٥ «لعلكم بلقاء ربكم توقنون»
٢١٠	»	
٢١٢	»	